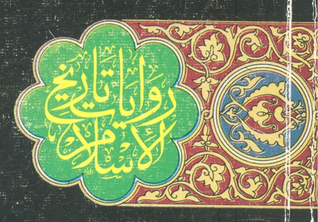


أسير المتمهدي

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

روايات
تاريخ الإسلام

أسير المتمهدي

تتضمن وصف مصر والسودان في الربع الاخير من القرن الماضي ، ودسائس الدول الاجنبية التي أدت الى الثورة العرابية في مصر والثورة المهدية في السودان ، والاحتلال البريطاني لوادي النيل

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

أبطال الرواية

الخديو محمد توفيق	: خديو مصر
احمد عرابي باشا	: قائد الثورة العرابية
محمد احمد المهدي	: الخليفة المتمهدي
هيكس باشا	: قائد الحملة المصرية
غوردون باشا	: حكمدار السودان
الامير عبد الحليم	: قائد جند المتمهدي
ابراهيم	: موظف بالقنصلية الانجليزية
سعدى	: زوجة ابراهيم
الكابتن شفيق	: (اسير المتمهدي)
فدوى	: بنت احد الباشوات الموراليين
عزيز	: من ابناء الذوات
بخيت	: خادم فدوى
احمد	: خادم شفيق

- ١ -

فذلكة تاريخية

في سنة ١٨٧٨ ، كانت القاهرة حيث جرت وقائع هذه الرواية قد اتسع عمرانها ، وازداد سكانها وروادها ، وكان الخلفاء الفاطميون هم الذين انشأوها في منتصف القرن الرابع للهجرة ، في المكان الذي اناخوا فيه جمالهم يوم جاءوا لافتتاح الفسطاط عاصمة مصر اذ ذاك — وفي ذلك المكان الان حي الجمالية والجامع الازهر وما جاورهما من الجوامع القديمة — وما زالت القاهرة تتسع عمارتها ولاسيما منذ حكمت الاسرة المحمدية العلوية ، وعلى الاخص في عهد الخديو اسماعيل ، الذي اراد ان يجعلها قطعة من اوربا ، فأكثر فيها من فتح الشوارع الحديثة وانشاء الاحياء الجديدة المنظمة ، فأنشئت تبعا لذلك ألوف المنازل والقصور والحدائق خارج المدينة الاصلية ، وزودت هذه الشوارع الجديدة المتسعة بالاشجار تحف بها من الجانبين ، وأنيرت المدينة كلها بالغاز ، فأصبح ليلها كنهارها وازدادت بهجة ورونقا ، وكثرت بها الاماكن العامة ولاسيما حول حديقة الازبكية .

وقد أمر الخديو اسماعيل بأن ينشأ حول الحديقة سور حديدي انيق

تحدق به هالة من الانوار الغازية ، كما أمر بأن تعزف الموسيقى العسكرية كل مساء بالقرب من البحيرة المستديرة بالحديقة .

وكنت اذا دخلت الحديقة في المساء ، وأتيت المنصة المستديرة المزينة بالانوار الغازية حيث تعزف الموسيقى ، رأيت الناس محدقين بها أفواجا على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم ومراتبهم ولغاتهم وألوانهم ، من القوقازي الابيض الناصع ، الى الزنجي الاسود الحالك . وعلى اختلاف أزيائهم بين العمامة العربية والطربوش العثماني والقاووق الفارسي والقبعة الافرنجية والبنطلون والقفطان والسراويل ، وبين الخمار المغربي والحبرة المصرية والازار وغير ذلك من الانواع والاشكال مما لا يتفق وجوده في غير مصر .

اما المدينة الاصلية ، فكانت على عكس ذلك ، ما زال معظم اسواقها لى النمط القديم من الضيق وعدم الانتظام ، ولم تستجب حاراتها لوسائل التنظيف والتنظيم التي ارادها الخديو ، فبقيت ضيقة الطرق معوجة الدروب. وكأن الاقدمين ارادوا بتضييق الطرق استجلاب البرودة بحجب أشعة الشمس عنها . فرأى الخديو اسماعيل ان يعوض عن ذلك في الشوارع الحديثة بغرس الاشجار التي تظلل الطرق وترطب الهواء بما يتصاعد عنها وعن الطرق المرشوشة من البخار .

- ٢ -

شفيق وفدوى

كان في شارع العباسية بالقاهرة في سنة ١٨٧٨ منزل مبني على

الطراز الحديث كسائر المنازل الحديثة هناك ، ولكنه من أقلها فخامة واتساعا ، وبه حديقة صغيرة بسيطة ، تشرف على الشارع الحديث المظلل بأشجار اللبخ المغروسة على جانبيه .

وكان هذا المنزل يشتمل على غرف عدة مفروشة بالاثاث البسيط غير الثمين ولكنه غاية في النظافة والترتيب . وبينها غرفة بها خزانتان تشتملان على كتب بلغات مختلفة ، وفي احد أركانها منضدة عليها بعض الكتب وبجانبها رجل في العقد الخامس من عمره يرتدي الزي الافرنجي وليس على رأسه شيء ، وقد جلس على كرسي هناك وفي يده كتاب يطالع فيه وليس في الغرفة غيره والباب مغلق عليه .

كان الرجل قمحي اللون اسود الشعر واسع الجبهة حليق اللحية ، في شعره شيب ، وفي وجهه تجعد وفي عينيه ذكاء وفي مظهره عبوس ، كأنه ناقم على الدهر الذي قضي عليه بالاكتفاء من الدنيا بولد ذكر أنفق كل حياته في تربيته وتثقيفه ، فضلا عن انه ما انفك منذ سنين كاسف البال مرتبك الافكار منقبض النفس كأنه أصيب بنكبة من نكبات الزمان . ولم يكن احد يعلم سبب ذلك الارتباك حتى ولا امرأته مع انها حاولت استطلاع ذلك مرارا اذ كان ينكر عليها تارة ويعدها اخرى ، وقد مر عليها منذ تزوجها نحو العشرين سنة وهي حائرة في امره ، لا يهدأ لها بال لجهلها سبب ذلك الانقباض .

ومما زاد في حيرتها ودهشتها ان زوجها كان يحتفظ بصندوق صغير لم يفتحه منذ تزوجته . وقد طالما سألته ان يطلعها على ما فيه ، فكان يرفض ذلك ويقول لها : «سيأتي يوم تعرفين فيه سر جميع هذه الغرائب وتعذرينني على كتمانها عنك» . ولم يكن هذا الكلام الا ليزيد في تشوقها وتلهفها لمعرفة ما في ذلك الصندوق ، فمضت تلح عليه في ذلك الى ان وعدها بأن يطلعها على ما في الصندوق بشرط ان تكتفي بذلك وتبقيه

مكتوما عن كل انسان سواهما ، وآلا تعود فتسأله شيئا من التفصيل . لانه لن يفوه بكلمة واحدة بعد ذاك . فقبلت هذا الشرط ، وحــــدد منتصف الليلة التالية موعدا لفتح الصندوق بعد ان ينام اهـل البيت جميعـا .

وكان الرجل في تلك الساعة جالسا يفكر في مسألة الصندوق ، وقلبه يرتجف كلما تصور انه فتحه ، فأخذ يتلهى بمطالعـــــة بعض الكتب والجرائد . فلما كان الغروب انتبه بغتة كمن هب من رقاد ، ونظر الى الساعة ثم دق جرسا امامه ، فحضر خادم اسمر عليه جلباب وعمامة ، فقال له الرجل : «ألم يحضر شفيق بعد ؟»

فقال الخادم : «لا يا سيدي . لم أره هذا المساء» . فاضطرب الرجل وسكت هنيهة ثم قال للخادم : «اذهب يا احمد فادع سيدتك سعدى الى هنا» . فحنى احمد رأسه مجيبا ، وخرج .

وبعد قليل جاءت سعدى ، وهي أصغر سنا من زوجها ، ووجهها اكثر طلاقة ، ولباسها على الطراز التركي وفي يدها مجلة المقتطف كانت تتلهى بمطالعتها في غرفتها الى ان يحين موعد فتح الصندوق .

فاستقبلها قائلا : «ألم يأت شفيق بعد يا سعدى ؟» . فقالت : «لم أره هذا المساء ، وكنت أحسب انه جاء ودخل حجرتك يطالع الجرائد او يقرأ شيئا اخر . ويلاه ! ترى اين ذهب الليلة فلم يحدث ان تأخر الى مثل هذا الوقت ؟»

وأخذت تدق يدا بيد ، ثم سألت زوجها : «كم الساعة ؟» . فلما علمت انها السابعة بعد الظهر قالت : «انه يحضر عادة بعد اغلاق المدرسة التجهيزية بساعة ، اي في الساعة الخامسة فماذا أخره ؟»

فلما عاين زوجها اضطرابها ندم على ما اظهره من القلق امامها وقال: «لا بأس عليه من التأخير ، فالمدينة في أمان ، والشوارع لا تخلو مــن

المارة الى ما بعد نصف الليل ، فلعل شفيقا ذهب مع زملائه التلامذة الى حديقة الازبكية ليسمعوا انغام الموسيقى العسكرية ، او لعلهم دعوا الى منزل احدهم ، فلا داعي للقلق» •

فقالت سعدى : «لا تعتمد على الظنون يا ابراهيم ، وما دام وحيدنا قد تأخر على غير عادته ، فيجب ان نبحث الامر» •

فأجابها بصوت منخفض قائلا : «لا خوف عليه باذن الله ، وأؤكد لك انك سترينه امامك هنا عما قليل ، وها أنذا قد احضرت له بعض الجرائد الافرنجية والمقالات العلمية ليطالعها» •

فقالت سعدى : «وأنا ايضا سأطلعه على مقالة في هذه المجلة تدور حول مآثر العرب في الاندلس ، ولكني ما زلت قلقة لتأخره» •

فقال : «لا تجزعي انه في حراسة الله» •

فسكتت سعدى مراعاة لشعور زوجها واحتراما لرأيه ، وعادت الى حجرتها حيث استندت الى نافذة مشرفة على الشارع ، ولبثت تنتظر مجيء ولدها وهي على مثل الجمر ، وقد نسيت اشتياقها الى استطلاع ما في الصندوق •

اما ابراهيم زوجها فلم يعد يستطيع صبرا • فأخذ يقلب كتابا امامه ليشغل نفسه به ريثما يأتي ابنه • وقد اظلمت الدنيا في عينيه ، لان شفيقا لم يتأخر من قبل الى مثل تلك الساعة • ثم سمع الساعة تدق ثماني دقات فازدادت دقات قلبه ودعا الخادم وسأله : «أتعرف بيت عزيز أفندي صديق شفيق ؟»

قال : «نعم يا سيدي •• انه ذلك البناء الكبير في شارع عابدين» •

فقال : «اذن اذهب اليه الان واسأل عن شفيق ، فان وجدته هناك فات به معك لاننا في انتظاره لتناول العشاء» •

فحنى رأسه سمعا وطاعة ومضى • ولم يكد يخرج حتى عادت سعدى

الى غرفة زوجها تسأله عن شفيق فأخبرها بما فعل ، ثم عادت الى غرفتها.
ولبث الاثنان ينتظران حتى عاد الخادم وحده ، فبادره ابراهيم بالسؤال عن شفيق فقال : «قد ذهبت الى بيت عزيز افندي ، فقيل لي انه لم يجيء الى البيت بعد ، الا انهم غير قلقين لذلك فليست هي اول ليلة باتها خارج المنزل » .

فقال ابراهيم : «هل تحققت ذلك ؟» . قال : «نعم يا سيدي ، وأنا أعلم ان سيدي شفيقا لا يألف الجلوس في المقاهي . ولذلك لم أبحث عنه هناك» .

فازداد ابراهيم قلقا واضطرابا لكنه كظم ما به خوفا على امرأته لانها كانت شديدة التعلق بوحيدها ، ولم يكن هو أقل تعلقا به منها . الا ان الرجل أكثر صبرا على مثل ذلك من النساء .

وفيما هو واقف يخاطب الخادم جاءت امرأته مسرعة ، فلما لم تر شفيقا صاحت قائلة : «اين شفيق يا احمد ؟» . فقال الخادم : «لم اجده في بيت عزيز افندي يا سيدتي ، وقد سألت الخدم هناك فلم اجد لديهم علما بشيء عن تأخرهما» .

فبادرها زوجها قائلا : «لا يلبث شفيق ان يأتي كما قلت لك ، فلا يضطرب قلبك يا سعدى ، ولنصبر قليلا فان لم يجيء فسأذهب انا للبحث عنه» .

فضربت سعدى كفا بكف ووقفت صامتة وقد ملأت الدموع عينيها. اذ لم تستطع التجلد ، ونظرت الى زوجها فاذا هو غارق في بحار الهواجس على انه حين التفت فرآها تنظر اليه . تكلف الابتسام اخفاء لعواطفه وقال : «سامح الله شفيقا ، انه الان يلهو ويمرح مع صحبه وزملائه ، ولا يبالي ما يسببه تأخره من عناء لوالديه . صدق من قال : قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر . على اني سأعنفه متى جاء لكيلا

يعود ثانية الى مثل هذا» •

لم تستطع سعدى الجلوس لشدة قلقها على وحيدها ، فذهبت الى النافذة ووقفت تنظر الى الشارع المضيء بالغاز وعلى جانبيه الاشجار، وما دقت الساعة التاسعة حتى هب زوجها ولبس طربوشه ثم قال لها : «ها أنذا ذاهب للبحث عن شفيق ، ولن اغيب عنك اكثر من ساعة حتى أرجع به باذن الله» • ثم اخذ عصاه بيده وغادر امرأته على مثل جمر الغضا • فبقيت مطلة من النافذة لا تحول نظرها عن الشارع حتى دقت الساعة العاشرة • ولما لم يرجع احد زاد خفقان قلبها وأخذت ركبتاها ترتجفان وهي الى تلك الساعة لم تذق طعاما • ثم مضت تفكر في ولدها وزوجها ناسية او متناسية امر الصندوق ، حتى دقت الساعة الحادية عشرة فأظلمت الدنيا في عينيها ، وجلست معتمدة رأسها بيديها على المنضدة وأخذت تندب سوء حظها •

وفيما هي في ذلك سمعت طارقا يطرق باب الحجرة طرقا خفيفا ، فمضت الى الباب بعد ان مسحت دموعها ، وكان الخادم هو الطارق وقد جاء يقول لها : «اذا أذنت لي فاني اسير وآتيك بسيدي شفيق» • فأجفلت وقالت : «وهل تعلم مكانه ؟»

قال : «نعم ، لاني تذكرت حديثا جرى مرة بينه وبين عزيز افندي••» وسكت فقالت بلهفة : «وأين تظن مكانه ؟» • فحرق اسنانه وقال : «اظن انه ذهب مع عزيز افندي للتفرج على الاحتفال بفتح الخليج ، لاني سمعت عزيزا منذ بضعة ايام يحبب اليه الذهاب الى هناك لمشاهدة الانوار واستماع الانغام ، وكان سيدي شفيق يتمنع اول الامر مؤكدا ان المطالعة أحب لديه من مثل هذا الاحتفال ، ولكنك تعرفين سلامة نيته واخلاصه لاصدقائه فما لبث ان اقتنع بقول عزيز افندي» •

فقالت سعدى وقد لاحت على وجهها امارات البشر : «وما الذي كان

يخشاه من ذهابه الى ذلك الاحتفال ؟ لو انه أخبر بذلك أباه ما كـــان ليمنعه » •

فقال احمد : «اظن ان سيدي كان يمنعه لان أمثال هذه الاحتفالات تحدث فيها احيانا أمور مغايرة للآداب لا يرضاها سيدي الكبير» • فتنهدت وقالت : «كيفما كان الحال فان المراد ان تأتي بشفيق» • فحنى رأسه موافقا ، ومضى •

وكان احمد هذا من قبل جنديا في الجيش ، وقد تقلب مع الدهر وعرف دخائل الناس ، وكان لا يرتاح للصداقة التي بين سيده شفيـــق وزميله عزيز ، ولكنه لم يكن له ان يتدخل في ذلك •

فلما أذنت له سيدته في الخروج توجه الى فم الخليج ، ومكثت هي في البيت وقد اشتد قلقها فدعت احدى جاراتها للاستئناس بها وأتتها ببعض المنعشات ، وجلست تتلهى بالحديث معها •

* * *

كان شفيق في التاسعة عشرة من عمره ، طويل القامة معتدلها . قمحي اللون ، ذا عينين سوداوين تحت حاجبين متصلين ، صغير الفم واسـع الجبهة اسود الشعر خفيف العارضين • وكان قد ربي في بيت ابيه تربية حسنة ، فشب كريم العنصر طيب السريرة لا يعرف اساليب المكر والخداع وان كان ذكيا حاذقا ، فأدخله ابوه المدرسة التجهيزية الاميرية ليتم دروسه على نفقة الحكومة ، لانه لم يكن في سعة كبيرة من العيش ، على ان يعلمه مهنة الطب او المحاماة بعد ذلك •

وكانت ملابسه غاية في البساطة ، تتألف من السترة والبنطلـــون والطربوش • ورغم صغر سنه كان ذا مهابة ، لا يجرؤ اصدقاؤه علـى ممازحته ولو كانوا اكبر منه سنا ، وكان اساتذة المدرسة وتلامذتهـــا

يحبونه ويجلونه لادبه وذكائه واجتهاده في الدرس .

اما عزيز فكان على نقيض هذه الصفات ، لكنه على جانب عظيم من الثروة التي خلفها له ابوه . وكان قصير القامة كبير الانف شديد سمرة البشرة ، محبا للتفرنج فلا يخرج الى الشوارع الا ونظارته على عينيه وخيطها مسترسل على صدره ، دون ما يدعو الى ذلك . وكان يميـــــل طربوشه فوق رأسه تيها وعجبا ، وحول عنقه ياقة منشاة لا تمكنه من ادارة رأسه ذات اليمين او ذات اليسار الا بصعوبة . واذا وقف يقف منتصبا وان شئت فقل متطاولا ، وفي يده اليمنى عصا غليظة معقوفـــة الرأس ، وفي اليسرى سلسلة ساعته الذهبية الغليظة يلاعب بها الهواء ، وفي فمه السيكارة الافرنجية الضخمة . ومن شر اخلاقه الادعاء والحسد والرياء وحب الرفعة عن غير استحقاق .

وكان شفيق غير راض عن اخلاقه هذه ، ولكنه اضطر الى صحبته بحكم تجاورهما في المدرسة فقط . وكثيرا ما تظاهر عزيز امامه بمـــــا يرضيه استبقاء لصداقته لانه كان يحتاج اليه في اشياء كثيرة اهمهـــــا مراجعة الدروس معه .

وكان من عادة الخديو اسماعيل ان يختار أنجب تلامذة المدرســـــة لارسالهم الى اوربا لدراسة الطب والحقوق وغيرهما ، وقد توقع جميع التلاميذ تلك السنة وقوع الاختيار على شفيق . فكان عزيز كلما تصور ذلك كاد يتميز غيظا ، لا رغبة منه في العلم بل حبا للفخر ، وكأنما عــز عليه ان يكون شفيق أجل مقاما منه في حين انه ليس في غناه ، فكان لا ينفك باحثا عن وسيلة يحط بها قدر شفيق في عيون الاساتذة والتلاميذ، وما زال كذلك حتى أوشك العام الدراسي ان ينتهي وأخذ التلامذة في مراجعة الدروس ، فلاح له ان يعمل على الهاء شفيق عن دروسه ، وعلى ايقاعه فيما يشينه ، ليحول دون اختياره للبعثة . فأخذ قبل الاحتفال بفتح

الخليج ببضعة ايام يحسن له حضوره • ثم اصطحبـــه الى هناك عقب مغادرتهما المدرسة ، وحال دون استئذانه أباه في ذلك مقنعا إياه بأنــه ارسل خادمه ليقوم بهذه المهمة • وكان غرضه ان يثير على شفيق غضب ابيه • وكانت عربة عزيز تنتظرهما عند باب المدرسة وأمامها خادمـــــه المجري بلباسه القصبي ، فركباها وسارا الى الجزيرة للتنزه فيها ساعة قبل الذهاب الى مكان الاحتفال •

وظلت العربة تسير بهما في الجزيرة حتى غربت الشمس وبـــدأت الجزيرة تخلو من المارة •

وفيما كانت العربة سائرة بهما في شارع الجزيرة بين اشجار اللبخ القائمة على جانبيه ، لاحت من شفيق التفاتة الى تل صناعي هنـــــاك (جبلاية) • فرأى عند مدخل التل عربة مغلقة من عربات الحريم وأمامها فرسان من الخيل الكبيرة الروسية الاصل ، وكان الظلام قد سدل نقابه لكن العربة لم يضيء قنديلها • وساد السكون أرجاء المنطقة فلم يكـــن يسمع هناك الا حفيف شجر السرو المحدق بالتل ، ولم يشاهد احدا في العربة ولا بالقرب منها ، فقال لعزيز : «ما هذه العربة ، وفيم وقوفها هنا يا ترى ؟» • فتبسم عزيز وهز رأسه ولم يبد جوابا ، وأعاد شفيـــق السؤال بلهفة فقال عزيز : «ان لهذه العربة حكاية سأقصها عليك بعد ان نبعد من هذا المكان» • فاشتاق شفيق الى استطلاع الخبر ، وعاد الى السؤال بعد قليل ، فقال عزيز : «انها عربة احد كبار الاجانب وأصله من جزيرة المورة ، وقد جاء ابوه الى مصر برفقة ابراهيم باشا عند عـــودة حملته من هناك ، فطابت له الاقامة هنا حيث تزوج ورزق بابنه هذا وعاش في كنف الحكومة حتى رقي الى رتبة باشا واكتسب مالا طائلا ، وله ابنة واحدة بارعة الجمال تركب هذه العربة للنزهة في كثير الاحيان • فأحبها صديق لي من شبان العاصمة وخطبها لنفسه ولما طلبها من ابيها

لم يجب طلبه بدعوى انها لم ترض أخلاقه ، فأضمر لها السوء وأخبرني صباح اليوم انه تواطأ مع سائق عربتها على ان يأتي بها متأخرا الى هذا المكان للانتقام منها . ولا اخفي عليك انها اخطأت في حق صديقي الشاب فهو جميل كريم ، ولا يقل ايراده الشهري عن ثلاثين جنيها ينفقها كلها على اصدقائه ، ثم هو الى ذلك لطيف المعشر ، يضحك الثكلى بلطف حديثه ومجونـه » .

فاشتعل شفيق غيظا ، والتفت الى عزيز وقال : «انها لدناءة مـن صديقك ان يدبر للفتاة مثل هذه المكيدة !» . ثم أمر السائق ان يحول اتجاه العربة الى (الجبلاية) فأراد عزيز منعه قائلا : «مالنا ولهم ؟» . ولكن شفيقا لم يعبأ بمعارضته . وما اقتربا من الجبلاية حتى سمعا صوتـا نسائيا لطيفا مرتجفا يتخلل حفيف الاشجار ، وكانت صاحبتـه تقول : «خف الله يا رجل ، أليس عندك شرف ؟»

فسارع شفيق الى النزول من العربة ، وانطلق الى مصدر الصوت داخل ذلك التل المظلم ، ثم أشعل عودا من الكبريت فرأى في ضوئه شبحين في احد الدهاليز هناك : احدهما لفتاة والاخر لرجل ملثم وما رأت الفتاة النور حتى قالت بأعلى صوتها : «أنقذني من هذا الخائـن بحرمة الشرف والشهامة» . فلم تمض لحظة حتى كان شفيق بينهما وأهوى بعصاه على الرجل ، وسرعان ما فر هذا مسرعا فناداه شفيق بقلب لا يهاب الموت قائلا : «الى اين ايها النذل الذميم ؟» . فلم يسمع له صوتا ولا رآه لشدة الظلام في تلك المغارة ، ثم سمع وقع حوافر جواد فعلم انه تمكن من الفرار .

وقالت الفتاة لشفيق في تأثر عميق : «لا عدمت الشهامة رجالها ، من ارسلك ايها الملاك السماوي . اين انت ؟» . وكان شفيق قد رجـع ليأتي بمصباح من العربة فلم يسمع مقالها ، فلما عاد بالمصباح رأى فتاة

ترتعد خوفا ، وهي في زي نساء الاتراك ، وعلى رأسها اللثام (اليشمك) تحته وجه كأنه البدر بهاء ، وعينان سوداوان براقتان ملأتهما دمـــوع الخجل والوجل ، ووجنتان كللهما الاصفرار فأمسكت يده بيد كـادت تذوب لطفا وقالت : «لقد انقذتني من الموت والعار جزاك الله عني خيرا» .

وخفق قلب شفيق ، وغلب عليه الحياء حتى تلعثم لسانه فلم يستطع الكلام ، لكنه تجلد وقال لها : «لا بأس عليك ايتها السيدة المصونة ، ولا عاش من اراد بك سوءا . هلم الى عربتك لنسير بك آمنة الى منزلك» .

فسارت معه وهي ما زالت ممسكة يده وقد تشبثت بها مرتجفـــة مطرقة لشدة خوفها وخجلها . فلما وصلا الى العربة لم يجدا سائقها ، لانه كان قد خاف مغبة خيانته فركن الى الفرار ، فعاون شفيق الفتاة علـــى الدخول الى العربة ثم نادى سائق عربة عزيز وأمره ان ينير مصابيح عربة الفتاة ويسوقها الى حيث تأمره ، ثم أطل عليها من نافذة العربة وسألها عن حالها وهل تحتاج الى شيء ، فأشارت بعينيها وملامح وجهها شاكرة ، ومضت بها العربة . اما هو فعاد الى عربة عزيز فوجده لا يزال في مكانه بها وكأنه قطعة من خشب ، لكنه لما رآه قادما نزل من العربة واحدى يديه على نظارته لئلا تسقط ، وفي يده الاخرى سيكارته المعهودة ، وقال له : «هل بك من بأس يا عزيزي شفيق ، لقد شغلت بالي ، وكان فـــي عزمي ان انزل لمساعدتك لكني اعلم انك شهم باسل لا تحتاج الى مثلي فبقيت في انتظارك هنا ، فأين ذلك الخائن ؟»

فنظر شفيق اليه باحتقار ولم يبد جوابا ، ولما سأله عزيز عن سائق عربته ، قال : «ذهب بالعربة الثانية وسأتولى انا قيادة هذه العربة» .

فتكلف عزيز الابتسام وقال : «هل لك معرفة بقيادة العربات ؟» . فأجاب مبتسما : «نعم يا عزيزي ، والمثل يقول : (البس لكل حاجـــة لبوسها) ..» . ثم قاد العربة في اثر عربة الفتاة ، وما زالوا سائرين وقد

استولى عليهم السكوت حتى جاوزوا جسر قصر النيل ، فوقفت العربة الاولى بغتة ، فاضطرب شفيق لذلك ونزل يبحث عما دعا الى وقوفها وكان الشارع مضاء بالانوار الغازية التي مزقت بقوة نورها حجاب الظلام ؛ فلما اقترب من العربة وأطل من نافذتها على الفتاة وجدها جالسة وقد هدأ روعها وأبرقت أسرتها وأشرق وجهها . فلما رأته امسكت بيـــده ضاغطة عليها وقالت له والخجل يحول بينها وبين التأمل في وجهه : «شكرا يا سيدي ، اني مدينة لك بحياتي وشرفي هذه الليلة فلولا شهامتـــك لخسرتهما » .

فخجل شفيق وتوردت وجنتاه وتندى جبينه بالعرق ولـــم يجب ، فعادت الفتاة تقول : «هل لك ان تخبرني عن اسمك لاذكر لابي ما ابديت نحوي من الشهامة والفضل ؟»

فأجاب شفيق بصوت رقيق كان له اكبر الاثر في قلب الفتاة : «اني يا سيدتي لم أفعل الا ما اوجبته علي الانسانية ، فلست أنتظر مكافأة ، وأرجو ألا تذكري هذا الامر امام احد صيانة لشرفك» .

فقالت : «معاذ الله ان اقصد بكلامي مكافأتك ، فهذا امر لو اردته ما استطعت القيام به ، ولكن ذكر الجميل فرض على الانسان ، وأي فضل اعظم من الانقاذ من العار والموت ؟»

فقال وقد غلب عليه الخجل حتى كاد يمتنع عليه الكلام : «اني لم أفعل ما يستحق هذا الثناء ، وحسبي ان كان لي شرف انقاذ ملاك طاهر مثل سيدتي» .

قالت : «ان العبارات لا تفي بأداء حق الشكر على عواطفك الشريفة، ولا شك في اني ربحت بفضلك حياتي ، او بالاحرى شرفي الذي هو أعز من حياتي !»

وفيما هما في الحديث سمعا عزيزا ينادي : «اين انت يا شفيق ؟ لقد

أطلت الوقوف وقد حان موعد العشاء فهيا بنا» .

فقالت الفتاة : «من هذا الذي يتكلم ؟»

فقال : «هو صديق لي رافقته للنزهة على ان نسير معا الى احتفال فتح الخليج هذه الليلة» .

قالت : «لعلي ازعجتكما ، على اني ارجو ان تجيبني عن سؤالين قبل ان تعود الى صديقك» .

قال : «مري بما شئت وعلي السمع والطاعة» .

قالت : «أريد اولا ان تخبرني باسمك ان لم يكن لاعلام ابي فلأحفظه في قلبي ذكرا لشهامتك ومروءتك اللتين يعز وجودهما في شبان هذه الايام . كما اريد ان تخبرني باسم ذلك الخائن اذا كنت قد عرفته» .

قال : «أما اسمي فيكفيني فخرا ان تذكريه وهو (شفيق) . وأما ذلك الخائن فأرجو ان تسدلي على حكايته سترا ، اذ لا يليق بشريف خلقك وسامي ادبك ان تنتقمي من لئيم مثله ، فأحسبيها هفوة من هفـــوات الشباب . على اني لا أتقاعد عند الاقتضاء عن استطلاع اسمه وافادتك، فأذني لي قبل ان أودعك ان أتطفل بسؤال ارجو ألا يثقل عليك» .

قالت : «مر بما شئت فأنا رهينة امرك» .

قال : «هل لي ان أعرف اسم سيدتي ؟»

قالت : «اسمي فدوى» .

قال : «عاشت الاسماء وفدتك روحي» . ثم ضغط يدها مودعـــا فأجابته بالمثل ، وعاد الى عزيز في عربته وقلبه يخفق وركبتاه ترتجفـــان ولسان حاله يقول :

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة واني لا أودعه

وكان عزيز رفيقه قد مل طول الانتظار وكاد يتميز غيظا ، واضطرم فؤاده حسدا ، لكنه اخفى عواطفه وتكلف الابتسام وكان يعرف فدوى

منذ اشهر وقد مال اليها لكنه لم يجرؤ على طلب يدها خوفا من الفشل لعلمه انها لا تنظر الى الغنى ولا حسن الزي وتحتقر كل غر متكبر ولو ملك مال قارون • وكان لسفالة طباعه يعد كرم طباع تلك العذراء وأنفتها كبرا وتيها فسره اذلالها بيد احد السفلة لعله يستطيع بعد ذلك نيلها ، فلما حبطت مساعيه ورأى ما صنعه شفيق لانقاذها أيقن انها أحبته ، فخاف ان يسرع في السعي الى نيلها فتكون البلية عليه اعظم ، فلاح له ان يوطد امل شفيق ويجعل الامر في يده هو لعله يقوى على تفريقهما فينال مرغوبه • وقال له والعربة تسير بهما : «انك يا شفيق قد صنعت مع هذه الفتاة صنيعا ستبقى مدينة لك به مدى الدهر» •

وكان شفيق غارقا في بحار تأمله فلم يفقه خطاب عزيز ، وأدرك هذا فيم يفكر فازداد حسدا له ، ثم التفت اليه متلطفا وقال وهو يظهر المحبة: «ان مثل هذه الفتاة الطاهرة لا تليق الا بك» • فخفق قلب شفيق ولم يستطع بعد ذلك سكوتا ، لكنه هدأ روعه قدر طاقته وخفض من انفعاله وقال : «اين انا من هذه الامنية ؟ ان بيني وبينها أبعادا ، فأبوها لا يتنازل الى مصاهرة مثلي ، هذا الى اني لست في حال تؤهلني للزواج قريبا» •

فقال عزيز : «اما ابوها فعلي ارضاؤه ، لاننا في عصر قل فيه الشبان وكثرت البنات ، واني واثق بأنك لو طلبت الزواج بأية فتاة من بنات الاغنياء لقوبل طلبك بالترحيب ، وحصلت معها على مال كثير ، فالعروس الان تفعل ذلك غالبا ، وهي عادة افرنجية حديثة النشأة في بلادنا ••»

فقاطعه شفيق قائلا : «ارجو ان تكتم كل ما عرفته عن الفتاة ، صيانة لها وحفظا لشرفها وشرفي» •

وفيما هما في الحديث ، وقفت عربة الفتاة امام باب حديقة تعطر تلك الانحاء بشذى رياحينها ، وعلى جدار الحديقة الى جهة الشارع عرائش

الورد والنسرين والاقحوان • وكان منظر الحديقة من الخارج غاية في الجمال ، وفي وسطها قصر بديع الهندسة مرتفع البنيان يدل على وجاهة اصحابه وثرائهم •

وبعد قليل عاد سائق عربة عزيز بعد دخول الفتاة الى قصرها ؛ فساق العربة بهما الى حديقة الازبكية حيث ترجلا وذهبا الى مطعم هناك تناولا فيه العشاء ، ثم دخلا الحديقة وأخذا يتمشيان حول بركتها •

ومرا في الحديقة بمقهى معد للرقص والغناء ، فوقف عزيز ثم أمسك بيد شفيق ودخل به المقهى حيث جلسا الى مائدة هناك • ثم طلب قدحين من الكنياك دون ان يفطن شفيق الى ذلك لما تملك فؤاده من شواغـل الغرام • ثم أفاق على صوت عزيز وهو يناوله قدحا ، فانتبه بغتة كأنه هب من رقاد عميق والتفت الى ما حوله فاذا بالناس جماعات ووحدانـا يشربون ويطربون ويقهقهون ، ويترنح بعضهم طربا لصوت الغناء ، وآخر ينادي بأعلى صوته «آه •• كمان يا ست» • وآخرون يشرب بعضهم نخب بعض •

فنظر شفيق الى صديقه مندهشا وقال له : «اين نحن يا عزيز ؟» • قال : «نحن في محل طرب وانبساط ، خذ هـذه الكأس واشربها» • فأجفل شفيق ونهض معتذرا بأنه لا يرتاح لمثل هذا الاجتماع ، فتبسم عزيز ونظر اليه في سخرية وقال : «لعلك لا تزال صبيا كأولاد المكاتب، تخاف كأس المدام ، خذ اشربها يا صاح فان فيها شفاء للناس» •

فقال شفيق : «اعذرني لاني لم أعتد شربها ، وأخشى ضررها» •

فضحك عزيز حتى كاد يستلقي ، ثم نادى احدى المغنيات هناك قائلا: «اسمعي ياست فايقه ، صاحبنا خائف من الكأس !» • فاغتاظ شفيق ونهض عائدا من حيث اتى ؛ فتبعه عزيز محاولا اقناعه بمجاراته ، فلما رأى منه الاصرار على عدم الرجوع ، تحول عن عزمه ورافقه حتى خرجا •

- ٣ -

في دار الاوبرا

انطلق شفيق وعزيز من باب الحديقة القبلي حتى بلغا دار الاوبــــرا فوقف عزيز ونظر الى ساعته وقال : «ان الساعة لم تتجاوز التاسعــــة واحتفال فتح الخليج لا يكون على أتمه الا في الحادية عشرة ، فلنقض هاتين الساعتين في هذا الملهى فانه من اجمل الملاهي ، وستمثل فيــــه الليلة رواية باللغة الفرنسية» . ولم يكن شفيق قد شاهد التمثيل حتى ذلك الوقت لا في هذا الملهى ولا في غيره فقال لصاحبه : «اني أحسن فهم اللغة الفرنسية ولكني لا أرتاح الا للتكلم بالعربية» . فضحك عزيز وقال وهو يعدل وضع نظارته : «يا للعجب منك يا صاح ! كيف تكون شابا ذكيا عاقلا تعيش في عصر التمدن ، ثم لا ترتاح للتكلم باللغــــة الفرنسية ؟» . ان جميع المواطنين المتمدنين لا يتكلمون الا بها الان ، وقد اهملوا اللغة العربية لتعقدها وصعوبة التلفظ بها فلا يتكلم بها الان الا البسطاء الذين لم يتثقفوا» .

فبغت شفيق ونظر اليه نظرة ملؤها الرزانة والكمال ، ثم ابتسم وقال: «اني لاعجب من امرك يا صديقي ، فكأني بك تحسب الاستمســـاك بالاخلاق الشرقية حطة لمقامك ، ولهذا تنكرت للغة بلادك وقومك وآثرت الرطانة عليها زاعما انها لغة عامة الناس وأسافل السوقة ، ان مخاطبتك رجلا عربيا بلغة أعجمية ليست الا بدعة تؤدي الى سوء المصير ، وليس فيمن تقلدهم من الفرنجة ــ مهما يتقنوا العربية ــ من يؤثرونها فــي التخاطب على لغتهم .. لا .. لا .. انك بصنيعك هذا تحط من قدر عشيرتك الاقربين فهم لا يعرفون الا لغة بلادهم !»

فتكلف عزيز الضحك لاخفاء خجله وقال : «ان قولك لاشبه بما نسمعه من الرجعيين في بلادنا ، ممن لم يخالطوا الفرنجة ولم يدركوا حظا من التمدن ، ولكن ما لنا ولهذا الان ، هل تريد ان تدخل الملهى ام لا ؟ »

فقال شفيق : «لا بأس بمشاهدة التمثيل نزولا على رغبتك» .

قال : «اذا كنت لا ترتاح للتمثيل نفسه ، فستجد في مشاهدة معدات هذا الملهى ما يسرك ولا شك» .

ثم ابتاعا بطاقتين للدخول ودخلا الدار . وشفيق يعجب من الازدحام هناك ومن فخامة الدار وحسن تأثيثها ، حتى السلالم كانت مكسوة بالمخمل الحريري ، والجدران زينت بالمرايا المذهبة الجوانب الكبيرة الحجم . فلما دخل قاعة التمثيل شاهد في سقفها ثريا (نجفة) بها مئات من الشموع فضلا عن الانوار الغازية ، وقد فرشت الشرفات (الالواج) كلها وفي مقدمتها الشرفة الخاصة بالخديو اسماعيل بأحسن الاثاث ، وزينت جدرانها بالمرايا الجميلة المذهبة . فانبهر شفيق لتلك المشاهد ، على انها لم تكن لتشغله عن التفكير في امر فدوى ، وكلما شاهد فتاة في لباس تركي اختلج قلبه واحمر وجهه ، وكان يحاول جاهدا اخفاء ذلك فلا يستطيع .

وكان عزيز يفكر هو الاخر في امر فدوى ، ويراقب شفيقا وحركاته ليستطلع عواطفه ، ويدبر الوسائل للايقاع به ، فلما رآه مفكرا بادره قائلا : «فيم تفكر يا عزيزي ؟» . فقال شفيق محاولا اخفاء عواطفه : «اني أفكر في هذا الملهى البديع وما اقتضى بناؤه وفرشه من الزمن والمال » .

فأدرك ما يحاول اخفاؤه وقال : «ألا تعجب اذا اخبرتك بأن أفندينا اسماعيل بناه وفرشه في خمسة اشهر ؟»

قال : «انه لامر غريب حقا !» ولكن ما الذي حمله على هــــذه السرعة ؟ »

قال : «حمله على ذلك قدوم ملوك اوربا لحضور الاحتفال الـذي أعده لفتح قناة السويس ، فبنى هذا الملهى اتماما لدواعي الاحتفاء بهم وقد اقتضى هذا نفقات طائلة» .

ثم رفع الستار عن الفصل الاول من الرواية فسكتنا لمشاهدة التمثيل، وأخذ عزيز يسترق النظر الى شرفات السيدات بالمنظار لعله يلمح معصم احداهن او يلمح وجهها من وراء الحجاب .

اما شفيق فكان يود انشغال رفيقه بأي شيء كان ليعود هو الـــى التفكير فيما وقع فيه من الحب ، ولم يكن قد عرف الحب من قبل ، ثم حانت منه التفاتة الى صديقه فوجده مصوبا منظاره الى احدى الشرفات وهو يضحك والخلاعة بادية في حركاته فخشي ان يهزأ الحاضرون بهما لذلك ، وكاد يتميز غيظا ، وعلت وجهه حمرة الخجل ، فالتفت اليـــه وهمس قائلا : «علام تضحك يا عزيزي ؟»

قال وامارات النزق والخفة تبدو على وجهه : «لقد شاهدت من وراء الحجاب معصما كأنه صيغ من بلور ، وكأني به لو لم يمسك بالاساور لسال من الاكمام سيل الجداول ، وأعتقد ان صاحبته اشارت الي به» . قال ذلك وهو يكاد يطير فرحا .

فنظر اليه شفيق شزرا وقال : «ما الذي اوجب وضع الحجاب على نوافذ تلك الشرفات ؟»

قال : «انه لمنع الناس من النظر الى الجالسات فيها ، مراعاة لحرمة الدين والتقاليد» .

فقال شفيق : «اذن لا يليق بنا ان نسترق النظـــر اليهن من وراء الحجاب » .

فتكلف عزيز ضحكة ليستر بها خجلة وسكت ، وبعد يسير عاد الى منظاره فصوبه الى الشرفة نفسها ثم قال لشفيق : «سأتركك قليلا لاذهب في مهمة طارئة وأعود بعد دقائق» .

فعجب شفيق لتلك الوقاحة ، ولكنه لم يسعه الا السكوت ، ولبث ينتظر عودته متلهيا بمتابعة التمثيل . فلما طال به الانتظار ، أوجس خيفة على رفيقه ، ولم يستطع البقاء فخرج يبحث عنه خارج القاعة فلم يقف له على اثر ، وعاد الى القاعة مغيظا مضطربا فانتظر قلقا حتـــــى دقت الساعة الحادية عشرة . فنفد صبره ولم ير بدا من الخروج معتقدا ان عزيزا لا بد ان يكون قد خرج من الملهى لامر ما .

* * *

هم شفيق بمغادرة القاعة بعد ان أسدل الستار على الفصل الاول . وفي عزمه ان يبحث عن عزيز مرة اخرى في حجرات التدخين والمشروبات والممرات ، وفيما هو كذلك اذا بعبد طويل القامة دقيق العضل ممتلىء الجسم لا نبات في عارضيه عليه لباس افرنجي اسود وعلى رأسه طربوش احمر ، يقف امامه ملقيا التحية في ادب ، ثم قال له : «هل يسمح سيدي ان يتكرم علي بذكر اسمه الكريم ؟»

فعجب من هذا السؤال ، لكنه لم يسعه الا ان يجيب عنه ، فقال وهو يهم بالانصراف : «اسمي شفيق» .

فقال العبد : «ان بعض اصدقائك يودون مقابلتك الساعة يا سيدي، وهم ينتظرون بجانب باب حديقة الازبكية القبلي» .

فعجب شفيق وقال له : «من هؤلاء الاصدقاء ؟» . قال : «عفوا يا سيدي . لقد عنيت صديقا واحدا . ثم اقترب منه متأدبا وهمس في أذنه قائلا : «السيدة فدوى» .

فخفق قلب شفيق خفوقا سريعا ، واصطكت ركبتاه وأخذتـــه القشعريرة ، لكنه تجلد جهد طاقته ونظر الى العبد نظرة ملؤها الوداعة والشكر وقال : «اني ليسعدني حقا ان أبادر باجابة هذا الطلب ، غـير اني أبحث عن زميل لي كان معي هنا وانصرف منذ حين • ومتى وجدته او وقفت على سبب غيابه فسأكون طوع امر السيدة المصونة» • قال هذا ومضى حتى خرج من الملهى فاذا بعربة عزيز لا تزال حيث تركاها ، فعلم انه لم يخرج ووقف يفكر في امر فدوى ودعوتها اياه في ذلك الوقت ، فيشتد خفقان قلبه ، ثم يعود فيذكر امر رفيقه فتحدثه نفسه بأن عليه ان يجيب داعي المروءة فيبحث عنه قبل ان يجيب داعي القلب ويذهب لمقابلة فـدوى •

وما زال مترددا ، والعبد ينتظره خارج الدار ، حتى انتصفت الساعة الثانية عشرة وهو في حيرته بين ان يلبي طلب سالبة لبه ، وبين البقـاء لانتظار صديقه • وأخيرا تغلب دافع الحب فرأى ان يسير الى فدوى ثم يعود بعد ذلك للبحث عن عزيز ونادى العبد وصحبه الى الحديقة ، فلما اقتربا من بابها القبلي رأى هناك مركبة واقفة ، فأدرك انها مركبة فدوى، وامتقع لونه فتعثر في سيره حتى كاد لا يقوى على المسير ، وما اقبل على المركبة حتى شاهد فدوى مطلة من النافذة وهي في ابدع ما يكون من الجمال ، وقد زايلها الوجل والاضطراب ، فوقف خاشعا يتأمل وجههـا الطافح بهاء وحياة ، وعينيها الدعجاوين الممتلئتين ذكاء ودعة ، يحرسهما حاجبان مزججان يكتنفهما لثام ابيض شفاف ، ويتراءى من ورائه مبسم كله معان ، ويتجلى في وجهها وقار يزينه الحياء •

فلما وقعت العين علي ترامت السهام من الجانبين ، وبادرته فدوى بالتحية مبتسمة ، ثم مدت يدها اليه تصافحه وقد غلب عليها الحيـــاء وأحست مبتسمة ، ثم مدت يدها اليه تصافحه وقد غلب عليها الحيـــاء

وأحست بقشعريرة انتظمت كل أطرافها ، وتصبب جبينها عرقا ، ولم تقو على تسكين اضطرابها ، فما ادرك شفيق منها هذا وقد تصافحت الايدي حتى ارتعدت فرائصه ولم يستطع الوقوف فأسند يده الى نافذة العربة ، وحاول تسكين روعه فلم يستطع • ثم رفع بصره اليها وهم بمخاطبتها فامتنع عليه الكلام ولم يقو على ادامة النظر فأطرق حياء ووجدا ، وأخيرا تجلد وقال : «اطلب اليك المعذرة يا سيدتي لتأخري بضع دقائق عن الموعد الذي ضربته ، وما تأخرت الا لاني كنت أبحث عن رفيق لي ولم أظفر به حتى الان» •

قالت : «لعله صديقك الذي كان معك في العربة ؟» • قال : «نعم»• فتكلفت الابتسام ، وأرادت التكلم فمنعها الحياء • والتبس الامر على شفيق فسألها : «أهناك امر تعرفينه عن صديقي عزيز ؟» • فلم تجب وظهر اضطرابها جليا عند ذكر اسم عزيز ، فتشاغلت بتثنية طرف اليشمك بين اناملها وبقيت مطرقة • فقلق شفيق ، وأدرك ان هناك شيئا لا تريد التصريح له به ، وهم بسؤالها ولكنه استحيى فأجل هذا الى ما بعد الحديث الذي استقدمته لاجله ، وأصاخ بسمعه ينتظر ما تقول •

فقالت : «ربما تعجب من اني دعوتك الليلة لاخاطبك على انفراد وأنت شاب لم يسبق لي معرفة بك من قبل فضلا عما تعلمه من عادتنا في التحجب عن كل رجل الا أقرب ذوي قربانا • وربما تنسب ذلك مني الى الخفة والطيش» •

فابتدرها شفيق قائلا : «معاذ الله فأنت أرفع من ان تهبطي الى مثل هذا وقد خصك الله بكمال الذات والصفات» •

فنظرت اليه بعين الحب نظرة خرقت أحشاءه ، ولم تقو على مكاشفته بما في فؤادها فقالت بصوت منخفض : «لا يعرف ما في القلوب الا الله، وما جرأني على ان ادعوك الى هذا الموقف الا الشهامة التي ابديتها

لانقاذي من العار ، اذ جعلتني أحس فضلك وكرم اخلاقك وأشعر بأني مقصرة عن شكرك ، ولا اقول مكافأتك لانها أمنية لا يمكنني الوصول اليها ولو ضحيت نفسي بين يديك . فالآن أرغب اليك في ان تتقدم الي بما تشاء لعلي اقوم بشيء من الواجب» .

قال : «كفاك يا سيدتي اطراء ، فلا تدعيني أحس قصوري عن بلوغ ما تصفينني به ، وقد ذكرت لك اني لم أقصد بانقاذك استجلاب المكافأة، اذ لم يحملني عليه الا الواجب الانساني ، فلست اطمع في غير رضاك ان كنت أستحقه» .

فقالت وقد رمقته مستعطفة : «أهذا غاية ما تتمناه يا شفيق ؟»

فأجابها وهو مطرق : «ان ذلك غاية ما أستحق يا سيدتي» .

قالت : «انما اسألك عما تتمنى» .

فتنهد وقال : «ما كل ما يتمنى المرء يدركه» . وكلل جبينه العرق خجلا فأدركت هي ما وراء ذلك وغلب عليها الحياء فأطرقت خجلا ايضا.

وكأنما شجعه هذا فواصل حديثه قائلا : «اراك قد تراجعت ولم أذكر لك ما أتمناه ، فكيف لو ذكرته ؟»

فدنت من النافذة بلطف وقد خفضت من اضطرابها ومدت يدها اليه فتصافحا وأوضحا بالاشارة ما يقصر دونه الخطاب .

ثم عاودت الحديث قائلة : «لعلك تعجب لمعرفتي مقرك ، والواقع اني جئت الليلة مع ابي لمشاهدة التمثيل فرأيتك حيث كنت بجانب صديقك، ولاحظت انك لا تحول نظرك مثله الى شرفات السيدات . ونظرا الى ما اشعر به من فضلك علي ، احببت مخاطبتك لاكــــرر لك الشكر ، فاستأذنت ابي في الخروج من دار الاوبرا ، وبعثت اليك بخادمي الامين بخيت الذي أثق به كثيرا لما عرف به من الامانة والبسالة وكرم النفس وصدق الطوية . وقد اطلعته على ما أبديته لاجلي من المروءة والشهامة

فأصبح يحبك محبته لي ويعجب ببسالتك وكرم أخلاقك • وحيث ان ابي في انتظاري الان فيحسن بي ان اعود اليه » •

فقال : «وأنا ايضا سأعود للبحث عن عزيز» • ونظر اليها ليرى ما يبدو على وجهها فاذا هي مطرقة تريد التكلم ويمنعها الحياء •

فقال : «اني اقرأ في وجهك كلاما ترومين اظهاره ويمنعك الحياء ، ويخيل الي انه يتعلق بصديقي عزيز ، فعلام تحجبينه عني ؟»

قالت : «ليس في الامر ما يوجب التستر ، ولا يمكنني التصريح بأكثر من ان عزيزا ليس من أمثالك» •

فقال : «هل عرفته قبل الان ؟» • قالت : «لم أشاهده الا معك ساعة الغروب في حال الاضطراب ، ثم في الملهى حين غادره وتركك مؤملا عودته لحسن طويتك واخلاصك ، ولكن الاخلاص اذا كان مع ••» •• وأمسكها الحياء فلم تتم جملتها وقالت : «اذا شئت تحقق الخبر فاسأل بخيتا ، والآن أستأذنك في الذهاب لان ابي ما زال في انتظاري ، على اني أطمع في موعد قريب اراك فيه» •

فبهت شفيق وقد تذكر ما مر عليه هذه الليلة من الاهوال ، وخاف ان تلحظ ما خامره من الارتباك فقال : «اني رهين اشارتك ، ونظرا الى ان الوقت لا يسمح بأن تتأخري اكثر من ذلك ، سأتحدث في هذا مع بخيت ، فعودي انت في حفظ الله ورعايته الى ابيك» •

فمدت يدها من نافذة العربة وصافحته ، ثم انطلقت بها العربة بعد ان نظرت اليه نظرة اغنته عن كل شرح وبيان •

* * *

بقي شفيق واقفا مكانه وقد فقد حواسه بذهاب فدوى ، ثم انتبه الى نفسه فمشى عائدا الى الاوبرا حيث وجد بخيتا ينتظره خارجها ، فاتتحى

به ناحية ، وشرع يستطلع منه ما اشارت اليه فدوى مما لم تقدر ان تفوه به ، فقال بخيت : «اني لا أستحيى ان اقول لك يا سيدي ان عزيزا لا يستحق ان يكون صديقا لك !»

فسأله : «لماذا ؟» . فقال بخيت : «لانه غادر خؤون مذموم . وقد تركك تنتظره على مثل الجمر وسار الى من هي على شاكلته من ..»

فقاطعه شفيق قائلا : «هل علمت اين ذهب ؟»

فقال : «الواقع يا سيدي اني كنت مع سيدتي في شرفتهـــا نراقب حركاتكما ، فلاحت مني التفاتة الى بعض الشرفات فاذا بواحدة قد اومأت اليه من وراء الحجاب ، ولما خرج هو من عندك خرجت هي من خلوتها، ولا أعلم الى اين ذهبا ، وانما اؤكد لك انهما لم يخرجا من الدار ، فاذا بقيت هنا الى انقضاء التمثيل فلا بد من ان تراه خارجا» .

فقال شفيق وقد اشتد به الغضب : «يا للغرابة !. كيف يمكن ان يكون ذلك ؟»

قال : «ان سمو ادبك يا سيدي يجعلك لا تظن به سوءا ، فتعال بنا ندخل الملعب وأنا أبحث عنه فاذا ظفرت بمكانه اتيت بك اليه وأريتك اياه رأي العين» .

ثم دخلا ، ومضى شفيق الى مقعده ، وذهب بخيت ليبحث عن عزيز، وبعد قليل عاد مهرولا وعلى وجهه امارات الدهشة . فسأله شفيق عن الخبر فقال : «لقيت صاحبك وسيدي الباشا في خلوة يتساران ، وسأرجع اليك بما يدور بينهما» . فذهل شفيق ولبث مبهوتا يفكر في امر صديقه. وعاد بخيت لاستطلاع الخبر .

اما ما كان من امر عزيز فانه غادر شفيقا في خلوته وخرج لمحادثــة عجوز دهياء ، كأنها حية رقطاء بجفن احمر وخد اصفر ووجه أغبش . وكانت هذه العجوز في الشرفة التي اشار اليها بخيت ، وهي دلالة تبيع

الاقمشة والمصوغات للسيدات في بيوت الاعيان وأربـــاب المناصب ، وتتكلم التركية والفرنسية جيدا . فلما رأت عزيزا رحبت به طمعا في غناه وقالت له : «ما وراءك ؟»

قال : «المهم ما وراءك انت ، انك والله يا خالتي دليلة لدليل الهدي والانشراح » .

فقالت : «اني رهينة امرك يا بني فمر بما شئت» .

فمد يده الى جيبه وأخرج نقودا في صرة ووضعها في يدها قائلا : «مرادي ان أكلفك قضاء امر ارجو ألا يكون صعبا لديك» .

قالت وقد وضعت الدراهم في جيبها : «ثق يا حبيبي انك في معزة ولدي ، وما يهمك يهمني . وقد عتبت عليك لدفعك لي دراهم ولم أقبلها الا مرضاة لك» .

فقال عزيز : «ليس لنا بركة الا بك يا خالتي ، وأما ما اطلب اليــك قضاءه فهو .. هل تعرفين فدوى ؟»

فقهقهت دليلة وقالت : «كيف لا اعرفها ؟. لقد عرفت أباها الباشا الموراللي ، وعرفت امها منذ اتي بها من الشام بعد ان تزوج بها هناك . وابنتهما فدوى بمنزلة ابنتي وقد عرفتها منذ نعومة أظفارها» .

فقال عزيز : «اذن قضي الامر ،و ما دامت فدوى بمثابة ابنتك ، فأظنك لا تكرهين ان اكون عندك بمثابة صهرك ؟»

فسكتت هنيهة ثم قالت : «ذلك امر سهل ولا يكون الا ما تريد ، فأنت شاب غني وهي لا تطمع فيمن هو اكثر منك مالا وأعظم نوالا . لكني علمت منذ بضعة اسابيع انها معقودة عليها لاحد شبان العاصمة» .

فقاطعها عزيز قائلا : «لم يعقد له عليها وانما خطبها من ابيها فلم ترض هي به ، وقد ترتب على ذلك ميله الى الانتقام منها ، وأصارحك بأني احبها » .

قالت : «عليك بمرضاة ابيها ، وعلي مرضاة امها . اما هي فلا أظنها تخالف والديها » .

قال : «وما الذي يرضي أباها ؟»

قالت : «انه بخيل يحب المال ويستسهل الصعب في سبيل نيله . كما انه يحب الاطراء والمدح» .

قال : «وما هو عمله ؟» . قالت : «انه صاحب املاك كثيرة يعيش من دخلها ويقضي معظم ايام السنة في ضيعة له في مديرية الشرقية» .

فقال عزيز : «عليك اذن استطلاع رأي والدتها ؛ وها أنـذا ماض لمقابلة ابيها لعلي أستفيد منه شيئا» . ثم ودعها وخرج .

* * *

مضى عزيز الى الشرفة التي جلس فيها الباشا فدخل عليه مسلما باحناء رأسه كتحية الافرنج .

فلما رآه الباشا ، رحب به لما يظهر على ملابسه من مظاهر الرفعة والمجد ، ثم أجلسه بجانبه وسأله عن بلاده ، فقال عزيز وهو يضغ الكلام في فمه ويقطعه شأن أغراب اللغة الذين لا يحسنون التكلم بالعربية جيدا : «اني من اهل هذه المدينة يا سعادة الباشا» .

قال : «ولكني ارى في لغتك لهجة افرنجية» .

قال : «ذلك لاني أسافر الى باريس كل سنة لقضاء فصل الصيف فيها » .

فسأله الباشا : «ما اسم أسرتكم الكريمة ؟»

قال : «اني يا سعادة الباشا من أسرة جندب ، واسم عبدكم عزيز» .

فنظر اليه مندهشا وقال : «من اسرة جندب ؟» اذن انت قريب السيد جندب المغربي المتوفي منذ سنتين ؟» . قال : «هو ابي يا سيدي» .

فانفرجت اسارير الباشا وقال : «رحمه الله ، كان رجلا عاقلا حكيما وقد جمع ثروة كبيرة بجده واقتصاده . هل ترك المرحوم اولادا غيرك ؟»

قال : «لا يا سعادة الباشا ، انني ابنه الوحيد» .

قال : «وماذا تمارس من الاعمال ؟» . قال : «اني ما زلت طالبا في المدرسة ، وفي النية متى تخرجت ان أنشىء جريدة سياسية» .

فاستبشر الباشا وقال : «حسنا تفعل لان افندينا يحب المشروعات العلمية والادبية ويشجعها كثيرا ، وطالما كافأ رجال العلم والادب فمنحهم الاموال الطائلة والرتب والنياشين . اما الجرائد فان دوائر الحكومة بفضل توجيهه تشترك في نسخ عدة من كل منها» .

فقال عزيز : «صدقت يا سعادة الباشا ، ولكني أظن ان ذلك كان دأب سمو الخديو قبل تأليف اللجنة الدولية الخاصة بمراقبة مالية البلاد . اما الان فالمراقبان يقومان بمراجعة الحسابات ، وقد غلا الخديو فيما يختص بالنفقات غير الضرورية وأخشى ان يحول ذلك دون نجاح مشروعي» .

فقال الباشا : «نعم ان المراقبين اوقفا النفقات غير الضرورية ، غير ان تشجيع الجرائد لا يدخل في اعمال المراقبة ، هذا الى ان المراقبة قلما قيدت اعمال الخديو ، بل ان الوزارة التي أدخلت الدول فيها وزيرين اجنبيين احدهما فرنسي والاخر انجليزي فلما أثرت في بسط كفه» .

قال عزيز : «وما رأي سعادتك في الحكومة الشورية ؟ ألا ترى انها قيدت اعمال الخديو ، وبعد ان كان الحاكم المطلق يمنح ويمنع دون معارض ، صار لمجلس النظار حق التدخل في كل الاجراءات» .

فقال الباشا : «لا يعيقنك ولا يثن عزمك شيء ، وما دمت قد عزمت فتوكل على الله ، وما انت في احتياج الى الكسب» .

قال عزيز : «حسنا .. ولكن لدي مسألة اخرى مهمة أريد عرضها على سعادتكم» .

قال : «وما هي ؟» . قال : «تعلم ان ابي ترك لي مالا طائلا . وليس في ذوي قرباي من يصلح لتولي ادارة هذه الاموال وأكون على ثقة منه، ونظرا لما هو مشهور عن حسن أمانتكم اتيت استشيركم فيما افعل» .

فاشتم الباشا من كلامه رائحة الربح الكثير ، ولاسيما اذا قدر له ان يكون هو الوصي عليه ، فقرب كرسيه منه وقال له : «يعز علي ايهـــا الحبيب ألا أساعدك في هذا الامر ، لان الامناء قليلون ولاسيما في هذه الايام . على اني سأبحث عمن يصلح لذلك ، فان لم نوفق الى كفــؤ امين ، فاني أتعهد بأن اقوم لك بهذه الخدمة لان أباك رحمه الله كان من اصدقائي » .

فقاطعه عزيز متلهفا وقال : «انها لمحنة كبرى من سعادتكم . ولكني اخشى ان يكون في ذلك ما يثقل عليكم . على اني اذا أسعدني الحظ بوصايتكم الرشيدة فاني أعاهد سعادتكم على رفع هذا العبء عنكم عقب زواجي مباشرة باذن الله» .

فكاد الباشا ان يطير فرحا لعلمه بوفرة الثروة التي آلت الى عزيز عن ابيه ، وانه ان تولي الوصاية عليه فسيكون حر التصرف فيهـــا ولاسيما اذا تمكن من تحبيب ابنته اليه وتزويجه بها . ولما تصور ذلك اختلج قلبه سرورا ، وتضاعف احترامه لعزيز فقدم له سيكارة وتبسط في الحديث معه . بينما اخذ هذا يدخن ويتنقل بنظره من جهة الى اخرى، ثم يرفع النظارات ويمسحها بطرف منديله ، وفكره مشغول بالبحث عن وسيلة يعرقل بها مساعي شفيق ويحول دون استمرار الحب المتبادل بينه وبين فدوى .

وفيما هما كذلك، جاء بخيت وقال : «يا سعادة الباشا ان سيدتــي عادت الى شرفتها» . فقال الباشا : «حسنا» . فحنى بخيت رأسه اجلالا وخـــرج .

اما عزيز فعلم ان خروج فدوى لم يكن الا لمقابلة شفيق خارج الملعب، فازداد حسدا له وأجهد فكره حتى اهتدى الى حيلة رأى انها كفيلة بابلاغه مرامه فقال للباشا : «أليس الاغا الذي خاطب سعادتكم الان تابعا لفدوى هانم ؟»

فبغت الباشا وقال : « نعم ، وهي ابنتي وكانت قد خرجت بعد الفصل الاول للترويح عن نفسها ، ثم رجعت» •

فتظاهر عزيز بالدهشة وقال : «هل السيدة فدوى ابنة سعادتكم ؟»

قال : «نعم هي ابنتي ، هل رأيتها قبل الان ؟»

فقال عزيز : «عرفتها مصادفة» • وسكت فاشتغل قلب الباشا ، وطلب الى عزيز ان يبين له كيف كان ذلك ، فتظاهر هذا بالامتناع عن الاجابة وقال : «ليس في الامر ما يوجب الاهتمام» • فلما ألح عليه الباشا قال : «الحق انه يجب علي حبا لمصلحة سعادتكم وصيانة لشرف كريمتكم ان أوجه التفاتكم الى امر مهم ، وهو ضرورة العناية بأمر ابنتكم العزيزة ، لانها جوهرة ثمينة لا يكفي ان يعهد في امرها الى الاغوات والخدم ، لان الامين بينهم قليل» •

فقال الباشا : «صدقت يا عزيزي ، لكني قد عهدت في امرها الى افضل من عرفت بين هؤلاء ، وبخيت الذي رأيته الان خادم امين صادق يحب الفتاة حبا جما ، ويبذل حياته في المحافظة عليها ، وقد ظهرت أمانته في احوال مختلفة» •

فقال عزيز : «على كل حال ، ليس ما أبديته سوى نصيحة عامة ، وحسبنا هذا الان ، وعسى ان نلتقي مرة اخرى للمفاوضة فيما دار بيننا» •

فقال الباشا : «حبذا لو اتيت الي في منزلي غدا» • ثم نهض عزيز مودعا وانصرف واثقا بأنه ترك في قلب الباشا أبلغ الاثر ، بما اظهره من الرقة واللطف والثقة به ، وغيرته على ابنته •



اي شيء يكـــون اقبح مرأى   من صديق يكون ذا وجهين ؟
من ورائي يكون مثل عدوي   وهـــو اذ يلتقي يقبـــل عيني !

خرج عزيز وترك الباشا يفكر فيما سمعه عن ابنته وقد وجه انتباهه من ذلك الحين الى مراقبتها وان كان واثقا بتعقلها وعفافها ، فلم يمنعها شيئا مما اعتادته من حرية الخروج للتنزه ومقابلة صويحباتها . على ان الجانب الاعظم من اهتمامه كان منصرفا الى ما أمله من الكسب اذا تولـــى الوصاية على أموال عزيز .

وكان بخيت قد سمع كل ما دار بين الباشا وعزيز من الحديث ، فسارع قبل خروج عزيز الى مقابلة شفيق ، وقص عليه حكاية صديقه موجزة ثم قال : «لا بد من تأجيل اجتماعك بسيدتي ريثمـــا تذهب الشبهة عنها» .

فبهت شفيق ولكنه لم يقطع بأن مقابلة عزيز للباشا كانت للوشاية به. وذلك لانه كان حسن النية ، مصدقا لما وعد به عزيز خلال عودتهما من الجزيرة من معاونته على الزواج بفدوى .

ومضى عزيز الى الشرفة التي كان فيها مع شفيق ، فلما لم يجده فيها اخذ يبحث عنه حتى لمحه يتحدث مع بخيت ، فأدرك ان هذا ابلغه كل ما حدث ، لكنه تغاضى عنهما حتى افترقا ثم سار الى شفيق وبادره قائـــلا وهو يظهر الخجل : «اعذرني يا عزيزي اذ أطلت الغياب ، وستعلم نبأه بعد قليل . والآن قد انتصف الليل وانقضى التمثيل فهيا بنا تتمم سرورنا بمشاهدة احتفال فتح الخليج» .

فقال شفيق : «كفانا ما لقيناه الليلة ، ولا شك ان ابي في قلق عظيم لتأخري وقد أنهكني السهر لاني لم أتعوده» .

فقال عزيز ساخرا : «لا يجمل بأحد ان ينام الليلة وهي ليلة فتـــح

الخليج ، اما والداك فما أظنهما يتقاعدان عن الذهاب لمشاهدة الاحتفال، فأهل القاهرة صغارا وكبارا يحرصون على مشاهدته» .

وما زال يحاول اقناعه حتى بلغا مكان العربة فأمسك بيده وأجلسه فيها ثم جلس بجانبه ، ومضت العربة بهما الى فم الخليج وكلاهما تائه في عالم هواجسه الخاص .

وكانت هذه اول مرة شعر فيها شفيق بالارتياب في صداقة عزيز ، فأراد مكاشفته بما سمعه عنه لئلا يكون تحاملا عليه ، وقال له والعربة منطلقة بهما : «ان الصداقة التي بيننا تقضي علي بمكاشفتك بأمر سمعته عنك ، وأرجو ألا يكون صحيحا» .

فقال عزيز : «ماذا بلغك ؟» . قال : «بلغني انك تركتني وذهبت لمسامرة احدى النساء ، وقد افضى بك الامر الى الحديث مع بعض الناس بما لا يوافق مصلحتي !»

فنزع عزيز سيكارته من فيه متظاهرا بأنه يتميز غيظا وقال : «اني مسرور لمكاشفتك اياي بما في ضميرك ايها العزيز ، وسأطلعك على حقيقة الامر ليتحقق لديك صدق طويتي لك ، فاني لم أفعل الا ما فيه مصلحتك ، قياما بوعدي لك بعد ان توسمت ميلك الى فدوى على اثر انقاذك اياها . وقد سعيت لتسهيل أمر اقترانك بها ، وسلكت لذلك سبيل الحكمة والتعقل ، فقابلت عجوزا محنكة لها المام تام بدخائل بيت الباشا ، فأشارت علي بمقابلته والتلطف معه في الحديث ثم التطرق الى الغرض المنشود . وعلى هذا قابلته ونبهته الى وجوب العناية بابنته وعدم السماح بخروجها وحدها . وكنت أرجو ان يسألني عن الخطر الذي يترتب على ذلك ، فانتهز الفرصة ، وأذكر له ما كان من امر انقاذك اياها من خطر العار والموت ، ثم استطرد الى ذكر صفاتك وألمح الى جدارتك بالاقتران بها ، ولكني لم استطع الوصول الليلة الى هذا الحد ، وسأعود

الى ذلك في فرصة اخرى» .

وكان عزيز يتكلم مظهرا السذاجة والاخلاص التام ، فلم يسع شفيق الا ان يصدقه وقال : «اني غير طامع في نيل الفتاة . لبعد ما بيني وبينها» .

فالتفت عزيز اليه مظهرا الدهشة وقال : «انك جدير بها وبأعظم منها . لا اقول ذلك تحقيرا لها في عينيك لانها فتاة غنية وقد زينها الله بكمال الذات والصفات ، ولكنك ايضا شاب نادر المثال بعلمك وأدبك وفضلك. ولو انك طلبت يد اية فتاة من بنات الكبراء لنلتها ونلت معها مالا وافرا. فهذا العصر ــ كما تعلم ــ عصر الشبان ، وهم الذين يحصلون على المهر الان لا الشابات» .

فقال شفيق ساخرا : «ان العلم والادب والذكاء وما اليها من الفضائل جواهر لا تباع ولا تشترى . ثم ان (الدوطة) ليست من عاداتنا نحن الشرقيين . وان فتاة في جمال فدوى وكمالها وأدبها لا تحتاج الى دفع مهر . بل ليس أسهل عليها من ان تجد بين أمثالها من اولاد الاثرياء من يدفع لها اكبر مهر» .

فتبسم عزيز وهو يتقد غيرة وحسدا ، وعمد الى تحقير فدوى في عيني شفيق . فقال له : «لا أنكر عليك شيئا من ذلك ولكن لدي ملاحظة ارجو ان تسمح بابدائها . وهي ان فتاة مثلها لم يكن يحسن بها ان تبقى في الجزيرة وحدها في الليل الدامس ، مما عرضها للخطر الذي عرفته !»

فاستعرت نار الغيرة في قلب شفيق . وأحس كأن الاهانة لحقته هو. ولم ير بدا من دفعها عن مالكة لبه فقال وقد بدت علائم الخجل على وجهه : «انها لم تذهب الى الجزيرة لتبقى هناك الى الليل . وأنت نفسك اخبرتني بأن سائق مركبتها تواطأ مع الجاني الاثيم على تعويقها هناك ، فليس فيما حدث ما يحط من قدر ادبها وتعقلها» .

فلما رأى عزيز ما يتخلل كلام شفيق من الغيرة الشديدة على فدوى، تلوي مثل الحية ، واشتعل فؤاده حسدا ، لكنه كظم غيظه وخاف اذا اختلق عليها أكذوبة اخرى ان يقع في شر اعماله فينكشف امره وتحبط مساعيه ، فصمت وأخذ يتشاغل بتقليب عصاه في يده ثم قال : «لم أقل لك يا عزيزي انها بقيت في الجزيرة حتى ذلك الحين باختيارها ، وانما قلت ان ذلك التأخير ربما أضر بسمعتها» •

قال ذلك اخفاء لما كاد يظهر من حسده وغيرته ، ولكن قلبه ما برح يزداد بغضا وحسدا لشفيق حتى حدثته نفسه بأن يفتك به ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك لعلمه ان شفيقا أشد منه بطشا ، فعمد الى الحيلة شأن الضعيف الساقط الهمة المرذول •

• • •

وصلت العربة بشفيق وعزيز الى ساحة فم الخليج ، وقد انفض الاحتفال ولم يبق في الساحة الا نفر قليل • فسر شفيق لذلك لانه كان قلقا لتأخره عن العودة الى والديه ، فقال لعزيز : «هيا بنا ، فقد انقضى معظم الليل وأنا موجس خيفة من قلق والدي علي» •

قال عزيز : «اني أضن بفراقك يا عزيزي ، لاني لا أسر الا بمشاهدتك • وقد كانت هذه الليلة لدي من أسعد الليالي • اما وأنت مصر على العودة الان فاني أشيعك الى المنزل» • قال ذلك وأمر السائق فمضى بالعربة الى شارع العباسية • وجلسا صامتين في العربة حتى وقفت امام باب منزل شفيق ، فسمعا صوتا من احدى النوافذ ينادي : «شفيق •• شفيق ••» • فعرف شفيق انه صوت والدته ، فأجابها بقوله: «لبيك يا أماه» •

فقالت : «ما هذا التأخر يا ولدي ، ألا تدري ان والديك على مثل

الجمر لطول غيابك . ما عهدتك تصنع مثل هذا» . وهرولت لملاقاتـه فأسرع اليها عزيز وهم بتقبيل يديها احتراما فمنعته من ذلـــك وردت تحيته ، لانها لم تكن مسرورة من مرافقته لابنها.

ثم التفتت الى شفيق وقالت له : «أيليق بك يا ولدي ان تطيل علينا الغياب دون ان تعلمنا ؟»

فأجابها متعجبا : «ألم يبلغكما خبر ذهابي مع صديقي عزيز الـــى احتفال فتح الخليج ؟» . قالت : «لا» . فأطرق عزيز متظاهرا بالكدر ثم قال : «عفوا يا سيدتي ، لا بد ان خادمي قد نسي او توانى في ابلاغكم الخبر ، وسأعاقبه على ذلك بطرده» . ثم ودعهما وخرج .

وسألت سعدى شفيقا : «ألم تقابل أباك يا بني ؟» لقد خرج للبحث عنـــك » .

فقال : «لم أقابله يا أماه ، واني لآسف لما حملتكما من المشقة هذه الليلة ، على اني لم اتأخر الا لوثوقي بابلاغكما خبر ذهابي الى فـــم الخليج» . فسكتت حتى دخلا المنزل ثم سألته : «هل تناولت العشاء؟» . قال : «نعم» . فقالت : «اما نحن فلم نذق طعاما ولم نعرف رقادا حتى الان !» . ثم اخذته الى حجرة المائدة ودعته الى الجلوس لمؤاكلتها ريثما يعود ابوه ، وجلسا يتناولان الطعام ويتحدثان . فلما ابطأت عـــودة ابراهيم أعرب شفيق عن قلقه لذلك ، فقالت له امه : «لعل تأخره لشاغل مهم» . ثم سألته عن سبب تأخره هو على غير عادته ، فقال : «ألم اقل لك اننا كنا نشاهد الاحتفال بفتح الخليج ؟» . فقالت : «لم أعهد فيك الاخبار بغير الواقع ، فقل لي ما سبب تأخيرك لاني أعلم انك لم تكن هنـــاك » .

فتعجب شفيق لمعرفتها ذلك وقال : «معذرة يا أماه ، وسأقص عليك الخبر على ان تبقيه سرا ولا تطلعي عليه احدا حتى ولا ابي» . ثم قص

عليها الحكاية من اولها الى اخرها ، وهي مقبلة على سماعها مستغربة ما صادفه من الحوادث . ولما اتى الى حديث الفتاة احمر وجهه حياء وكاد يمتنع عليه الكلام ، فازدادت امه دهشة وخافت عليه ذلك الغرام وهو ما زال يافعا غض الشباب فقالت : «وكيف احببتها لاول نظرة وأنت لا تعرف عنها شيئا ؟»

قال : «أعترف لك بأني اجهل السبب ، ولكني شعرت نحوها بما لم أشعر به نحو احد في هذا العالم ، ولا اخفي عليك ايضا اني شاهدت من محبتها لي ما لا يقل عن ذلك ولكن آه يا أماه» . قال هذا وكـــاد يشرق بالطعام ، فبادرته قائلة : «لا بأس عليك يا ولداه . مم تشكو ؟»

فترقرقت عيناه بالدموع وقال : «اعذريني يا أماه . اني لا املـك حواسي » .

فقالت : «لا بأس عليك يا بني ، خفض من اضطرابك ولا تخف علي ما بك » .

قال : «اني يا أماه احبها حبا مفرطا» . ولم يتمالك عن البكاء فخافت عليه امه شدة الانفعال فترامت عليه وضمته الى صدرها وقبلته قائلة : «لا تخجل يا ولداه ، ان المحبة اذا قرنت بالشرف والشهامة لم يكن فيها ما يخجل ، فسكن روعك واشرح لي كيف تحابيتما» .

قال : «اني احبها يا أماه حبا لا اعرف كيف نشأ ، ولكني أحس ان له تأثيرا في كل جوارحي كأنه جرى في مفاصلي» .

فقالت : «كأني بك تميل الى الاقتران بها ؟»

فأطرق حياء ، ثم رفع وجهه والدموع ملء عينيه وقال : «نعم يا أماه اني أميل الى ذلك ، ولكن ماذا ينفع هذا الميل وبيني وبينها بون عظيم ، وأنا لا اعلم حقيقة مستقبلي ؟»

فرق قلبها له وغلب عليها الحنو فقالت : «اني أعرف الفتاة يا ولدي،

وقد سمعت عن تهذيبها ولطفها وذكائها من احدى جاراتنا ، ولا ألومك على حبك لها • لكن لا يخفى عليك ان الفتاة من عائلة عريقة في الحسب والنسب وذات ثروة عظيمة ، فاجتهد لكي تكون رجلا عظيما فتستحقها ، ولا يأخذ منك اليأس مأخذه ، فما دمت ذكيا مهذبا صادق اللهجة صحيح المبادىء مقداما فلن يمنعك مانع من الارتقاء واجتياز كل ما يعترضك من المصاعب • ومما يساعدك في نيل مطلوبك ان حبكما متبادل ، فلا خوف اذن من ميلها الى سواك» •

فسري عنه وقال : «ان كلامك ايتها الوالدة الحنون قد نبه في أشرف المبادىء ورقي أفكاري الى درجة لا ارضى معها التزلف والمذلة ، ولكن آه يا أماه !• اين انا الان مما تقولين ؟• ومن لي بالصبر حتى أتبين مستقبلي ؟ »

فقالت : «ان الحب يصنع المعجزات يا ولدي ، فكن حازما واعلم انك لن تنال مرادك الا اذا اجتهدت ونبغت في دراستك ثم صرت ذا منصب يفي باحتياجاتك ، لان أباها لا يزوجها طبعا الا لمن يماثلها ثروة ، او لمن هو من رجال الاعمال ، وما أظنك ترضى ان تعيش من مال ابيها» •

فقال : «كلا يا أماه • وما احسبها تبادلني الحب اذا لم اكن كفؤا لها •• على انها لو رضيت ذلك فأنا لا ارضاه !»

قالت : «بورك فيك يا بني ، وماذا تعتزم بعد تخرجك في المدرسة ، هل تفضل العمل في المحاماة ام الطب ؟»

فتنهد شفيق وقال : «ان المحاماة تقتضي ان ادرس لها سنتين في اوربا ، اما الطب فدراسته تستغرق ست سنوات او خمس سنوات على الاقل » •

فقالت : «كيف يمكننا الصبر على بعدك سنتين وقد رأيت قلقنا عليك الليلة ، اما الطب فربما استطعت الانتهاء من دراسته في اربع سنوات» •

فقال : «كل شيء بيد الله يا أماه» . ثم نظر الى الساعة فاذا هـــي الثالثة بعد نصف الليل ، فأبدى قلقه لتأخر ابيه . ثم دخل الخادم وقال: «بالباب جاويش معه كتاب لك يا سيدتي» . فقالت : «هاته» . فلمـــا جاءها به دفعته الى شفيق قائلة : «انه من المعية السنية» . وارتعـــدت فرائصها واغرورقت عيناها بالدموع . فقال شفيق : «ما الداعي لهـذا ونحن لم نطلع على مضمونه . اتأذنين لي في فضه ؟» . فأومأت برأسها موافقة .

وفضه شفيق فاذا هو من ابيه يقول فيه : «لا تقلقي لغيابي الليلة ، لاني دعيت وأنا خارج من البيت الى المعية السنية ، وسأبقى بها الى غد، فاكتبي لي مع كامل هذا هل جاء شفيق ام لا» . فلما قرأ الكتاب زال اضطرابهما وقلقهما . ثم ردا على الكتاب وسلما الرد للجاويش فانصرف به عائدا من حيث جاء . وبعد ان لبثا صامتين قليلا اقترب شفيق مـــن والدته وسألها : «ما معنى هذه الدعوة في مثل هذا الوقت ؟» وما علاقة ابي بالمعية وهو ليس من مستخدمي الحكومة المصرية ولا من اصحـاب الامـلاك ؟ »

فقالت : «لا يخفى عليك يا ولدي ان أباك من مستخدمي قنصليـة انجلترا ، وان لهذه الدولة مطامع في مصر تسعى لتحقيقها بالاشتراك مع فرنسا ، مما اصبح معه مركز الخديو في خطر ، وبما ان أباك من محبي الحكومة المصرية فلعل المعية استقدمته لمباحثته في بعض تلك الشؤون كما فعلت مثل ذلك من قبل . وعلى هذا لا خوف عليه باذن الله ، وانما خشيت اول الامر ان تكون الدعوة من الخديو رأسا ، ولا تخفى عليك عواقب مثل هذه الدعوة » .

ثم نهضا وغادرا حجرة المائدة للنوم ، ولم يبق من الليل الا القليل.

***

قضى شفيق بقية ليلته يفكر في فدوى وفيما دار عنها من الحديث بينه وبين والدته • اما هذه فكانت قد اطمأن قلبها على ولدها وزوجها فعادت الى التفكير في امر الصندوق ، وساءها ان تأخر فتحه بسبب ما حدث تلك الليلة وصممت على السعي الى فتحه عقب عودة زوجها •

وفي الصباح التالي عاد ابراهيم الى المنزل سليما معافى ، وما رأى شفيقا حتى سأله عن سبب تأخره بالامس ، فاكتفى هذا بأن اخبره بأنه كان يشاهد الاحتفال بفتح الخليج ولم يخبره بأمر فدوى ، فعنفه ابوه على ذهابه دون علمه ، فاعتذر شفيق ملقيا التبعة على خادم عزيز ، وأيدته امه في ذلك • ثم مضى شفيق الى المدرسة كعادته ، فما كاد يغادر المنزل حتى طلبت سعدى الى زوجها ان يفتح الصندوق حسب وعده •

فقال : «أنصح لك يا سعدى ان تعدلي عن هذا الامر» •

فقالت : «انك كلما زدت تمنعا ، لم تزدني الا رغبة في فتحه» •

فقال : «لست أجهل ذلك ، ولكني ما زلت أنصح لك بالكف عن هذا الطلب» • ولما أصرت على فتح الصندوق أخرج من جيبه مفتاحا صغيرا، ثم التفت يمنة ويسرة للتحقق من خلو المكان من الرقباء ، وتناول الصندوق وأولج فيه المفتاح ويده ترتعش ، وسعدى تحدق فيه ببصرها، فلما رفع الغطاء عنه انتشرت منه رائحة كريهة ، لكن سعدى لم تبال ، وأطلت لترى ما فيه فلم تجد سوى خصلة من الشعر قد أغبر لونها لطول عهدها في الصندوق ، ومدت يدها لتلمسها فمنعها قائلا : «حسبك النظر ولا تمدي يدك» • فكفت يدها وتفرست في شعر تلك الخصلة فاذا هو كث يتخلله أثر دماء ، فأخذتها الرجفة وامتقع لونها ، ومالت الى استطلاع سر تلك الخصلة لكنها لم تجرؤ على مخاطبة زوجها في هذا الشأن لما اشترطه عليها من قبل ، فسكتت وبقيت عيناها معلقتين بالخصلة الرهيبة العجيبة حتى أغلق زوجها الصندوق وأعاده الى مكانه •

ولاحظ عليها شدة التأثر فقال : «أرأيت كيف ازددت قلقا ؟»

فقالت وقد زاد اضطرابها : «نعم ، وسأبقى في قلق عظيم ان لم تطلعني على الحكاية ، ولا شك في اني الجانية على نفسي ، لكنك أرحم بي من ان تتركني نهبا لهذا القلق المقعد المقيم» .

فنظر اليها وعلى وجهه امارات الحزن والكآبة كأنه تذكر مصائب قديمة كانت قد نسيت على طول المدى ، ثم قال لها : «لقد اخلصت لك النصيحة فلم تقبلي ، فأنا بريء من تبعة ما تقاسينه من القلق ، على كل حال لا بد من مجيء وقت أطلعك فيه على ذلك السر مفصلا ، فأقصري ناشدتك الله اذ لا فائدة من الحاحك وليس الامر في يدي» . قال ذلك ونهض فبدل ثيابه وخرج الى عمله ، وترك سعدى مشغولة الخاطر منقبضة النفس وقد تحولت طلاقة وجهها الى عبوس ولم يكن ابراهيم أقل منها انقباضا ، وقد زاد في قلقه تذكره أحزانا كادت تزول من ذاكرته.

- ٤ -

بعد الامتحان

مضت اسابيع وعزيز يتردد على الباشا مواصلا الحديث معه في امر ادارة ثروته ، ثم حان موعد الامتحان في المدرسة التجهيزية ، وتم ذلك باحتفال شائق في سراي درب الجماميز حضره الخديو يحف به الوزراء والاعيان كالعادة ، وتقدم التلامذة للامتحان الشفوي في حضرته فكان يراقب مقدرة كل منهم ، الى ان جاء دور شفيق فأجاد في اجوبته مما

استرعى انتباه الخديو ، فأعجب بذكائه وفطنته وبما يزينهما من الرزانة والكمال ، فدعاه اليه على مشهد من الحاضرين وسأله : «ما اسمك ؟» .
فقال : «عبد سموكم شفيق ابراهيم» .
وأسر كبير الياوران الى الخديو قائلا : «ان أباه من مستخدمي قنصلية انجلترا» . فابتسم الخديو مظهرا انه يعرفه ثم التفت الى شفيق قائلا : «أحسنت يا بني احسنت» . ثم صرفه فعاد الى مكانه فرحا لما ظفر به من اعجاب ولي النعم ، وتصفيق الحاضرين تهنئة له .
وعلى أثر انتهاء الاحتفال دعا ناظر المدرسة اليه أبا شفيق وكان بين الحاضرين فأبلغه ان الخديو أمر بارسال شفيق الى اوربا لاتمام دراسته فيها على نفقة الحكومة فتلقى ابراهيم هذه البشرى بالدعاء للجناب العالي، وعلى وجهه علامات السرور لما حازه ابنه من التفات ولي الامر ، ثم اتى شفيق الى ابيه وقبل يده . وخرجا والناس ينظرون الى شفيق معجبين برصانته وذكائه ، ولاسيما انه رغم فوزه لم تأخذه هزة الطرب ، او تبد على وجهه علامات الخفة .
اما عزيز فكاد حسده وحقده يقضيان عليه ، ولكنه كظم غيظه وهنأ شفيقا بما ناله من الانعام .
وكان فرح سعدى عظيما بنجاح ابنها ، وان ساءها انه سيفارقها الى اوربا ، فأخذ هو يخفف عنها ويهون عليها ، وقال لها : «لا يخفى عليك يا أماه انني حين اعود بعد ثلاث سنين او اربع في دراسة المحاماة ، سيسهل علي الوصول الى احد المناصب المهمة كالقضاء مثلا ، وهناك كثيرون يتمنون هذا ولم ينالوه» .
فقالت : «ومتى يكون السفر ؟» . قال : «ما اظن انه يكون قبل بضعة اسابيع » . فسكتت مسلمة الامر لله .
وكان الباشا ابو فدوى ممن حضروا الامتحان ، فأعجب بنبوغ شفيق

وذكائه ولطفه ، فلما عاد الى بيته وجلس الى المائدة مع عائلته ، اخـذ يروي ما شاهده في الامتحان ، وأطنب في الثناء على شفيق ، فلمـا سمعت فدوى اسم مالك لبها اختلج قلبها فتشاغلت بتقطيع فاكهة كانت امامها ، ولم ترفع نظرها الى ابيها اخفاء لما كاد يظهر على وجهها من علائم الوجد ، وأنصتت لتسمع بقية الحديث .

وفي صباح اليوم التالي تلقفت عدد جريدة الاهرام وأخذت تتصفحه حتى استقر نظرها على رسالة العاصمة ، فقرأت فيها : «قد انعمت الحضرة الفخيمة الخديوية على جناب الشاب الاديب شفيق افنـدي ابراهيم ، بالتوجه الى الديار الاوربية لدرس فن المحاماة في اعلى مدارسها ، على نفقة الحكومة السنية . وذلك لما شاهده سموه من ذكاء هذا الشـاب ونشاطه» . فاختلج قلبها فرحا لعلمها ان شفيقا متى صار قاضيا كـان جديرا برضاء ابيها وقبول خطبته لها . لكنها اشفقت ان يكون في غيابه ما يضعف حبه لها ، فذهبت الى حجرتها ودعت بخيتا لتطلعه على ما خامر قلبها من الوساوس ، ولم تكن تقدر ان تكاشف بأسرارها احدا مـن الناس الا هذا العبد الامين ، فقالت له : «هل سمعت بما تم في امـر شفيق ؟» . قال : «نعم قرأت ما جاء عنه في جريدة الاهرام» .

فقالت : «ان نجاحه قد سرني وزاده قدرا في عيني ، غير ان سفره الى اوربا قد يمتد الى اربع سنوات ، ولا يدري احد ما يأتي به الزمن خلالها . وقد قيل : (الدهر قلّب) وأوربا بلاد تشغل الأم عن رضيعها كما تعلم» . ثم تنهدت ونظرت الى بخيت كأنها تستطلع رأيه ، فبادرها قائلا: «اني آنست يا سيدتي من شفيق شهامة ومروءة فوق ما سمعت عنه ، فاذا هو عاهدك لا ينكث بعهده فقلب المحب الصادق لا يميل الى غـير حبيبه ، وقد فهمت انه يحبك مثل حبك له او اكثر فاذا رأيت فاني أتفق معه على موعد تجتمعان فيه لعلك تثنيه عن السفر» .

فأطرقت برهة ثم رفعت بصرها اليه وقالت : «حسنا تفعل يا بخيت ، ولكن يحسن ان تترقب فرصة يكلفك بها ابي قضاء امر ما خارج المنزل ثم تتوجه الى شفيق ، فان ابي يراقبنا كما تعلم منذ اجتماعه بذلك الشاب المتفرنج » .

فقال : «لعل الاحتفال بالمولد افضل فرصة لاجتماعكما ، ولكنـــي اخشى ان يذهب سيدي الباشا اليه ايضا . وعلى هذا ارى ان تذهبي في مركبتك الى قصر النزهة في شارع شبرا ، وليكن ذلك في اليوم العاشر من هذا الشهر ، وهناك تجتمعان في الحديقة ويخلو لكما الجو» .

فقالت : «نعم الرأي ما رأيت» .

* * *

خرج شفيق من بيته في اليوم العاشر من الشهر ، قاصدا الـــى العباسية للترويح عن نفسه . وكان يسير مطرقا كمن يفكر في امر ذي بال لا يحول بصره الى شيء من البنايات المزخرفة والحدائق الغناء التي على جانبي الشارع ، ولانشغاله بتصوراته الغرامية وبينما هو على هذه الحال اذ اعترضه بخيت وألقى عليه التحية ، فرفع بصره اليه وما عرفه حتى خفق قلبه شوقا وهياما الى مالكة قلبه ، ثم سأله : «ما وراءك ؟» .

فقال : «جئتك بأمر من سيدتي ، وقد اسعدتني الصدف بلقياك هنا» .

قال : «هات ما عندك» . قال : «ان سيدتي قرأت في جريدة الاهرام نبأ الانعام عليك من الحضرة الخديوية ، ، فسرت لفوزك وان ساءها قرب سفرك الى اوربا» .

فقال : «ان للضرورة أحكاما ، وما حيلتي والمثل يقول : (تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .؟) ..»

قال : «انها تود مقابلتك قبل سفرك» .

فظهرت علائم الدهشة والاستبشار على وجه شفيق وقال : «متى ؟ وأين ؟» ألم تحدد الزمان والمكان ؟»

قال : «في أصيل اليوم بقصر النزهة في شبرا» .

فقال شفيق : «سأكون هناك في هذا الموعد ، فأبلغها هذا مع تحيتي واحترامي» . فودعه بخيت وعاد ليخبر سيدته بما كان .

وفي الموعد المحدد ركب شفيق عربة مضت به الى شارع شبرا ، وهو يومئذ من اجمل متنزهات القاهرة ، يشرف على ارض قليلة السكن تتخللها مروج خضراء وحدائق غناء ، وعلى جانبيه اشجار باسقة كثيفة ملتفة الاغصان . وكان الخديو يخرج الى هذا الشارع في موكبه كل يوم جمعة وحواليه جماعات من الامراء والعظماء في مركباتهم. فيزدحم الناس هناك لمشاهدة الموكب . اما في الايام الاخرى كهذا اليوم فلم يكن رواد الشارع كثيرين . فلما وصلت العربة الى قصر النزهة لم يحاول الدخول اليه لعلمه بامتناع ذلك الا على بعض الناس ، ونظر الى الساعة فاذا موعد الاجتماع ما زال باقيا عليه نصف ساعة ، فأمر السائق بأن يمشي بالعربة للنزهة في تلك المنطقة ريثما يحين الموعد .

ولما اقتربت العربة من منتصف الشارع ، شاهد عربة فدوى مقبلة من بعيد ، فخفق قلبه وأخذته رجفة الحب وعلا وجهه احمرار الخجل ثم أعقبه اصفرار الوجل . وفيما هو كذلك رأى فارسا ملثما قد اعترض سائق عربتها وأمره ان يعرج بها الى مضيق هناك ، فأدرك انه يريد شرا بحبيبته ، فارتعدت فرائصه من الغيظ واشتعل قلبه غيرة عليها ، فأمر سائق عربته بالاسراع حتى وصل الى ذلك الموضع وصاح بذلك الفارس الملثم قائلا : «مكانك ايها الوغد ، كيف تجرؤ على اعتراض طريق السيدات ؟» . وهم بالنزول من العربة ، لكنه رأى ذلك الفارس الملثم حول عنان جواده وولى هاربا ، فبقي في العربة وأومأ الى فدوى

بالتحية ، فردت تحيته بمثلها ، ثم انطلقت العربتان حتى وقفتا امام القصر، ونزل بخيت ليدبر وسيلة للدخول ، ولبث شفيق وفدوى في انتظار عودته وهما يتبادلان النظرات وفيها ما يغني عن كل بيان ، وان كان خوفهما من عيون الرقباء قد حملهما على ان يكون ذلك بحساب .

وفيما هما في ذلك سمعا قرقعة عربة قادمة فحولا بصرهما اليها ، وشد ما عجب شفيق اذ تبين انها عربة عزيز ، فأوجس خيفة من مجيئه ، كما تشاءمت فدوى منه وأنزلت ستارة النافذة في عربتها وهي ترتجف من الغيظ .

وأوقف عزيز عربته بعد قليل بجانب عربة شفيق ، ثم نزل وحياه تحية المشتاق ، فلم يسع هذا الا رد التحية ، وان ثقلت عليه مقابلته . ثم اقترب منه عزيز وقال : «لقد سررت جدا لائتلاف قلبيكما ، ولا أحب ان أثقل عليكما فاسمح لي بالذهاب» .

فشكره شفيق وسأله عما جاء به الى هناك ، فقال : «خرجت للنزهة فأسعدني الحظ بلقياكما مصادفة» . ثم ودعه وعاد الى عربته فانصرف بها .

* * *

لم يكن مجيء عزيز مصادفة ، ولكنه كان منذ ليلة الاوبرا يراقب حركات فدوى بمساعدة العجوز دليلة ، فلما عرف انها خرجت للنزهة في ذلك اليوم تواطأ مع ذلك الفارس الملثم على ان يعترض طريقها لارهابها ، ثم يأتي هو لنصرتها وانقاذها ، معتقدا انها بذلك تحبه محبتها لشفيق وقد فعل ذلك وهو لا يعلم شيئا عن الموعد المضروب بين الحبيبين . وكان حين اعترض شريكه المجرم عربة فدوى مختبئا ، فلما رأى شفيقا مقبلا لم يجرؤ على الظهور الا بعد انصراف المركبتين معا الى قصر النزهة ، حيث لحق بهما .

وعاد بخيت متهللا الى فدوى وشفيق ، وأخبرهما بأن ليس في القصر احد من الحرس والخدم اذ خرجوا مع الجند الى نظارة المالية لطلب المتأخر من رواتبهم .

فقالت فدوى : «ومتى كان هذا ؟» . وتهيأت للنزول فأخذ بخيت بيدها وأنزلها ، ثم توجهوا جميعا الى الحديقة ، وقال شفيق : «ان الجنود المصريين اتحدوا وبعثوا من ينوب عنهم الى سراي المالية يطلبون رواتبهم فأمسكوا برئيس النظار ، ثم انتهى الامر بتفرقهم حالما شاهدوا الخديو اسماعيل مطلا من احدى نوافذ السراي ، وخاطبهم بكلمات قليلة » .

فقالت فدوى : «اني لم اسمع بحدوث مثل هذا من قبل» .

فقال : «ان هذا لم يحدث الا بعد ان صارت الحكومة المصرية شوروية » .

وكانا يتحدثان وهما يسيران الهوينى نحو الحديقة ، وبخيت يتقدمهما فلما دخلاها وجداها حديقة غناء ملتفة الاشجار زاهية الازهار يانعة الثمار يتخللها ممرات مفروشة بالرمال والحصباء ، والماء موزع في جنباتها ، وفيها مرتفع صناعي يزيدها روعة وبهجة . فسارا اليه ولم يدهشهما شيء من تلك المناظر الآخذة بمجامع النفوس لاشتغال فؤاديهما بما هو اسمى من ذلك .

ونظر شفيق الى فدوى فاذا هي قد زادها خجل الحب بهاء وجمالا ، فأبرقت عيناها والتمع وجهها ولازمتها رجفة الحب فأطرقت ولم تقو على رفع نظرها اليه . ولم يكن هو أقل منها اضطرابا . وبقيا على ذلك حينا والحياء يمنع فدوى من النظر الى وجهه او مخاطبته ، فأخذت تشغل نفسها بتلك المناظر لعلها تسكن شيئا من هياج عواطفها واضطرابها لانها لم تعتد مجالسة الشبان ولا مخاطبتهم ولاسيما على انفراد ، اذ قد عاشت عيشة التحجب المتبعة عند عائلات الاتراك فان أباها وان لم يكن منهم

كان يتخلق بأخلاقهم ويحافظ على عاداتهم ، فشبت فدوى على ذلك .

وما زالا على هذا الاضطراب حتى وصلا الى المرتفع وقد كساه الزهر وظلله الشجر فجلسا على مقعدين متقابلين يفصلهما ممر الحديقة الضيق، ولبثا زمنا لا يجرؤان على افتتاح الحديث ويكتفيان بالنظرات ، ثم تجلدت فدوى وقالت : «لقد سرنا ما قرأناه في الصحف عن سبقك أقرانك ونيلك انعام الخديو» .

فأطرق شفيق خجلا ولم يجب بكلمة . فقالت : «ولكن بعض الناس ساءهم هذا الامر لما يترتب عليه من التغرب في انحاء الممالك الاوربية بضع سنين» . قالت هذا وخنقتها العبرات ولكنها تجلدت وأحبت اتمام الحديث فلم تستطع .

وكان شفيق مطرقا ينكت الارض بغصن جاف في يده اخفاء لعواطفه، فلما سمع منها ذلك ادرك مرادها فقال : «الحق يا عزيزتي اني لم أسر بهذا الانعام تمام السرور لانه سيبعدني عن كل الناس فأنت عندي كل الناس، ولكن عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، ولعلي أصيب في سفري هذا ما يجعلني اقرب الى استحقاقك مما انا الان» .

فقالت : «انك في الحقيقة فوق ما أستحق وأكثر مما أتمنى ، فنحن لا نقدر الناس بأموالهم وانما بصفاء جوهرهم وصحة ادبهم وشهامتهم. وأنت قد زينك الله بصفات شريفة لو تفرقت في جماعة لكفتهم . فانك غني بالمواهب التي يختص الله بها من يشاء من عباده» .

فالتفت اليها شفيق وقد تلعثم لسانه وقال : «ان الله اختصك بكمال الذات والصفات فلا يحيط بوصفك محيط ، لصفاء عنصرك وسمو ادبك» .

فظهر اضطرابها جليا مع محاولتها اخفاءه وأخذت تحاول تخفيفه متظاهرة بالنظر الى جمال الحديقة ، ثم اطرقت قليلا ورفعت بصرها الى

شفيق وقال : «اني عاجزة عن شكر عواطفك الشريفة التي لا أستحقها».
ثم سألته الى أي بلاد اوربا يعتزم السفر ، فقال : «الى باريس فـــي فرنسا ، او لندن في انجلترا غالبا» .

فقالت : «هل رضيت السيدة والدتك بذلك ؟»

قال : «نعم ولكن رضاءها ليس الا اذعانا لحكم الضرورة» .

فتنهدت وهي مطرقة تنثر وردة بأناملها اللطيفة ، ثم قالت : «انـــي لاعجب كيف يمكنها البقاء لحظة بعيدة عنك ولكن ..» . وسكتت كأنها تريد كتمان شيء ، فبادرها شفيق مستفهما عمـــا سكتت عنه فقالت : «ولكن قد يمكنها الصبر على بعدك لانها والدتك وأنت ولدها» .

فقال مندهشا : «ماذا تعنين بذلك يا فدوى ؟»

قالت : «لا أعني شيئا وانما ..» . وسكتت .

فقال : «قولي يا عزيزتي ولا تكتمي عني شيئا» .

فهمت بأن تجيبه فخنقتها العبرات وكأنها المقصودة بقول الشاعر :

ترنو اليه بعين الظبـــي مجهشة   وتمسح الطل فوق الخد بالعنم

فازداد خفق فؤاده ونظر اليها مشجعا وأخذ يطيب خاطرها ويخفف عنها حتى سكنت عواطفها قليلا فمسحت دموعها ورمته بسهم من لحظها كاد يقضي عليه ، فقرب مقعده منها وخاطبها بألطف عبارة قائـــلا : «ألا تريدين ان تخبريني بما عنيته بقولك ؟»

قالت : «ان والدتك تستطيع الاصطبار على بعدك لانها لا تخاف ان تتخذ لك والدة سواها !»

وكانت تخاطبه وهي تكاد تذوب خجلا حتى لم تقدر ان ترفع نظرها اليه ، فأدرك ما ترمي اليه وقال : «لعلي أولى منك بخشية المستقبل اذ قد يتهيأ لك من هو افضل كثيرا مني» .

فقالت وقد ظهرت على وجهها امارات البشر : «قلت لك اننا لا نقدر

الناس الا بما فيهم من الصفات الادبية . والآن ما دمت مسافرا الى اوربا ألا تترك لنا تذكارا منك ؟»

قال : «ألا يكفي اني سأترك قلبي ؟»

قالت : «ذلك اكثر مما أستحق ، وانما أريد منك تذكارا حسيا يبقى لدي شاهدا على ما دار بيننا» .

فقال وقد بلغ منه الهيام مبلغا عظيما : «ماذا اعطيتك وقد وهبتك قلبي وكل عواطفي ؟» . ثم امسك بيدها وقال : «أعاهدك يا فدوى بالشرف والمحبة الطاهرة التي بيننا على ان أحافظ على حبك حتى الموت. ولا ارضى بدلا منك قط» . فأجابته ولسانها يتلعثم قائلة : «وما تذكارك عندي ؟» . فقال : «ليس لدي الان ما يليق بمقامك الا هذا ..» . ثم قدم لها زرا من أزرار قميصه الذهبية منقوشا عليه الحرف الاول من اسمه فتأملته معجبة به ، ثم مدت يدها الى دبوس ذهبي مرصع كان في صدرها ونزعته وقدمته له قائلة : «خذ هذا الدبوس لتذكرني كلما نظرت اليه» .

فأخذه شفيق وتأمله فاذا هو على هيئة المرساة ، متقن الصنع لطيف الهيئة . فتبسم ونظر اليها شاكرا وقال : «ان هذه المرساة رمز للامل . وأؤكد لك ان املك في محله» .

دار بينهما كل ذلك الحديث وكل منهما يحاذر ان يمس ثوب الاخر اجلالا للطهارة والعفة ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فنهضا يتمشيان في الحديقة والشمس ترمقهما مودعة من خلال الاشجار والازهار .

وفيما هما في ذلك جاء بخيت مسرعا وقال لشفيق : «ودع سيدتي واخرج من الباب الاخر للحديقة ، وقد قلت لسائق عربتك ان يذهب وينتظرك هناك لان سيدي آت ، فلعل احدا وشى بكما اليه» . فودع شفيق فدوى على عجل وخرج مسرعا من الباب الاخر صيانة لشرفها .

وعرج من هناك حتى جاء الشارع على مسافة من الحديقة فاذا بالعربة تنتظره فركب وعاد الى منزله •

اما فدوى فتكدرت لهذه المفاجأة ، ولكنها تجلدت واستمرت سائرة في الحديقة كمن يتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة وبخيت بجانبها ، ثم سارا يريدان الخروج فاذا بأبيها يقابلهما داخلا • فسارعت اليه وقبلت يديه •

وكان عزيز بعد ان تركهما قد اخذ يبحث عن وسيلة للايقاع بشفيق، فلاح له ان يذهب الى ابيها ويغريه بالمجيء الى قصر النزهة ، فذهب اليه وحادثه في موضوعات مختلفة ثم قال له : «هل لك ان نسير معا للنزهة في شارع شبرا ؟»

فقال الباشا : «لا بأس ، ولاسيما ان ابنتي ذهبت الى هناك فعسى ان نلتقي بها ونعود معا» •

وفي طريقهما الى هناك اخذ عزيز يحدثه عن فدوى ووجوب مراعاتها كلما خرجت ، وقصده ان يثبت كلامه لدى الباشا حين يرى شفيقا وفدوى معا في الحديقة •

ولما اقتربت بهما العربة من هناك خاف عزيز ان تظهر مكيدته لشفيق، فتظاهر امام الباشا بأنه نسي شيئا في المنزل واستأذنه في العودة لاحضاره ثم اللحاق به في قصر النزهة ، فأذن له ، وواصل هو سيره حتى دخل الحديقة ، ولكنه لم يجد فيها مع فدوى غير بخيت • ولما سألته عن سبب مجيئه قص عليها الخبر ولكنه لم يذكر اسم عزيز ، فأدركت انه هو بعينه وقد فعل ذلك ليوقع بها وبشفيق ، لكنها تجاهلت • ولبثوا ساعة هناك حتى يئس الباشا من عودة عزيز ، فركبوا عربة فدوى وعادوا الى منزلهم•

اما شفيق فلما وصل الى البيت كاشف والدته بما كان من امره مع فدوى ، وأوصاها بكتمانه وبأن تجتمع بها اثنـــاء غيابه ما استطاعت

وتذكرها بوعدها له لئلا يضعف البعد عهدها ، فوعدته بذلك .

* * *

بعد بضعة اسابيع صدر الامر بسفر شفيق الى فرنسا لدرس المحاماة فيها تنفيذا لرغبة الخديو ، فتقدم ابوه الى الجناب العالي راجيا ان يسمح بارساله الى انجلترا لانه يعرف الانجليزية جيدا فأذن له في ذلك .

ولما علم عزيز بقرب سفر شفيق ، اشتد به الحسد وحدثته نفسه بأن يفتك به او يسعى الى هلاكه بمكيدة اثناء سفره الى لندن ، ثم استقر رأيه على ان يكون ذلك في الاسكندرية ، حيث يكون شفيق بعيدا عن اهله وأحبائه ، فلما كانت ليلة سفره ذهب اليه وأمضى عنده معظم الليل مظهرا له عظيم اسفه على فراقه ، ثم اخبره بأنه سيشيعه في الغد الى الاسكندرية ، فشكره شفيق وعد ذلك منه منة كبرى .

وفي صباح اليوم التالي توجه عزيز الى المحطة حيث بقي مع شفيق في القطار بعد ان ودعه ابوه وبعض اقاربه وعادوا . وقضيا معظم الطريق في الاحاديث عن مصر وفدوى ، وعزيز يحاول اظهار رغبته في اقتران شفيق بها ، ويعده بالسعي لاتمام ذلك ما استطاع .

ولما وصل بهما القطار الى الاسكندرية ساعة الغروب ، ركبا عربة الى فندق على شاطىء البحر ، ولم يكن شفيق قد زار الاسكندرية من قبل فلما استراحا وغيرا ثيابهما قال له عزيز : «هلم بنا الى المدينة لنقضي الليل في مشاهدة أسواقها وبهجتها وزخرفها ترويحا للنفس من وعثاء السفر» . فأجابه الى ذلك وذهبا حتى اتيا ساحة المنشية ، فدهش شفيق لما شاهد من عظمة المدينة وسعة شوارعها واشراقها بالانوار الغازية التي جعلت ليلها نهارا ، كما أعجب بحوانيتها المضاءة بالانوار ومبانيها الشاهقة المزخرفة .

والمنشية مستطيلة الشكل ، فيها كثير من شجر اللبخ ، وفي منتصفها تمثال هائل لمحمد علي الكبير يقوم على قاعدة مرتفعة من الرخام الابيض، ويمثله على هيئة فارس شيخ وقور متسع الصدر كبير اللحية على رأسه عمامة كبيرة ، وقد ارتدى الجبة والقفطان وامتطى جوادا فارها ، وتقلد سيفا منحنيا وقد وضع يده اليمنى على فخذه الايمن وكأنه ينظر الى جهة المدينة ليتأمل بهاءها ورونقها • فأعجب شفيق بهذا التمثال ، وأخذ يطيل التأمل في دقة صنعه ، ويتحدث مع عزيز عن مآثر صاحبه ، وعزيز يتظاهر بالاصغاء في حين انه يفكر في تدبير مكيدة يهلكه بها • فلما رآه مأخوذا بمناظر الاسكندرية اخذ يمتدحها له ويطنب في ذكر محاسنها ، ثم خطر له ان يذهب به الى خان ويسقيه خمرا حتى يغيب صوابه فيفتك به ، ولكنه تذكر ان شفيقا لا يتعاطى شيئا من انواع المسكر ، وانه يستنكف من مجالسة كل من يتعاطاها •

وفيما هما يتمشيان على رصيف المنشية مرا بمقهى ازدحم بالجالسين فيه ، وهم يشربون شراب عرق السوس ، وكان صاحب المقهى شيخا ذا عمامة بيضاء ، شد وسطه فوق جلبابه بحزام حتى لا يتعثر بأذياله لكثرة حركته ، واسمه محمود • وكان عزيز يعرفه من قبل فقال لشفيق : «هلم بنا نشرب شيئا من منقوع عرق السوس فانه رطب منعش» • فمضى معه شفيق حتى دخلا المقهى ، ولم يحصلا على ما طلباه من المشروب الا بعد طول الانتظار لكثرة الازدحام •

ولاحظ شفيق اثناء جلوسهما هناك ان رجلا في ثياب غريبة الزي كان يقتفي أثرهما عن بعد ، فلما دخلا المقهى لحق بهما وجلس على مقربة منهما وطلب من الشيخ محمود كوبا من ذلك المشروب فجيء به اليه • وكان الجالسون هناك قد تحلقوا جماعات وأخذوا يتسامرون ، وفيهم الافرنج والاتراك والوطنيون وغيرهم من مختلف الاجناس والملل ، بعضهم

يتحدثون عن البورصة والاسعار والارباح ، وآخرون يتحدثون فـــي السياسة او عن الملاهي • وجميعهم فرحون لا تسمع منهم الا ضحكـــا وقهقهة •

ولم يشأ شفيق ان يكاشف عزيزا بما يخالجه من الريبة في امر ذلك الرجل لئلا يظن به الجبن • فلما غادرا المقهى وأخذا طريقهما الى الفندق الذي اختاره للنزول به الى ان تأتي الباخرة برنديزي بعد ثلاثة ايام ، لاحظ شفيق ان ذلك الرجل يتبعهما الى الفندق فقلق وأوجس خيفة ، لكنه تجلد وحمل ذلك على محمل الاتفاق لسلامة نيته • فلما انفردا في غرفتهما طلبا العشاء وأمضيا بعض الوقت في الحديث ، ثم أوى كـــل منهما الى فراشه •

وكانت هذه الليلة اول ليلة يقضيها شفيق بعيدا عن والديه ، فتواردت عليه الافكار وتاه في عالم تصوراته ، فجفاه الكرى حتى لم يطـــق الاضطجاع فنهض وجلس على كرسي بجانب السرير ، ثم خرج الى غرفة الاستقبال لعله يجد شيئا من الجرائد . فوجد صحيفة الاهرام فأتى بها وأقبل على قراءتها حتى انتهى الى تلغراف قرأ فيه ان الباخرة برنديزي تصل الى الاسكندرية صباح اليوم التالي قبل موعدها المحدد ، وستبرح الميناء عند الظهيرة ! فاهتز لتلك المصادفة تخلصا من الانتظار على غير جدوى ، ونهض لوقته وشرع في ترتيب ثيابه وأوراقه بحقائبه ، وكان بينها دبوس فدوى فخفق فؤاده لمرآه وترقرقت عيناه بالدموع ، فقبل الدبوس وحفظه في مأمن ، ثم نظر الى الساعة فاذا هي الثانية بعـــد نصف الليل فاضطجع على فراشه وبقي كذلك حتى الصباح •

وجاء عزيز وهو لا يدري شيئا من امر أرقه ، وكان هو قد امضى ليله في اعداد المكيدة لاهلاكه ، فلما وجده مرتديا ثياب السفر سأله عن السبب ، فأطلعه شفيق على الجريدة ، فسقط في يد عزيز ، وخشي حبوط

مسعاه فأخذ يحبب اليه الاقامة بالاسكندرية اياما ، ثم السفر بعد ذلك في باخرة اخرى فقال شفيق : «لو انني خيرت لاخترت الاقامة بهـــذه المدينة الجميلة ولكنني الان على أهبة سفر طويل ومشقة عظيمة ، وخير البر عاجله» .

فلعن عزيز في سره الساعة التي وصلت فيها الباخرة برنديزي لانها احبطت كل مساعيه . وكظم غيظه ثم اخذ يساعد شفيقا في التأهب ، حتى حان موعد رحيل الباخرة فركبا قاربا للوصول اليها ، وركب معهما رجل عرف شفيق انه هو الرجل الذي تعقبهما بالامس . فسكت على مضض وفي عزمه ان يعنى بالوقوف على حقيقة امره اذا كان مسافرا معه على تلك الباخرة .

ولم يمض الا قليل ، ثم اقلعت الباخرة بشفيق ، وعاد الرجل مع عزيز في القارب نفسه . فبقي شفيق يحدق في الشاطىء بعينيه حتى حـــال الافق بينهما .

وبقي بضعة ايام وهو لا يكاد يختلط بأحد ، الى ان وصلت الباخرة الى مرسيليا ، فنزل اليها مع النازلين ، ومن هناك ركب القطار الـــى باريس ، ثم الى ميناء الهافر على خليج المانش حيث ركب سفينة بخارية شقت به الخليج حتى وصلت الى دوفر . فركب منها القطار الى لندن .

- ٥ -

الثورة العرابية

رجع عزيز الى القاهرة بخفي حنين نادبا سوء حظه وفشل مكيدتـــه

لعرقلة مساعي شفيق او الحط من قدره في عيني فدوى ، وكان قد ازداد تعلقا بحبها ، وأصبح في شر حال ، وكأنه المعنى بقول من قال :

تريدين قتلي لا تريدين غيره ولست ارى قصدا سواك أريد

وقال لنفسه اخيرا : «لا داعي لليأس ، وما زال في الوقت متسع لعمل ما يقربني من فدوى ، ويبغض شفيقا اليها» .

وفي مساء الاربعاء ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩ كان الناس في القاهرة يتحدثون باضطراب السياسة المصرية ، لحقد دولتي انجلترا وفرنسا على الخديو ، وتوقع الكثيرون تنازله عن العرش . فتمنى عزيز ان يتم ذلك، ظنا منه ان هذا يترتب عليه الغاء الامر الصادر بارسال شفيق الى لندن. ومضى يستطلع الاخبار ، ثم توجه الى منزل فدوى ليقف على رأي ابيها في تلك الاشاعات ، فلما استقر به الجلوس معه قال : «هل سمع سعادة الباشا بالاشاعات التي ترددت عن توقع تنازل الخديو ، بمساعي انجلترا وفرنسا ؟ »

فقال الباشا : «ان ابراهيم باشا المرسل من قبل افندينا الى الاستانة في هذا الشأن ، قد أرسل برقيات آكد فيها رضا الباب العالي عن الخديو، ولكن ممثلي الدولتين ما زالا ينصحان له بأن يتنازل عن العرش لابنه توفيق » .

فقال عزيز : «وما سبب حقد الدولتين عليه الى هذا الحد ؟»

قال : «لا يخفى عليك يا ولدي ان الخديو اسماعيل أنفق الاموال الطائلة لتحسين حال البلاد وجعلها أشبه بالبلاد الاوربية . وقد اضطره ذلك الى الاستدانة من هاتين الدولتين وغيرهما ، فبلغ مقدار الدين على الخزانة المصرية نحوا من تسعين مليون جنيه . ولما رأت الدول ذلك

خافت ألا يفي دخل الحكومة المصرية بهذا الدين ، او ان يكون في حساباتها ما يريب . فبعثت كل من انجلترا وفرنسا رقيبا من قبلها لذلك، ولكن التدخل لم يقف عند هذا الحد، بل جاوزه الى جميع اعمال الحكومة بدعوى ان لاجراءات الحكومة أثرا في ميزانية البلاد وفي اداء دينها تبعا لذلك . وهكذا صارت حكومة الخديو شوروية ، اي يسيرها مجلس النظار ، بعد ان كان الخديو مطلق التصرف ، ثم أدخلوا في هذا المجلس ناظرين اجنبيين : احدهما انجليزي ، والاخر فرنسي . وحدث ان قرر مجلس النظار رفت بعض الجنود اقتصادا للنفقات ، فثار المرفوتون وجاء ضباطهم الى نظارة المالية وأمسكوا برئيس النظار وناظر المالية وتهددوهما. ولولا ظهور الخديو اذ ذاك في شرفة المجلس لما ابقوا عليهما ، فان كلمة واحدة منه اوقفتهم عند حدهم . وأخيرا رأى الخديو ان وجود الناظرين الاجنبيين يضيق عليه الخناق فعزلهما وولى ناظرين وطنيين ، فغضبت الدولتان وحقدتا عليه ، وسعتا ضده في الاستانة وما زالتا تسعيان حتى الان ، والناس بين يائس وآمل» .

وغادر عزيز قصر الباشا بعد انتهاء السهرة ونفسه تحدثه بأن تغيير الخديو لا بد منه ، وبأن بعثة شفيق ستلغي تبعا لذلك ، فيقل شأنه في نظر فدوى وأبيها ، ويخلو له هو الطريق .

وفي الصباح التالي استيقظ عزيز على اصوات المدافع مؤذنة بتنازل الخديو اسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق مكانه ، فلبث ينتظر ما يكون.

* * *

كان بين ضباط الجيش المصري حينذاك ضابط يقال له احمد عرابي ، وطني النزعة ، ينتمي الى احدى القرى في مديرية الشرقية ، وقد التحق بخدمة الجيش على عهد المغفور له سعيد باشا ، وما زال يترقى حتى بلغ

في عهد الخديو توفيق رتبة الاميرالاي •

وكان في الجيش المصري بعض الضباط الشراكسة ، يستأثرون غالبا بالرتب العليا ، اما المصريون فقلما يتجاوزون رتبة الاميرالاي ، كما كانوا حتى عهد الخديو اسماعيل قلما يباح لهم التظاهر بما يخامر قلوبهم من الاسف لاستئثار الاجانب دونهم بتلك الرتب • فلما تولى الخديو توفيق، رأى الضباط المصريون انه أكثر حبا لمصلحتهم ، وقد أنعم عليهم بالرتب العالية ، فشرعوا في اظهار مكنونات قلوبهم نحو الاجانب ، وطالبوا باعطائهم حقوقهم كاملة ، ولم يكن الخديو توفيق يكره ذلك ، ولكن بعض كبار الضباط المصريين لم يطيقوا صبرا ، وسرعان ما تحول الامر الى ثورة عمت البلاد •

وكان رؤساء الثورة ثلاثة ضباط هم : احمد عرابي ، وعلي فهمي ، وعبد العال، فتعاهدوا على السعي للاستئثار بادارة أمور بلادهم بأنفسهم. واستئصال الاجانب من خدمة الحكومة ولاسيما الجيش • وألفوا لذلك جمعيات سرية ، مؤيدين في ذلك من جميع الضباط المصريين • ونظرا الى رغبة الخديو توفيق في تعزيز جانب المصريين كان يجيب مطالب هؤلاء الضباط فيما يرى فيه مصلحتهم ، فبدأ بعزل ناظر الجهادية وكان شركسيا. ثم تطرقوا الى التدخل فيما وراء ذلك ، يؤيدهم ناظر الجهادية الجديد الذي خلف الشركسي ، وكان وطنيا متحالفا مع عرابي وجماعته سرا . فأخذوا يعقدون الاجتماعات السرية في منزل عرابي عاملين على تحقيق ذلك •

وكانت جريدة الطائف لسان الحزب الوطني في ذلك الحين فنشرت كلمة قالت فيها : «سيحتفل في ٢١ جمادي الاولى سنة ١٢٩٨ هـ• (٢٠ ابريل سنة ١٨٨١) في سراي قصر النيل احتفالا كبيرا ، لما أنعم به الجناب العالي من زيادة رواتب الضباط والعساكر وتعديل القوانين العسكرية»•

فلما قرأ عزيز هذا الخبر اعتزم ان يحضر ذلك الاحتفال ، ليرى مـــا يتم فيه •

ولما تم عقد الاجتماع بحضور النظار ورؤساء الجيش نهض ناظـــر الجهادية وخطب ممتدحا انعام الخديو ، ثم قام بعده رجل قصير القامة خفيف شعر اللحية سريع الحركة فألقى خطبة مماثلة • وسأل عزيز من يكون هذا الخطيب فقيل له : انه رئيس مجلس النظار • وأخيرا وقف للخطابة رجل في لباس الضباط ، ربع القامة ضخم العضلات اسمر اللون، فاستقبله الحاضرون بالتصفيق وعلت الضوضاء ثم انقطعت حين شرع في الكلام ، فبدأ بشكر الخديو والنظار ، ثم أفاض في حث المصريين على محبة الوطن والعمل على رفع شأنه • والحاضرون يعقبون على كل فقرة من خطبته مصفقين فرحين •

فعجب عزيز من بلاغة الخطيب وشدة الاحتفاء به ، وسأل ضابطا امامه عمن يكون ، فضحك الضابط ساخرا وقال : «كيف لا تعلم من هو هذا البطل ؟• انه احمد عرابي بك رجل الوطن» •

وكان عزيز قد سمع عنه ولم يره الا في تلك الساعة فلم يسعه الا السكوت حتى انتهى الاجتماع وارفض الجمهور ، فخرج وكله اعجاب، بالنفوذ العسكري وارتفاع مقام رجال الجيش ، وود لو يلتحق بـــه ليكتسب الرفعة والمجد ، ولاسيما بعد القانون الجديد الذي منـــح الوطنيين في الجيش امتيازات عدة • هذا الى استطاعته بفضل غناه ان يترقى في مدة قصيرة فيصير ضابطا كبيرا ، وينال حظوة في عيني فدوى وأبيها •

* * *

اخذ عزيز يسعى في سبيل تحقيق أمنيته ، بقراءة القوانين العسكرية

وحضور الاستعراضات . ومتابعة اخبار الجيش ، الى ان كانت حادثة عابدين يوم اجتمع الجند في ساحة القصر بمدافعهم وأسلحتهم ومعهم ضباطهم فكان في مقدمة من توجهوا الى مشاهدة الحادث من الوطنيين والاجانب . فراعه منظر هذا الاجتماع العسكري الرهيب . وأخذ ينقل بصره بينه وبين الجموع التي احتشدت خلف الجند في الساحة وفي نوافذ البيوت المجاورة وفوق أسطحها.

ثم جاءت مركبة الخديو يتقدمها الياوران فوقفت امام شرفة (السلاملك) بالقصر ، والتفت الخديو الى عرابي الذي كان في مقدمة الضباط على جواده فأشار اليه ان يقترب ، فتقدم على جواده وسيفه ما زال مشهرا في يده . والضباط حوله للمحافظة عليه . فأمره الخديو باغماد سيفه وبأن يترجل ويتقدم وحده ففعل ثم خاطبه الخديو بقوله : «ألم أك سيدك ومولاك ؟» . فقال : «نعم» .

قال : «ألست انا الذي رفيتك الى رتبة اميرالاي ؟» . فقال : «نعم ولكن بعد ترقية نحو اربعمائة» .

قال : «وما سبب حضورك بالجيش الى هنا ؟» . فقال : «لنيل مطالب عادلة» .

قال : «وما هذه المطالب ؟» .. فقال : «اسقاط الوزارة ، وتأليف مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام» .

فقال الخديو : «كل هذه الطلبات ليست من اختصاص العسكرية» . ثم مضى الى داخل القصر ، وجاء قنصل الانجليز فقال لعرابي : «ان اسقاط الوزارة من اختصاص الخديو ، وطلب تأليف مجلس النواب من اختصاص الامة ، ولا وجه لزيادة عدد الجيش لان البلاد في طمأنينة ، فضلا عن ان مالية البلاد لا تساعد على ذلك . أما التصديق على قانون

العسكرية الجديد فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه ، وأما عزل شيخ الاسلام فلا يكون الا لاسباب» •

فقال عرابي : «اعلم يا حضرة القنصل ان مطالبي هي مطالب اهل البلاد ، وقد اتابوني في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوتهم وأولادهم ، وهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة ، واعلم اننا لا تتنازل عن هذه المطالب ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ» •

فقال القنصل : «اذن انت تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، الامر الذي يخشى منه ضياع بلادكم ؟»

فقال عرابي : «ذلك لا يكون ، ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخليتنا ؟ اننا نقاومه أشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا !»

قال : «وأين لك القوة التي ستقاوم بها ؟»

قال : «في وسعي ان أحشد في زمن يسير مليونا من العساكر طوع ارادتي » •

قال : «وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت ؟»

قال : «اقول كلمة اخرى» •

قال : «ما هي هذه الكلمة ؟» • قال : «لا اقولها الا عند القنوط» •

ثم انقطعت المخابرات بين الفريقين نحوا من ثلاث ساعات ، تداول القناصل والخديو والنظار اثناءها داخل القصر ، وعزيز يفكر فيما سمعه من حديث عرابي وما شاهد من جرأته ، فاذا بالامر قد استقر على اجابة مطالب عرابي وتنفيذها تدريجا ، لان بعضها يحتاج الى مخابرة الباب العالي • ولكن عرابي أصر على اقالة الوزارة قبل انصرافه فأقيلت ، ودعي شريف باشا لتأليف وزارة جديدة فقبل بعد ان نفذ ما اشترطه من تعهد رؤساء الحزب العسكري بالامتثال لاوامره ، وتقديم عمد البلاد ضمانة

على ذلك .

وزادت رغبة عزيز في الالتحاق بالجيش بعد هذا الذي رآه من نفوذ كلمة رجاله . ولكنه رغب في استطلاع رأي فدوى قبل ذلك فذهب الى دليلة العجوز وأطلعها على مراده فقالت : «سأستطلع رأيها وأنبئك بما يكــون » .

وفي اليوم التالي ذهبت العجوز الى قصر الباشا كعادتها وأخـذت تعرض على النسوة فيه ما حملته من السلع ، وبينهن فدوى بلباس البيت الذي زادتها بساطته جمالا وروعة ، فمدت العجوز يدها وأخرجت مشطا مصنوعا من سن السمك وقدمته لها قائلة : «هل لك ان تتنازلي يــا سيدتي بقبول هذه الهدية الحقيرة لكي تتشرف بمس هذا الشعر الجميل؟ وما جرأني على تقديمها لا ما يقال من ان الهدية على مقدار مهديها» . فأعجبت فدوى بأدب الدلالة العجوز ولطفها ، وقبلته مرضاة لها . ثـم اخذت مع بقية نساء القصر في مشاهدة السلع المعروضة ، وبعد شراء ما انتقينه منها جلسن يتبادلن مختلف الاحاديث حتى استطرقن الى حادثة عابدين فقالت دليلة الدلالة : «ان رجال الجهادية هم زهرة البلاد ويدها اليمنى ، وبهم تفتخر الامة ، وعليهم حماية الحصون ودفع اعداء الوطن».

فقالت فدوى : «نعم ان رجال الجندية لكذلك ولاسيما اذا كانوا رجالا في الحرب كما هم في السلم . والجندية على العموم من اشرف الاعمال وأحقها بالاجلال» .

فقالت دليلة : «اذن هل تفضلين يا سيدتي الضابط في الجيش ، ام التاجر ؟ ام العالم ؟» . وتبسمت فدوى انها تريد محادثتها في شؤون الخطبة والزواج ، وعلت وجهها حمرة الحياء فأطرقت ولم تجب .

واكتفت العجوز بما سمعته من ثنائها على رجال الجندية ، فعجلت في الانصراف وعادت الى منزلها حيث كان عزيز في انتظارهـا هناك ،

فقالت له : «أبشر يا ولدي لقد قضي الامر» .

قال : «وكيف كان ذلك ؟» . قالت : «انها تحب رجال الجندية فافعل ما بدا لك» .

فتنهد وقال : «هذا ما كنت ارجوه يا خالتي» . ثم ودعها وخرج معتزما الذهاب الى منزل فدوى لاستطلاع رأي ابيها أيضا ، مؤملا ان يجده مثلها محبا للجندية .

فلما دخل عليه رآه منقبض النفس بادي القلق ، فابتدره قائلا : «هل حضرتم سعادتكم يوم عابدين وشاهدتم ما كان من فوز رجال الجيش ؟. لقد حبب هذا الي ان ألتحق بالجيش ، فما قولكم ؟»

قال : «ان الخدمة العسكرية من أشرف الخدمات ، ولكنها محفوفة بالاخطار» . فقال عزيز : «لا خطر فيها الا ايام الحرب» .

قال : «نعم ولكنك غني عن هذه الخدمة بما عندك من الثروة . وافرض ان خطر الحرب وجد وأنت في الجيش فماذا تفعل ؟»

فتظاهر عزيز بالبسالة وقال : «في هذه الحالة اقوم مغتبطا بما يفرضه واجبي ، ووطنيتي . ولا بد دون الشهد من ابر النحل» .

فانطلت خدعته على الباشا وقال له : «اذا كان لا بد لك من ذلك ، فاني اعطيك كتاب توصية لعرابي بك فهو صديقي ، ليتوسط لك لدى ناظر الجهادية فيقلدك منصب ضابط» .

ثم كتب له خطابا الى عرابي أوصاه فيه بأن يشمله برعايته ومعاونته. فأخذ عزيز الخطاب ، وودع الباشا وخرج قاصدا الى منزل عرابي . فلما بلغه وجده غاصا بالناس بين منتظر امرا ، ومتظلم من امر ، وهم يدخلون اليه الواحد بعد الاخر فيقابل كلا بحسب مقامه ويجتهد في ارضاء الجميع .

ولما جاء دور عزيز دخل على عرابي وقد زر ثوبه تأدبا ، فقابله

بالبشاشة واللطف وبعد تلاوة الكتاب قال له : «لعلك عزيز أفندي جندب ابن المرحوم السيد جندب المشهور ؟» . قال : «نعم» . فأجلسه بجانبه وقال له : «ما حملك على الانتظام في صفوف الجندية وأنت في غنى عنها ؟ »

قال : «رغبتي في خدمة الوطن» .

فأعجب به عرابي وقال : «بورك فيك من محب وفي لمصر ، مع انك أباك مغربي الاصل على ما أعلم» .

قال عزيز : «ان جدي رحمه الله جاء من بلاد المغرب للخدمة في جيش محمد علي باشا ، فأقام بمصر واتخذها وطنا له» .

فقال عرابي : «حسنا ، ولكن من كان في مثل مركزك المالي ، لا بد من ان يتعهد بتقديم المساعدة المالية للجهادية عند الاقتضاء خدمة لمصلحة البلاد» .

فبغت عزيز وندم على مسعاه في ذلك السبيل ، ولكن لم يسعه الا الموافقة مرغما فقال : «انا وما أملك تحت امر سعادتكم» .

فشكره عرابي وأطنب في الثناء على شهامته ثم قال له : «ان مثالك يستحق التشرف بخدمة العسكرية» . وأمر فكتب له خطاب الى ناظر الجهادية يوصيه به خيرا . فأخذ عزيز الخطاب ومضى به الى الناظر فوعده بانجاز طلبه ، وبعد حين عين في رتبة ملازم وألبس الحلة العسكرية ذات الشريطة الصفراء القصبية على الكمين ، وبدأ التدرب على الحركات العسكرية .

- ٦ -

مذبحة الاسكندرية

كانت فدوى بعد سفر شفيق مشغولة البال دائما ، لا تفتأ تفكر فيه، و لاترتاح الا الى الحديث عنه او استطلاع احواله ، فكانت تجتمع احيانا بوالدته دون ان تكشف لها عما في قلبها نحوه من الحب . ولكن حالها لم يكن ليخفى على والدة شفيق فكانت تتلقاها بالحفـــاوة والترحيب ، وتحدثها عن نجاحه وما ذكرت الجرائد الوطنية عنه .

ففي احد الايام خرجت فدوى بعربتها الى شارع العباسية للترويح عن النفس بالمرور ببيت الحبيب . وفيما العربة سائرة بها وبخيت امامها، لحظت من النافذة فارسا يحاذي جواده مركبتها ، فأشارت الى بخيت ان يأمر السائق بسرعة المسير ، غير ان ذلك الفارس الطفيلي ما زال سائرا بمحاذاة المركبة بعد ذلك ، فاغتاظت فدوى وتحدثت في ذلك مع بخيت فأمر السائق يوقف العربة ، حتى يمضي ذلك الفارس الثقيل . ولكن هذا ما كاد يسبق العربة ويلاحظ وقوفها حتى كر راجعا الى ان حاذى المركبة او كاد ، وتبينت فدوى انه من رجال الجهادية ، بما عليه من لبـــاس الضباط ، وكان قد أمال طربوشه على جبينه حتى يظهر شعره المصقول ، وحاول النظر الى فدوى فأنزلت ستارة النافذة وانزوت داخل العربة .

فلما رأى بخيت تماديه وشراسته ، تفرس فيه فاذا هو عزيز ، فصاح به قائلا : «ماذا تريد يا افندي ؟»

فقال عزيز : «أريد ان أحيي حضرة السيدة» .

قال : «ان العادة لم تجر بمثل هذا ، والأليق بك ان تمضي لشأنك وتحفظ شرف الحلة التي انت لابسها !»

فقال عزيز : «تأدب يا هذا واعلم انك تخاطب ضابطا محترما» . قال هذا بصوت عال لتسمعه فدوى ظنا منه انها اذا علمت مكانته ترفع الستارة وتنظر اليه.

فقال له بخيت : «قد دلنا لباسك على مقامك ، ولكن رجال الحرب لا يصقلون شعورهم ، ولا يتطيبون تطيب المخدرات ، ثم هم لا يعترضون المارة هكذا ولولا احترام كسوة العسكرية التي عليك لاذقتك ما لم تذقه عمرك !»

فانتفض عزيز من الغضب والخجل وقال : «ليس مقامي مخاطبة العبيد ، وانما انا أخاطب سيدتك» .

فقال بخيت : «احفظ مقامك وامض لشأنك فهذا خير لك» .

قال : «قل لسيدتك ان شفيقا لا يزال غرا من تلامذة المدارس ، فليس هو أولى بالمحادثة من ضابط في الجيش» .

فاشتد غضب بخيت وصاح به محتدا قائلا : «اخسأ يا وغد ، ولئن لم تذهب لأذيقنك الوبال» . قال ذلك وأمر السائق بالعودة بالعربة الى البيت ، فعاد بها . وبقي عزيز واقفا بجواده وقد ذهل لحبوط مسعاه ، فلما عاد الى صوابه ، اخذ يعزي نفسه بأن فدوى لم تخاطبه حذرا من بخيت لئلا يطلع أباها على ذلك .

والواقع انها عنفت بخيتا لاطالة الكلام معه الى ذلك الحد ، فقال لها : «يا سيدتي انه ثقيل يؤمل ما يقصر عن نيله ولا يراه حتى في الحلم، وقد خيل اليه ان لباس الجندية يرفع قدره في عيون الناس ، ولم يفطن الى ان المرء بأصغريه لا ببرديه ، ولكن مهلا يا سيدتي فسأريه ما لم يره عمره ، ولولا حرمة وجودك لأذقته الهوان» .

فقالت : «ألا تعلم ان لرجال الجيش هذه الايام شأنا عظيما ، ولهم الامر والنهي ، وأخشى اذا علم ابي بالامر ان يلومنا ، فالاعراض التام عن

ذلك الوقح كان افضل وأسلم» .

فقال : «لا ريب ان نيل رجال الجيش ما طلبوه يوم حادثة عابدين يعد فوزا تاما ، ولكن عرابي اخذ بعد سفره بآلايه الى رأس الــوادي يبث مبادئه بين مشايخ عربان الشرقية وغيرهم ، ويحثهم على الاتحــاد والتحالف . وهذا ما أوجب حذر حكومتي انجلترا وفرنسا . وقـــد علمت انهما بعثتا الى الخديو تبديان استعدادهما للمساعدة في كل ما يؤول الى تأييد سلطة سموه» .

فقالت فدوى : «وما الذي أوجب تدخل هاتين الدولتين في مصالح البــلاد ؟ »

قال : «لان لهما على هذه الديار دينا ، فمحافظتهما عليها محافظه على حقوقهما » .

ولما وصلت بهما العربة الى المنزل اوصت فدوى بخيتا بأن يكتم الامر عن ابيها ، فقال : «سمعا وطاعة» .

* * *

عاد عزيز بصفقة المغبون ، وقد ازدادت هواجسه وأضناه حبه لفدوى وحسده لشفيق ، فرأى ان يسعى للانتقام من بخيت حتى لا يكون عثرة في سبيل تقربه من فدوى . وفيما هو يفكر في ذلك صدرت له الاوامر بالشخوص مع ضباط آخرين الى الاسكندرية ، فصعب عليه الامر وأحس بثقل الخدمة العسكرية التي لا مرد لاوامرها ، فسار الى الاسكندريــة تاركا قلبه في العاصمة .

ووقع الخلاف على أثر ذلك بين مجلس النواب والوزارة ، ثم اشتد الخلاف حتى أدى الى استقالة الوزارة وتأليف وزارة جديدة برياســة محمود سامي البارودي ، وتقلد احمد عرابي نظارة الجهادية فيها مع منحه

رتبة لواء فصار باشا منذ ذلك الحين . وبهذا ارتفعت منزلة الحـــزب العسكري واستفحل امره .

ثم أجريت حركة تنقلات في الآلايات ، فجاء الآلاي الذي فيه عزيز الى القاهرة ، وسعى عرابي في ترقية بعض الضباط فكان من بينهم عزيز ورقي الى رتبة يوزباشي ، ولا تسل عن اعجابه بهذه الترقية ولاسيما بعد ان استفحل امر العسكريين وأصبحت أزمة الاحكام في ايديهم ، ممـا أدى الى خوف الدول الاوربية على مصالحها بمصر فاتحدت دولتا انجلترا وفرنسا وقدمتا للحكومة الخديوية مذكرة طلبتا فيها اقالة الوزارة وابعاد عرابي ورفقائه زعماء الثورة مع حفظ نياشينهم ورتبهم وألقابهم .

ولم تجد الوزارة بدا من الاستقالة ، وكانت ذوارع الدولتين راسية حينئذ في ميناء الاسكندرية ، فاستقالت في يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ . ولكن العرابيين لم يقبلوا هذا وما لبثوا قليلا حتى أعادوا الوزارة بالقوة، وأخذ عرابي باشا يتابع ارسال المنشورات الى قناصل الدول الاجنبية ، ضامنا فيها حفظ الامن والسلام .

وفي ١١ يونيو من تلك السنة قامت في الاسكندرية فتنة قتل فيها كثير من الوطنيين والافرنج ، فصدرت الاوامر من الحكومات الاجنبية الى رعاياها بالمهاجرة من مصر حالا ، في مراكب أعدت لذلك على نفقة تلك الحكومات . وكان سرور عزيز بهذه المهاجرة عظيما ، لان والدي شفيق كان من رعايا انجلترا ، فلا بد من سفرهما ، وبذلك تضطر فدوى الى الاذعان لرغبته .

وذهلت فدوى حين علمت بأمر تلك المنشورات ، وخلت الى بخيت وقالت له : «ان والدي شفيق مسافران من هذه الديار ، فما تكون حالي اذا اضطر البعاد شفيقا الى اهمال العلائق والمودة بيننا ؟» . ثم تنهدت من كبد حري وتأوهت ، وأخذت في البكاء .

فلما شاهد بخيت هذا المنظر لم يتمالك عن البكاء ، لكنه تجلد وقال لها : «خففي من اضطرابك يا سيدتي فليس الامر على ما تتوهمين ، واز شفيقا قد خصه الله بأرق العواطف ، ومن كان مثله لا ينكث عهدا» .

فلما سمعت اسم محبوبها رفعت رأسها كأنها هبت من رقاد عميق ، وخجلت من نفسها ، فقال لها بخيت : «أين تظنين والدي شفيق يتوجهان ؟» . فقالت : «قد فهمت من والدته انهما سيذهبان الى لندن لان شفيقا هناك» .

فصمت بخيت مفكرا ثم قال : «وما المانع يا سيدتي من ان تكتبي اليه مبدية رغبتك في الاطلاع على أحواله . فعسى ان تكون النتيجة على خلاف ما تظنين ، وما الامر الا لله ؟»

فقالت : «أخشى ان تحمله كتابتي اليه على المخاطرة بنفسه فيجيء الى هنا والبلاد على ما تعلم من الهياج والاضطراب ، فأكون قد جنيت عليه وعلى نفسي» .

فقال : «ارى الافضل ان تستطلعي رأي والدته» . فاستصوبت رأيه وأرسلته اليها لتحديد وقت يسكنها الاجتماع بها فيه .

ولما اجتمعتا ودار الحديث بينهما ، ادركت سعدى غرضها من الاجتماع ، فذكرت لها ان الاسطولين الانجليزي والفرنسي في ميناء الاسكندرية منذ ايام ، ولكنهما لا يعملان شيئا الا اذا رأيا خطرا على حياة الخديو ، فحينئذ يستخدمان لحمايته القوة ولو كلفهما ذلك هدم ثغر الاسكندرية وخراب مصر كلها . ثم تطرقت من ذلك الى حديث السفر فقالت : «اما نحن فقد عزمنا على المهاجرة خوفا من الخطر على حياتنا وان لم نكن من الاجانب ، والاغلب ان نسافر الى لندن حيث شاهد شفيقا» .

فأجهشت فدوى بالبكاء وأطرقت حياء وظهر اضطرابها جليا رغم

محاولتها اخفاءه فضمتها سعدى الى صدرها وقبلتها والدموع ملء عينيها، ثم قالت لها : «خففي عنك يا ابنتي ، ان الذي فرقكما قادر علــــى ان يجمعكما في وقت قريب» .

فقالت لها فدوى : «اعذريني يا سيدتي لما ظهر من اضطرابي فقــد غلبت على عواطفي» .

وفيما هما في ذلك جاء بخيت ملهوفا وقال : «ان سيدي الباشا قد بعث الينا بالاسراع الى البيت ، لانه تلقى من عرابي باشا امرا بالذهاب الى الاسكندرية حالا ، ولا بد له قبل ذهابه من مشاهدتك» .

فنهضت فدوى وودعت سعدى ، فسألتها هذه : «هل لديك رسالة او خبر لشفيق ؟» . فخجلت فدوى اول الامر ، ثم تجلــــدت وقالت : «بلغيه ما تشائين من السلام ، واذا اردت ان تكتبي الي حين وصولك فليكن الكتاب باسم بخيت وهو يوصله الي» . ثم ودعتها ثانية وخرجت محاولة اخفاء اضطرابها لئلا يلاحظ عليها ابوها شيئا ، على انها لــــم تستطع وما وصلت الى البيت حتى لحظ ابوها أثر الدمع في عينها وسألها عن السبب فقالت له : «لما علمت امر سفرك في هذا الاضطـــــراب السياسي لم استطع امساك الدمع» . فطيب خاطرها وهون عليها وقال لها: «أني مسافر اذعانا لامر رئيس الحزب العسكري ، وليس في الامر ما يدعو الى غير الاطمئنان ، وسأوصي بخيتا بكما وبكل من في القصر» . ثم ودع الجميع وسافر الى الاسكندرية بالقطار .

وكان سبب سفره ان عزيزا بعد تحققه قرب مهاجرة والدي شفيق ، اخذ يسعى في ابعاده هو ايضا ليخلو له الجو ويرغم فدوى على قبول طلبه ، فوشى به الى عرابي زاعما ان هناك خطرا في بقائه بالقاهرة بعد سفر الجند الى الاسكندرية لشدة رغبته في مخابرة الاجانب ، فأصدر اليه عرابي امرا بأن يسير الى الاسكندرية في اسرع وقت !

وتمكن عزيز من البقاء بعد ذلك في القاهرة لعله يحصل على فدوى اثناء الانقلاب السياسي . وكانت هذه قد كاشفت بخيتا بأنها تخشى اعتداء بعض الجنود على المنزل بدسيسة من عزيز ، فلم يستبعد ذلك ولكنه أكد لها انه غير ممكن ليدخل الى قلبها الاطمئنان .

* * *

جلست فدوى في غرفتها في ذات يوم من ايام شهر يوليو سنة ١٨٨٢ تفكر فيما هي فيه ، وكانت والدتها في غرفة اخرى مشغولة ببعض الشؤون ، فسمعت فدوى قرع جرس الدار ، ثم جاءها احد الخدم يقول: «ان دليلة الدلالة بالباب» . فأذنت في ادخالها ، ثم رحبت بها وأجلستها، وأخذت تتفرج على ما معها من السلع ، ثم دار الحديث حول شؤون مختلفة الى ان قالت دليلة : «ان جنودنا سيغلبون جنود الفرنجة ، لان البوارج لا تزال في مياه الاسكندرية تنتظر عقد المؤتمر في الاستانة ، ولكن مولانا السلطان غير راض بعقده» .

فقالت فدوى : «وماذا تظنين ان تكون نتيجة هذه الاعمال ؟»

قالت : «النتيجة ان تتحرر البلاد من العنصر الاجنبي فتبقى مصالح الحكومة في أيدي ابناء الوطن ، وسيتم كل ذلك بهمة الجهادية المصرية التي ألبستنا المجد والفخر فنطلب الى الله ان يؤيدها بالنصر ويكلل اعمالها بالنجاح» .

فقالت فدوى : «كل شيء بيد الله» . قالت هذا وعادت الى تقليب ما امامها من السلع . فأخرجت الدلالة العجوز من جيبها علبة صغيرة فتحتها فاذا فيها خاتم من الذهب ، وقدمته لها ووضعته في بنصرها بدعوى تجربة اتساعه ، فلما تأملته فدوى لمحت على فصه نقشا فقرأته فاذا فيه «تذكار عزيز» . فنزعته حالا من يدها وقد احمر وجهها وبدت عليها علائم الكدر،

ثم رمت به اليها قائلة : «خذي خاتمك وأقصري» •

فقهقهت دليلة وقالت مظهرة المزاح : «ماذا اغضبك يا ابنتي ؟» •

قالت : «لم يغضبني شيء ولكنني فهمت ان الخاتم ليس للبيع ولكنه تذكار» • قالت : «وماذا يمنع ان تقبليه على انه تذكار ؟»

فقاطعتها فدوى قائلة : «اقصري يا دليلة ، واعلمي ان مثلنا لا يقبل تذكارا من ابناء الازقة ، فخذي تذكارك وأرجعيه الى اهله !»

فنظرت اليها مستعطفة وقالت : «لا تحكمي يا سيدتي قبل معرفة القضيـــة » •

فقالت وقد اخذ التأثر منها مأخذا عظيما : «لا حاجة بي الى اطالة الكلام ، فاذهبي من حيث اتيت » • ثم تركتها وتحولت عنها فخرجت العجوز لا تلوي على شيء •

وبعد قليل جاء بخيت فأطلعته فدوى على ما كان ، فقال لها : «لا يزال هذا اللئيم على غيه فلعنة الله على دهر يستنسر فيه البغاث» •

* * *

لبثت سعدى بعد انصراف فدوى تفكر في امرها وفيما زينها الله به من رقة العواطف ودقة الاحساس وكمال الذات ولطيـــف الصفات • فازدادت محبة لها وتحققت سعادة ابنها اذا هو حصل عليها • ولم يكن زوجها ابراهيم قد اطلع على شيء من امر فدوى وشفيق ، فلما صدرت الاوامر بمهاجرة الرعايا الاجانب ، أوصى سعدى بالتأهب للسفر الــى مدينة لندن لمشاهدة شفيق ، وشرعا في اعداد الامتعة السهلة الحمـــل ووضعها في السناديق لارسالها بالسكة الحديديـــة الى الاسكندرية ، وفيما هما في ذلك وقع نظري على الصندوق المعهود فخفق قلبها وتاقت الى استطلاع ما فيه فقالت لزوجها : «اننا مسافرون على بركة الرحمن،

ولا ندري ما نصيب في سفرنا هذا من خير او شر ، فأرغب اليك في ان تطلعني على حكاية هذا الصندوق » .

فوجم ابراهيم ثم قال : «اما أطلاعك على تلك الحكاية فقد ذكرت لك انه لم يجـيء ميقاته ، ولكن ..» . وسكت مفكرا ، ثم عـاود الحديث فقال : «ولكني من جهة اخرى اخاف ان أصاب بسوء فـي سفري هذا فينمحي خبر هذه الضغيرة من العالم اذ لا يعلم امرها الا انا فأمهليني ريثما اعود اليك» . قال ذلك ودخل غرفته وأغلق بابها وامرأته تنتظره خارجا وهي لا تدري ماذا يفعل .

وبعد ساعة خرج مكفهر الوجه وفي يده ورقة مختومة فاقترب مـن سعدى وأمسك يدها قائلا : «اقسمي لي بمحبة ولدنا الوحيد شفيق انك تحافظين على ما اقوله لك في شأن هذه الورقة» . فلما اقسمت قال لها: «اليك هذه البطاقة المختومة على ألا تفضيها الا اذا اصابني ضر فـي سفرنا هذا او بعده ، فعند ذلك تفضينها وتطلعين على ما فيها ، وأرغب اليك العمل بمقتضاها والحرص عليها» .

فتناولتها وهي ترتجف تأثراً وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، ثـم قالت : «لا اراني الله فيك مكروها» . وجعلت البطاقة في جيبها ريثما تختار لها مكانا اخر امينا تجعلها فيه .

ومضى الليل وهما يعدان معدات السفر ، وكان خادمهما اكثر اهتماما منهما لانه اشتاق الى سيده شفيق ، وكان يحبه حبا مفرطا . وفيما هو يهيىء الامتعة قال له ابراهيم : «هل انت مسرور بالذهاب معنا يا احمد؟» فتأدب الخادم امامه وقال : «كيف لا وأنا مشتاق الى رؤية سيدي شفيق، ويعلم الله اني لا انسى كرم اخلاقه أبد الدهر ، وقد شكرت اللـه لوجوده هذه المدة في بلاد الانجليز حرصا على حياته» .

فقال ابراهيم : «أتعني انه نجا من مخالب الثورة العرابية ؟»

قال : «كلا يا سيدي ، ان ذلك ليس محل خوفي ، ولكنني كنت اخاف عليه من دسائس احد اصدقائه الذي رافقه الى الاسكندرية» . قال ذلك وهو يحرق اسنانه غيظا .

فقال ابراهيم : «ماذا تعني ومن هو صديقه هذا ؟»

قال : «هو عزيز الذي تعرفه ، ولقد كنت مشفقا على سيدي شفيق من كيده ومكره ، فلما علمت بمرافقته اياه الى الاسكندرية لم يهدأ لي بال حتى رافقتهما متنكرا الى الاسكندرية ولم أرجع حتى ركب سيدي الباخرة على مرأى مني» .

فعجب ابراهيم وقال : «انك كثير الوساوس يا احمد ، وما الذي نخشاه على شفيق من هذا الشاب وهو أعز اصدقائه ؟»

قال : «ربما كنت غير مصيب ، ولكن قوة خفية دفعتني الى ذلك» . قال ذلك وعاد الى ترتيب الامتعة وحزمها واستمر في ذلك طول الليل .

* * *

لبثت فدوى بعد سفر والدي شفيق على مثل الجمر وهي تنتظر كتابا من سعدى . وبعد ثلاثة اسابيع اخذ بخيت كتابا باسمه ففضه فاذا طيه اخر باسم فدوى فلما تناولته اختلج قلبها فرحا وارتعشت يداها حتى لم تقو على فضه ، فدخلت غرفتها وأغلقت بابها حذرا من الرقباء ، ثم قعدت على متكأ هناك وفضت الكتاب بيدين ترتعشان فرحا فاذا فيه :

«من لندن شارع أوكسفورد رقم ٥٦ . الى القاهرة في ٥ يوليو سنة ١٨٨٢ .

«عزيزتي فدوى . وعدتك بأن أكتب اليك حال وصولي الى هذه الديار بما يكون بعد مشاهدتي ولدي شفيقا ، ولكنني اخبرك وأنا اكاد اغيب عن الصواب بأنه قد مر علينا ثلاثة ايام من يوم وصولنا ونحن

نبحث عنه في سائر انحاء انجلترا فلم نقف له على اثر ، وقد اخبرنـا صاحب المنزل الذي كان ساكنا فيه بأنه خرج صباح يوم من ايـــام الاسبوع الماضي ولم يعد ، وما زلنا ساعين في البحث عنه ولم نظفر به . فاذا عرفت عنه شيئا فأبرقي الينا بذلك مشكورة بالعنوان المثبت في اعلى هذا الكتاب ، وسنخبرك بما يتم والسلام .. سعدى» .

وما كادت فدوى تنتهي من قراءة الكتاب حتى خارت قواها وارتعدت فرائصها ، ثم صرخت وانكبت على الارض مغشيا عليها ، وسمع بخيت صوتها فسارع اليها وقد أذهله الامر ، وأخذ يرشها بالماء حتى افاقت فأخذ يسألها السبب وهي لا تعي شيئا وتواصل نوحها فبحث عن الكتاب حتى رآه فلما اطلع عليه لم يتمالك عن البكاء ، لكنه اخفى اضطرابـه وأقبل عليها مخففا من اضطرابها وهي تصعد الزفرات فقال لها : «اصبري يا مولاتي عسى الله ان يمن بالفرج ، واكتمي ما بك لئلا ينكشف الامر فان سيدتي والدتك لا تلبث ان تأتي» .

وأمرت فدوى بخيتا بأن يأتيها بدواة وقرطاس وجلست الى منضدة وكتبت لسعدى ردا على كتابها قالت فيه :

«من القاهرة في ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢ .. الى لندن .

«سيدتي المحترمة . قرأت كتابك بدموع الحزن والاسف ، وقلب يتقلب على نار الجزع كأن الدهر قد ندم على ما وهب فحملني ما لا استطيع عليه صبرا . اما انت ابنتها الوالدة فلا أذاقك الله لوعة ولا سقاك حسرة فان نبأ اختفاء شفيق اورثني من القلق ما لم أذق مثله ومـن اللوعة ما لم أكابده ، فلا غرو اذا انفطر له قلبك وسح دمعك وتفتت كبدك وأنت والدته .

«على اني آملة في مراحم الله انه لا يخيب امل والدة حنون وصديقة مخلصة ، وهو الذي أذن بما كان وله القدرة على جبر قلوبنا ، وحاشاه

ان يأذن بهلاكنا حسرة ولهفا . على اني اسألك ان تعلميني تلغرافيا بما تعلمين عنه . واذا عرفت عنه شيئا فسأعلمك به . اعذريني على التمادي في مكاشفتك عواطفي اذ ليس لدي من أكاشفه سواك ، وأختم الكتاب بتقبيل يديك ودمت سالمة لولدك .. فدوى» .

وبعد ان أتمت قراءة الكتاب ختمته وعنونته وسلمته لبخيت ليضعه في صندوق البريد ؛ وعادت الى البكاء فقال لها بخيت : «لا تقنطي من رحمة ربك ، ان لندن مدينة عظيمة تحتوي على زهاء خمسة ملايين من الناس فلا بدع اذا اختفى شفيق عن اهله فيها بضعة ايام» .

وبقيت فدوى قلقة الى ان كان الاصيل فقال لها بخيت : «هل لك يا سيدتي ان تركبي العربة للنزهة فتفرجي كربك» .

فامتنعت اولا ثم رأت في ذلك اخفاء لقلقها وجزعها عن والدتها فأرسلت اليها بخيتا ليخبرها بذهابها للنزهة ، ثم ركبت معه العربة وخرجا .

- ٧ -

ضرب الاسكندرية

مرت فدوى في عربتها بجهات الازبكية ، واذا الناس في هرج يتحدثون ويتساءلون ويتسارون ، والجنود يخطرون في الطرق مرحا ورؤوسهم تكاد تدرك السحاب عجبا وتيها . فأوقف بخيت المركبة وسأل بعض المارة فقيل له : «ان بعض المهاجرين قدموا من الاسكندرية

وأخبروا بأن الاسطول الانجليزي أطلق مدافعه على حصونها فهدمها ، ثم أنزل العساكر اليها واحتلها ففر العرابيون الى كفر الدوار ليتحصنـــوا ويستعدوا لملاقاة العدو بعد ان احرقوا الاسكندرية اما جند القاهرة فلم يصدقوا الخبر لان جرائدهم كالطائف والمفيد كانت تذكره بعكس ذلك تشجيعا لهم • ولذلك كانوا يمرحون في الاسواق اعجابـــا بالنصر • ولاسيما الذين هاجروا من الاسكندرية فرارا من الانجليز فانهم كانوا يتحرشون بالمارة من الغرباء ويوقعون بهم كل سوء حتـــى صاروا لا يخرجون الى الاسواق الا متنكرين بزي الوطنيين حرصا على حياتهم . وقد شكا اهل القاهرة اضابطها من تصرف جالية الاسكندرية فبـــذل قصارى الجهد لملافاة تلك الاعتداءات» •

كما علم بخيت ان جماعة من المشايخ طافوا بالشوارع وعلى صدورهم مآزر ملونة وبأيديهم مباخر وهم يهتفون داعين لعرابي وحزبه وحبوط مساعي الافرنج •

فعاد بخيت الى سيدته بهذه الانباء ، وأشار عليها بالعوده الى المنزل فقبلت مشورته ، وكانت والدتها في انتظارها فحيتها وأبلغتها ما سمعته عن ثورة الاسكندرية وهي ترتعد من الخوف . فلما سمعت والدتها ذلك امتقع لونها ثم قالت : «ما العمل الان ؟•• طالما رغبت الى ابيك ان يهاجر من مصر الى دمشق الشام فنقيم بها عند اهلي حتى تسكـــن الاحوال هنا ، ولكنه ابى الا البقاء • وها قد ذهب الان الى الاسكندرية فلا ندري ما حدث له !»

فقالت فدوى : «لعله تمنع خوفا على املاكه من الضياع مدة هذه التقلبات ولا اخاله ظن الثورة تبلغ هذا المبلغ ، اما ذهابنا الى الشام فما احلاه لو كان لاني شديدة الميل الى مشاهدة مسقط رأسك ومقر اهلك فقد بلغت هذا المبلغ من العمر ولم يسعدني الحظ برؤيتهم» •

فتنهدت والدتها وخنقتها العبرات ، فلما رأتها فدوى على هذه الحال اضطرب فؤادها وظنت هذا التأثر خوفا على ابيها من مذبحة الاسكندرية فأخذت تهون عليها لتسكن اضطرابها ، وأخبرتها بدخول الانجليز الى الاسكندرية وان الجميع في سلام وطمأنينة.

فرفعت نظرها الى فدوى وقالت : «لم يكن اضطرابي كله يا حبيبتي على والدك اذ لا خوف عليه باذن الله لانه معروف من زعماء الثورة ، وانما تأوهي لذكرى حضرتني بتذكر الوطن» .

فقالت فدوى : «ما هي هذه الذكرى يا والدتي» .

فقالت : «تذكرت ضياع اخ لي منذ ١٩ سنة اثناء الحادثة المشؤومة التي حدثت في دمشق سنة ١٨٦٠ ولم اكن قد عرفت أباك بعد» .

فقالت : «كيف ذلك يا أماه ؛ وهل لم تقفوا على خبره بعد» .

فقالت : «اعلمي يا ابنتي انني من عائلة معروفة في دمشق . وكان لي اخ غض الشباب حسن السيرة ، شهم شجاع ، وكنا نعيش في بسطة ورغد في كنف والدينا ، حتى كانت سنة ١٨٦٠ فجرت ثورة في دمشق قام فيها فتيان المسلمين على النصارى فحصلت مذبحة هائلة دارت فيها الدائرة على النصارى . وكان خالك في جملة اولئك الفتيان فخرج صباح يوم في جملة من خرج للقتل والفتك ولم نعد نراه او نسمع عنه شيئا واحسرتاه. وبقيت وحدي مع والدي جديك ؛ وفي السنة التالية للمذبحة جاء أبوك الى دمشق فتعرف الى ابي وخطبني ثم تزوجنا وجئت معه الى مصر» .

فلما سمعت فدوى كلام امها عن فقد اخيها ، تذكرت فقد شفيق فلم تتمالك عن البكاء ، وقالت في نفسها : «ترى كيف حال والديه ؟» . ثم خشيت ان تلحظ امها شيئا من اضطرابها فسألتها قائلة : «كيف استطعت الصبر يا أماه على بعد والديك كل هذه المدة ، مع قصر المسافة بين مصر وسورية ، اذ ان قطعها لا يحتاج الى اكثر من ايام ؟»

فتأوهت والدتها من كبد حرى وقالت : «اطلب الى الله ان يمن علينا باللقاء لترى جديك العزيزين» .

★ ★ ★

ما برح عزيز يزداد هياما بفدوى رغم الاهانة التي لحقته من بخيت في شارع العباسية وقد رأى ان ينتقم لنفسه فيستعمل ما لديه من الوسائط السافلة لاستطلاع اسرار خصمه ويتخذها سلاحا يذلله بها ، فذهب الى المفتش الذي اقامه العرابيون في مصلحة البريد لمراقبة الرسائل المتبادلة بين أعيان البلاد ورجال حكومتها وأوصاه بأن يطلعه على كل كتاب يرسل الى شفيق او أبويه في انجلترا ، بدعوى ان عرابي باشا يريد ذلك .

ثم اقام على فدوى رقباء لينبئوه متى خرجت من بيتها . ليسعى الى اكتسابها بأية طريقة ، كما قصد الى صديقته دليلة وعرض عليها الامر فقالت له : «لا اظن ان فدوى تفضل سواك ، فأنت شاب غني بالمال والجاه وقد حصلت على أشرف مناصب الحكومة ، ولكنك لا تعرف من اين تؤكل الكتف ، فالجنس اللطيف يؤخذ بالملاطفة وليس بالعنف . فطب نفسا يا ولدي وقر عينا ، واذا هي أصرت على عنادها فأنا كفيلة بحصولك عليها بأية وسيلة» .

فشكرها وقال : «لكني اخشى ان يصدر الامر بسفري الى الاسكندرية بغتة ، فماذا اصنع ؟»

قالت : «ان الاسكندرية الآن في خطر عظيم اذ تهددها دوارع انجلترا وفرنسا ، كما ان ذهابك اليها يعرقل مساعينا في شأن فدوى» .

قال : «ما كل ما يتمنى المرء يدركه . وكنت قد عولت حين انتظامي في سلك العسكرية على ان أستعفي من الخدمة اذا شعرت باقتراب

الخطر ، ولكني ارتقيت فيها وصرت عظيما فـي أعين الناس ، والقوانين العسكرية لا تجيز الاستعفاء وقت الحرب فلا بد لي من البقاء ومتى انتهت مهمتي عدت الى القاهرة لاستئناف مساعينا» .

***

ذهبت دليلة كعادتها صباح كل يوم الى بيت عزيز فرأته يخطر في غرفته ذهابا وايابا وفي يده رسالة ينظر اليها وسمات الاضطراب بادية على وجهه . فلما رآها رحب بها ثم مد يده اليها بتلك الرسالة وقال : «هل تعلمين ممن هذا الكتاب ؟ انه من فدوى الى والدة شفيق» .

فسألته : «وماذا فيه ؟» . قال : «فيه كل خير ، فقد اختفى حبيبها شفيق من لندن ، ولم يعثر والداه على اي اثر له !»

فقالت : «هذه خطوة كبيرة في سبيل تحقيق آمالنا ، وحبذا لو اطلعت أباها على هذه الرسالة فيتحقق محبتك له وغيرتك على شرف ابنته فيزداد بك ثقة ، ومتى اظهرت له بعدئذ ميلك الى مصاهرته فانه لا يتردد في اجابة طلبك ، واذا فرضنا انها لم تقبل فانه يجبرها على القبول لانه غيور كما تعلم» .

فلما سمع عزيز كلام العجوز اخذته هزة الطرب وقال : «لا أشك في ان الباشا يرغب كثيرا في مصاهرتي ، لكنني كنت اخشى ان ترفض هي فأرجع بصفقة المغبون ، اما الان وقد وقعت في الشرك فما اظن انها تستطيع رفض امر ابيها ولاسيما بعد ان انكشف له ما بينها وبين شفيق» .

وفيما هما في الحديث ، اتاه الخادم بكتاب ففضه فاذا هو من أركان حرب عرابي يطلبون اليه فيه ان يعد عددا من الخيل ومقدارا من المؤونة مساعدة للجيش ويقدمها في اقرب وقت ، ثم يسافر الى الاسكندرية . فلما قرأ الكتاب تغيرت ملامح وجهه فقطب جبينه وجلس على مقعد

امامه معتمدا رأسه بيده كأنه وقع في امر عظيم ، فسألته العجوز عما به فلم يجبها اولا ، ثم أعلمها بالامر ، فهونته عليه وقالت : «ان اوامر العسكرية لا مرد لها ولاسيما في مثل هذه الاحوال ، فسافر الى الاسكندرية واعتمد علي في مراقبة حركات فدوى واستجلاب رضاها».

وفي اليوم التالي سافر عزيز قاصدا الاسكندرية فلما وصل الى كفر الدوار علم ان عرابي لا يلبث ان يأتيها بجنده من ضواحي الاسكندرية ليتحصن فيها ويستعد للدفاع . فخاف ان يلتحم الجيشان هناك فيصيبه سوء وتبادر الى ذهنه ان هذا سيعود بالنفع على شفيق ان كان لا يزال حيا فسول له حسده ان يبحث عن مكان ابي فدوى ويرسل اليه كتابها الى أم شفيق ليهيج فيه عاطفة الانتقام ويعرقل مساعي شفيق، وعلم بالبحث انه لا يزال في الاسكندرية . ثم ورد امر من الخديو الى عرابي في كفر الدوار يستقدمه الى الاسكندرية . ويأمره بالكف عن الاعمال الحربية وحشد الجند لان الجنرال سيمور اميرالاي العمارة الانجليزية قد صرح باستعداده للجلاء عن الاسكندرية اذا تحقق وقف الاستعدادات الحربية . فسر عزيز بذلك لانه يمكنه من السفر الى الاسكندرية . ولكن عرابي لم يذعن لذلك الامر وكتب الى وكيل الجهادية في القاهرة يخبره بما حدث . فجمع هذا أعيان العاصمة ورجال حكومتها ، وبعد المفاوضة أقروا وجوب المثابرة على الاعمال الحربية وبعثوا لجنة مؤلفة من ستة مندوبين لمخاطبة الجناب العالي في ذلك فسارت اللجنة من القاهرة ومرت على اعرابي في كفر الدوار لاخباره بمهمتها . فرأى عزيز ان يسافر معها الى الاسكندرية ولاسيما ان السكك الحديدية في مصر كانت بعد ضرب الاسكندرية لا تسير قطراتها الا بأمر العرابيين . واستطاع عزيز ان يحصل على الاذن له في ذلك .

ولما بلغ الاسكندرية ذهل لما حل بتلك المدينة العظيمة من الدمار على

اثر الحريق الذي ذهب بأعظم مبانيها ، وأحال حي المنشية آكاما من الاتربة والاحجار . وكان الدخان لا يزال يتصاعد منها ، وحوانيتها العظيمة التي كانت ملأى بالاقمشة والملابس والحلي والمجوهرات ذهبت طعاما للنـار والنهب ، فتعجب عزيز لهذا الانقلاب السريع وكان لا يشاهد اثناء مسيره من المارة الا أزواجا من الشرطة الانجليز ، بعضهم خيالة وبعضهم مشاة وكلهم بالسلاح الكامل يطوفون بالبلد حفظا للامن .

واهتدى اخيرا الى المنزل الذي يسكنه الباشا ابو فدوى ، لكنه ما كاد يهم بالدخول حتى احاط به نفر من الجنود الانجليز وأمسكوا به . وكانوا آتين للقبض على الباشا لاتهامه بأنه من العصاة المختبئين . فلما رأوا عزيزا بلباس الجند المصري ظنوه قادما بدسيسة من عرابي وأتباعه الى الباشا فقبضوا عليهما وساقوهما موثقين الى المحافظة بعد ان ضبطوا ما وجدوه معهما من الاوراق .

وفي الطريق لمح الباشا عزيزا فعرفه وظن انه الواشي به ، اما عزيز فكان يلعن الساعة التي اتى فيها الاسكندرية ويندب سوء بخته وقد اكفهر لونه واصطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه حتى كاد يقع من شدة الخوف . ولم يكن الباشا أقل منه اضطرابا .

وفيما هما سائران مع الجند في ساحة المنشية تصدى لهم ضابـط انجليزي فأوقف الجند وتأمل الرجلين الموثقين . ثم خاطب الجند باللغة الانجليزية فتركوهما له وسلموه ملف الاوراق وانصرفوا . بينما اشار هو اليهما ان يتبعاه ، فسارا معه حتى خرج بهما من شوارع البلدة الى جهة المسلة فأدخلهما بيتا في منعطف هناك وأغلق الباب . فتحقق لديهما دنو الاجل وانهما لا محالة مسوقان الى القتل ، على ان الضابـــط الانجليزي ما لبث ان رفع قبعته وخاطبهما باللغة العربية قائلا : «السلام عليكم» .. فذهل كلاهما لهذه المفاجأة وتأملاه فخيل اليهما انهما يعرفانه.

ثم عرفه عزيز فألقى بنفسه عليه قائلا : «شفيق •• اخي شفيق •• مـــا أسعد هذه المصادفة !»

وسأله الباشا : «أأنت مصري يا سيدي ؟» • فقال : «نعم وقد رأيتكما في خطر فسعيت الى انقاذكما من مخالب الموت» •

فقال الباشا : «اننا مدينان لك بحياتنا ايها الشهم الباسل ، فاطلب الينا ما تشاء لعلنا نفي ببعض الواجب علينا» •

فقال شفيق : «حسبي مكافأة ان قدر لي الله انقاذكما من الموت او الاهانة» • ثم حل وثاقهما ودعاهما الى الاستراحة ودخل هو الى غرفة اخرى وفض ملف الورق ليرى ما يحتويه فعثر بالكتاب المرسل من فدوى الى والدته • فما قرأه حتى هاجت عواطفه وأخذته رجفة الحب ولم يقو على الوقوف فقعد على مقعد هناك وهو يكاد يغيب عن الوجود ، وصبر الى ان هدأت عواطفه فأرسل خادما عنده ان يدعو الرجلين الى حضرته، فلما حضرا أكرمهما ثم سألهما ما سبب وجود هذا الكتاب بين اوراقهما• فتدارك عزيز الامر وقال : «كان بين أوراقي ايها الحبيب» • واقترب منه وأشار اليه بأن يخلو اليه ليحدثه بالامر ، فلما انفردا بادأه عزيز بما فطر عليه من الدهاء والكذب قائلا : «ما برحت أذكر ايها العزيز ما تفرضه علي واجبات الصداقة والاخاء ، وقد سعيت الى ما وعدتك به من تسهيل امر اقترانك بفدوى ، فبقيت مدة أتردد الى بيت الباشا حتى تسنى لي ان أساعد بخيتا في ايصال كتبها لك الى البريد سرا لان أباها لم يكن يأذن لاحد في مخاطبتها غير بخيت ؛ وهذا لم يجرؤ على ايصال الخطابات الى البريد خوفا من اطلاع الباشا عليها فينتقم منه • اما انا فلم أخاطب الباشا بشيء من مقاصدك خوفا من انك لا تريد ذلك • وهذا الكتاب اعطاني اياه بخيتا لأوصله الى البريد ، ولما كانت ادارته الان بيد العرابيين • خشيت ألا يرسلوا الكتاب فأبقيته معي على ان اضعه في احد مكاتب

البريد الافرنجية ضمانا لارساله . ومما رغبني في المجيء ايضا الــــى الاسكندرية ان الباشا مقيم بها فاغتنمت الفرصة ، وجئت الى بيته فما بلغته حتى قبض الجند علي وعليه» .

فشكره شفيق وقبله قائلا : «لقد أوليتني فضلا عظيما ايها الصديق الحميم . فأراني مقصرا عن تأدية الشكر لك . غير اني ارجو من لطفك وقد قلدتني هذه المنة ان تعلمني عن حالة فدوى» .

قال : «هي على ما تريد من الكمال والجمال» . فأخذ شفيق كلامه مأخذ الاخلاص وظنه صادرا عن شعائر كريمة ومحبة صادقة ، ثم حول نظره الى حلة عزيز العسكرية وقال له : «اراك قد انتظمت في سلــــك الجندية» . فقص عزيز عليه حكاية انتظامه في الجيش وأدخل عليها ما شاء من الاكاذيب الملفقة ثم قال : «وأنت اراك لابسا ملابس الضبــاط الانجليز فكيف كان ذلك ؟»

فقال شفيق : «انني لما سمعت بالثورة العرابية وما اصاب الديــــار المصرية من اختلال الاحوال اشفقت على فدوى ان ينالها سوء . فتطوعت لمرافقة الحملة الانجليزية كي أشاهد الاهل والاحباب ولعلي استطيــــع خدمتهم ولاسيما فدوى . لان حبها شغل كل جوارحي . ولا يخفى عليك ان انتظامي في الجندية الانجليزية كان رابع المستحيلات لو لم أستخدم وسائط كثيرة وأكون ممن يعرفون اللغتين العربية والانجليزية فأقــوم احيانا مقام المترجم ولي أمل عظيم اذا نلت حظوة في عيني رئيسي ان أحصل على التعيين النهائي في الجيش فأغفل مهنة المحاماة . فما رأيك يا صديقي وهل أكاشف الباشا الان بحقيقة حبي لفدوى ام ..»

فقاطعه عزيز قائلا : «ارى الافضل ان تترك هذا الامر لي فأدبره بما تقتضيه الحكمة» .

فقال : «انني أشكر وفاءك وأتقدم اليك اذا رجعت الى العاصمــــة

قبلي ان تبلغها تحياتي وتخبرها بأني لا ازال على العهد وعما قليل اكون عندها وسأكتب لها في الغد» .

فقال عزيز : «ان خطابك قد لا يصل اليها بالبريد لاختلال الاحوال كما اخبرتك ، فاذا شئت فاني أنقل خطابك اليها . وحبذا او اعطيتني علامة منك» .

فقال شفيق : «لدي علامة لا احب ان يطلع عليها احد غيرك لانك عالم بما بيننا» . ثم اخرج الدبوس من جيبه وأراه لعزيز قائلا : «هذا الدبوس اخذته منها في حديقة قصر النزهة تذكارا للحب والولاء فاذا أريته لها فهو خير علامة» .

فأظهر عزيز استحسانه لهذا الاقتراح وشكر شفيقا على ثقته فيه .

ثم عادا الى الباشا ، ودفع شفيق الاوراق اليهما ونسي كتاب فدوى بينها وقال لهما : «اذا اردتما الذهاب فهاكما شعار الامان المصطلح عليه هنا . وهو كلمة (السلام) ..»

فخرج الاثنان ينفضان غبار الموت عن منكبيهما حتى انيا محبا الباشا وعزيز يعجب لهذا الاتفاق العجيب ويقول لنفسه : «آلا يزال على قيد الحياة فوالله اذا التحم الحرب لأسعين الى قتله» .

★ ★ ★

اثنى الباشا على عزيز اعتقادا منه انه نجا من الموت بواسطته ، فتسمخ هذا بأنفه وقال : «ان ما صنعه معنا هذا الرجل انما هو مكافأة على ما لي عليه من الصنع الجميل لكنني سررت لاتفاق وجودك معي» .

ثم نظر الى الباشا كمن تذكر امرا ذا بال وقال : «لدي امر ارجو ألا ثقل علي مسامع سيدي الباشا . ولا أزيدكم علما بغيرتي على شرفكم شرف كريمتكم ، وقد اتيت من القاهرة لهذه الغاية ، ولعل سعادتك

تذكر ليلة كنا في الملعب ولمحت لك بشيء عن وجوب العناية بأمر خروج فـدوى ؟ »

فقال الباشا : «نعم أذكر ذلك . فماذا عندك عن هذا الامر ؟»

قال : «علمت ان احد شبان العاصمة سعى الى اغوائها ، وهي لصفاء جوهرها وسلامة نيتها وقعت في شركه حتى انها علقت بحبه . ولما ظهرت الثورة العرابية سافر ذلك الشاب الى بلاد الانجليز وشرع يكاتبها من هناك حتى كاتبته . وقد وقع في يدي كتاب منها الى والدته فجئت به اليك لتعلم صدق خدمتي» .

ثم أحضر الاوراق وأخرج الكتاب المعهود وأعطاه اياه . ففضه وقرأه وما انتهى الى آخره حتى صار ينتفض من الغضب ويلعن ابنته ، فقاطعه عزيز وقال : «ان طيبة قلبها وحسن طويتها غشيا على بصرها ، ولا أكتمك اني معجب بخصالها الحميدة وقد تعلق قلبي بها لصفاء جوهرها وطيب عنصرها . فهل تريد ان تجعلني في مكان ذلك الغر الخائن فأكون لهـا بعلا ولك صهرا وعند ذلك تكون لي بمثابة ابي ، وتضع يدك على جميع أموالي ؟ »

فاستبشر الباشا ببلوغ مناه فقال له على الفور : «انك لتفضلها كثيرا وهي لا تستحق ان تكون لك زوجة . واني أعد قبولك الاقتران بها شرفا لها ولي » .

فقال عزيز : «العفو يا سيدي . انها مهما يكن من امرها لم تخرج عن الاصل الكريم والعنصر الشريف ، وأحسب نفسي سعيدا اذا عاهدتني على الاقتران بها» .

فقال : «قد وهبتها لك زوجة فبورك لك فيها» .

فابتهج عزيز لنجاح مسعاه ونسي بغضها له ونفورها منه وحبها شفيقا وائتلاف قلبيهما على حب صادق . ثم اتى الخادم يدعوهما للطعام فذهبا

وجلسا الى المائدة فقال الباشا : «ما أخبار جنودكم ؟» قال : «هــــم يتأهبون للدفاع في كفر الدوار» .

فقال الباشا : «انكم لم تحسنوا التصرف في الامر كما كان يجب ، ولقد كانت اعمال العرابيين اول الامر حسنة المظاهر كريمة الغاية . اما الان فأخشى ان ينجلي الامر عن ضرر يلحق بالبلاد» .

فقال عزيز : «اننا لم نطلب يا سعادة الباشا ألا مطالب عادلة تعود على الوطن بالنفع العميم» .

قال : «هب ان جميع مطالبكم عادلة . فكيف تريدون تنفيذها مرة واحدة في يوم واحد ؟ ان لله في عباده سنة لا محيد عنها ، والاصلاح مهما يكن بيننا لا يمكن ادخاله الا تدريجا ، وفضلا عن هذا فقد بالغتم في عقوق احسان ولي النعم الذي لم يظهر لكم من اعماله منذ اعتلى أريكة الخديوية الا كل حسن نافع ، فانه رجل مخلص لرعيته محب لمصلحتهم ساهر على خيرهم ، فكيف تقولون انه ساع الى بيع الوطن ؟»

فقال عزيز : «لم نقل ذلك الا بعد ان رأيناه يقبل تأليب الدول الاجنبية علينــا » .

فقال الباشا : «وماذا كان يصنع بعد ان ثارت القوة العسكرية عليه؟ وهل يخفى عليكم ان للحكومات الاجنبية مصلحة مادية في هذه البلاد، ومصلحته من مصلحتها ؟ ألا تذكر ما نقلته لي يوم حادثة عابدين عندما صرح قنصل انجلترا لعرابي بأن اصراره على عناده يحمل الدول الاجنبية على التدخل لاخماد الثورة ؟» ولقد صرحت الدولة الانجليزية بعد دخولها الاسكندرية بأنها سترجع عنها حالما تتحقق وقف حشد الجيوش والمظاهرات الحربية » .

فقال عزيز : «ان هذه الدولة تريد الاستيلاء على هذه البلاد» .

قال : «لا اظن ذلك صحيحا ، وقد علمت انها اقترحت ابعاد عرابي

وصحته قبل تفاقم الخطب مع بقاء رتبهم وألقابهم ورواتبهم فلم يقبل ، ولو قبل لانحلت المشكلة على اهون سبيل ، على انه اذا اصغى اليوم الى ما قيل له لانحلت المشكلة وعاد الجنود الانجليز من حيث اتوا ، اما اذا أصر على مراده فان ذلك يعود وبالا علينا» .

فقال عزيز : «لا يخفى على سعادتك اننا ندافع بأعمالنا هذه عن حقوق مولانا السلطان صاحب البلاد» .

قال : «ومن قال لك ذلك ؟ انك لا تلبث قليلا حتى تسمع بصدور المنشورات المؤذنة باعتبار عرابي عاصيا ، وها ان الجناب العالي قد صرح بعصيانه ونحن ليس لنا قدرة على مدافعة القوة الانجليزية» .

فقال عزيز : «اذا كان الجناب العالي يحب الرعية فلماذا يقبل نجدة الدول الاجنبية ؟»

قال الباشا : «قلت لك انه لا يمكنه غير ذلك ، ولا بد انه فعل هذا مضطرا ، فبمن كان يستنجد بعد ان انقلبت عليه القوة التي كان يستنجد بها وقت الحاجة ؟ وفيم كان حرقكم الاسكندرية ؟»

فقال عزيز : «ان حرقها لم يكن الا جريا على مقتضيات القوانين الحربية القاضية باتلاف ما يتحقق قرب وقوعه في يد العدو» .

فقال الباشا : «ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا . وحينئذ تتأكد صدق مقالي . والآن ما الذي اعتزمت ان تفعله ؟»

قال : «سأعود مع الوفد العرابي الى كفر الدوار ، ومن هناك أغتنم الفرصة لارجع الى القاهرة» .

فقال الباشا : «يلوح لي ان العرابيين طالما أصروا على الدفاع ومخالفة أوامر الخديو فالحرب لا تنتهي الا بعد زمن طويل ، فتطول اقامتك بكفر الدوار او في غيرها من النقط الحربية . اما انا فلست آمن الخطر في مرافقة الحزب العسكري ولاسيما بعد ان أبعدوني من القاهرة ، ولهذا

تراني قلقا على اهلي في مصر ، وأخشى ان ينال فدوى ووالدتها سوء وأنا بعيد عنهما» .

فقال عزيز : «اما خوفك على اهلك فلا أخالفك فيه ، واذا شئت فاني اسعى في سرعة انتقالي الى القاهرة ، ومتى صرت هناك أتعهد لك بالمحافظة على راحتهن ما استطعت ، غير اني اخشى ألا يثقن بي لعدم علمهن بموافقتك عليه ورغبتك فيه» .

فقال الباشا : «اني اعطيك كتابا مني» .

وفي صباح الغد سلمه كتابا منه الى امرأته قال فيه :

«بعد السلام . قد اضطرني بقائي في الاسكندرية وتعذر حضوري الان الى القاهرة وما اخشاه عليك وعلى ابنتنا فدوى اذا لا سمح الله حدث حادث في القاهرة ان أسأل ولدي عزيز أفندي ان يكون عندكم مشجعا لكم وقائما بمهامكم ، لانه من رجال الجيش ، وهو من أخص أحبائي . وقد تبرع كرما منه بالقيام بهذه المهمة . فينبغي ان تعتبريه كولدك واعتمدي عليه في كل مهمة ريثما احضر . والسلام» .

فتناول عزيز الكتاب ، ثم ودع الباشا وخرج الى حيث اجتمع برجال الوفد العرابي وعاد معهم الى كفر الدوار ، ثم الى القاهرة .

***

ظلت فدوى اسبوعين تنتظر رد كتابها الى والدة شفيق ، فلما يئست من وصول الرد استولى عليها القلق والحزن حتى لم تستطع طعاما ولا شرابا فخارت قواها وهزل جسمها واكفهر لون وجهها الابيض وكادت تغور عيناها في وجهها . ولم يكن لها مؤنس في خلوتها الا البكاء . على ان خادمها الامين كان لا ينفك يعزيها ويخفف كربها باحياء آمالها في المستقبل . ودخل غرفتها مرة فاذا هي مكبة على البكاء . فدنا منها وقال

يطيب خاطرها : «خففي عنك يا سيدتي ، ولا تيأسي فالله الذي جمع قلبيكما قادر على ان يجمع بينكما ، وقد تعاهدتما على حب طاهر مقدس تعززه الشهامة والشرف وتصونه عزة النفس وكرم الاخلاق فلن يخيب الله لكما املا» .

وفيما هما في ذلك اتت خادمة تدعو فدوى الى مقابلة والدتها فقال لها بخيت : «اغسلي وجهك يا سيدتي وأخفي اضطرابك لئلا تلحظ شيئا منه سيدتي والدتك» . فنهضت وهي لا تفتأ تائهة في احزانها فغسلت وجهها ، ثم شغلت نفسها بترتيب رياش غرفتها الى ان يزول اضطرابها . ولكن الخادمة عادت تقول لها : «ان سيدتي والدتك قلقة لتأخرك» . فمضت معها الى والدتها في قاعة الاستقبال ، فلما كادت تبلغ القاعة رأت ضابطا من ضباط الجيش يهم بالخروج منها ، فأجفلت لانها كانت بثياب البيت وانزوت حياء الى ان خرج . ثم دخلت القاعة فسألتها والدتها عن سبب تأخرها فقالت : «كنت مضطربة البال بسبب القلق على ابي لوجوده تحت رحمة الاخطار في الاسكندرية» .

فطيبت خاطرها وقالت : «ان الاسكندرية الان اكثر أمنا من كل انحاء البلاد ، وقد جاءنا رجل من أخصاء ابيك وأعز اصدقائه بكتاب منه وكل اليه فيه النظر في امرنا مخافة ان تمتد نيران الحرب الى هنا» .

فأدركت فدوى ان ذلك الرجل هو الضابط الذي لمحته خارجا فارتعدت فرائصها لكنها اخفت اضطرابها ولم تقل شيئا فقالت والدتها : «يظهر لي ان هذا الشاب غيور همام فانه جاءنا توا قبل ان يذهب الى بيته ويغير أثوابه ويستريح من مشقة السفر ، واني لمغتبطة بمجيئه واهتمامه بنا لاننا في حاجة الى من يحمي ذمارنا اثناء هذه التقلبات السياسية ، وهو ضابط في الجيش ففي استطاعته ان يقينا الاخطار باذن الله . وقد اتانا ايضا بكتاب من ابيك ينطوي على ثقته به وكفاءته للقيام

بهذا الامر» .

ودفعت الكتاب الى فدوى فتناولته وتلته الى ان اتت على آخره ثم ردته اليها صامتة ، وقد تأثرت كثيرا . وأحست بانقباض شديد ، فعادت الى غرفتها حتى لا ينكشف امرها لوالدتها . فلما شاهدها بخيت لحظ شيئا من اضطرابها ، فقصت عليه الحكاية . فقال : «اذا لم يكن للمرء زاجر من نفسه فماذا تفيد الاهانة والتعنيف ، على ان هذا الغر قد سعى بنفسه الى هلاكه ، سواء عندنا اقرب منا ام بعد فلن يجرؤ على مخاطبتك او رؤيتك ، فدعيه وشأنه الى ان يقضي الله بما يشاء» .

فتأوهت فدوى من فؤاد مكلوم وقالت : «ان قلبي يحدثني بأن مجيء هذا النذل ينذر بخطر قريب» . قالت ذلك وألقت رأسها بين يديها ولم تتمالك عن البكاء فألقت بنفسها الى سريرها ، وبقيت طول يومها مشغولة الفكر بهذا الحادث الجديد .

★ ★ ★

في صباح اليوم التالي جاءت دليلة الى فدوى مستبشرة ضاحكة . فلما رأتها فدوى تشاءمت من رؤيتها وكرهت مخاطبتها ، ولكن العجوز اقبلت عليها كأنها لم تبال نفورها منها وقالت : «ارى سيدتي لا تزال غاضبة علي وأنا لم آت الا ما فيه خيرها ولم أقصد الا ما اراده ابوها» .

فقالت فدوى : «ما الذي تعنين بهذا القول ؟»

قالت : «أعني الخاتم الذي رميته في وجهي منذ بضعة ايام ، فستلبسينه الان بيد من لا يسعك مخالفته !»

فنظرت فدوى اليها شزرا وقالت : «من يستطيع ذلك ؟»

قالت : «اذا اذنت لي قصصت عليك الخبر . ان سيدي الباشا أباك قد سمح بخطبتك لمن اردت الباسك خاتمه فامتنعت وانتهرتني» .

فنفرت فدوى وقالت لها : «هل بلغ بك الامر الى ان تخاطبيني بمثل هذا ؟ اقصري ولا تخرقي حرمة شيخوختك» .

فقالت العجوز : «لا يصعب عليك سماعك كلامي يا سيدتي ، فاني لم آت لأثير فيك ثائرة الغضب بل لاطلعك على حقيقة الامر اني أقدر ان أعطف قلبك على ذلك الشاب الذي لا يريد من الدنيا الا رضاك» .

فقالت فدوى : «لا أريد ان أسمع مثل هذا الكلام ، ولا هو من شؤونك» .

قالت : «اني لا آتيك الا بالخبر اليقين ، وهذا كتاب يكشف لك حقيقة الامر ويطلعك على طوية من تعلق قلبك بحبه ويريك الشراك التي نصبها لك فوقعت فيها لصفاء قلبك» .

فاضطربت فدوى عند سماعها هذا الكلام وقالت : «ماذا ؟.. ألا تقصرين عن معاودة مثل هذا الكلام ؟» . فقالت العجوز : «اني أتحمل اهانتك بالصبر لانني كنت فتاة مثلك لا أنقاد الا لما تصوره لي المخيلة ، فخذي هذا الكتاب واقرئيه ، وستعلمين بعدئذ صدق خدمتي لك» .

فأخذت فدوى الكتاب وفضته ويداها ترتعشان فاذا فيه :

«حضرة السيدة فدوى

«ان الموجب الاول لارسال هذا الكتاب اليك هو عظم حبي لك . ولولا هذا الحب الذي بلغ في نفسي مبلغ الهيام ، وما لقيته من اكرام ابيك الجليل القدر لاوقعتك في شر أعمالك ، غير ان فؤادي المتيم بحبك لم يطاوعني على ذلك رغم انك تماديت في الجفاء والنفور ولم تبالي ما اظهرته لك من اللين والملاطفة ، وكلما سعيت الى التقرب منك قابلت هذا باهانتي واذلالي ، وأنا لم أقترف ذنبا يوجب هذا . غير اني اطلعت على ما نصبه لك بعضهم من الشراك ، فاعلمي يا حبيبتي ان الذي قد وهبته قلبك غلام غر لا يعرف له حسبا ولا نسبا ما خلا والديه ، فهل يليق بك

وأنت ابنة اصل كريم ومجد وسؤدد ان تسلمي زمامك الى من لا يعرف جده ولا وطنه ولا هو من الناس في مقام يليق بك ويرضي أباك ؟» ان من كان هذا اصله لن يعرف لك قدرا ولا يقدر لك مقاما ، ولولا ذلك ما اذاع امرك بين الناس وجعلك مضغة في أفواه العامة . وما تزعمين انه عاهدك عليه سرا تتداوله الالسنة في الفنادق والمقاهي ، ولم يبق احد لم يبلغه خبر قصر النزهة وحكاية الزر والدبوس . وقد كتمت كل ذلك عن ابيك صيانة لحرمتك فاعلمي الان انك قد صرت خطيبة لي بأمر ابيك ، فاذعني لهذا الامر ، ودعي الانقياد لذلك الغلام . واذا حاولت الاستمرار في غرورك فأنت الجانية على نفسك ، وما لا ترضينه طوعا ستنقادين له كرها . والسلام .. محبك عزيز» .

فما أتمت فدوى قراءة الكتاب حتى خارت قواها واكفهر لون وجهها، فالتفتت الى دليلة وقالت لها : «لقد تمادى هذا الذميم تماديا ليس وراءه حد ولا نهاية . وأراك متممة لمبادئه الخسيسة فاخرجي من هدا البيت ولا تعودي اليه ابدا» . فخرجت دليلة وبقيت فدوى في حيرة مما قرأته من امر الدبوس والزر ، ثم اطلعت بخيتا على الحكاية فقال لها : «لا تصدقي ما ذكره او يذكره هذا الخائن ، فانه كاذب مخادع» .

- ٨ -

اجتماع الحبيبين

بعد بضعة ايام عاد الباشا ابو فدوى الى القاهرة ، فسارع عزيز الى

زيارته ، فبالغ هذا في كرمه وتبجيله ، فلما بلغ فدوى ذلك خافت سوء العقبى .

وبعد يومين خلا الباشا الى فدوى وفاتحها في امر خطبتها لعزيز وأطنب في مدح صفاته ومروءته وانه قد نجاه من الموت في الاسكندرية، الى ان قال لها : «وقد سبق مني القول له ان يكون لك بعلا» .

فقالت : «لا أقدر ان أرفض امرا لابي العزيز ، الا انني اطلب اليك الامهال في هذه المسألة» .

فقال : «وما الفائدة من الامهال وقد عرفت هذا الشاب معرفة جيدة، وهو الذي أنقذني من الموت على يد احد اصحابه ، وفوق ذلك فهو رجل ذو ثروة واسعة» .

فقالت : «ان البلاد الان في خطر والافكار مضطربة ، فيحسن التريث في الامر حتى تهدأ الاحوال».

قال : «ان ذلك لا يوجب الامهال ولا بد من اتمام الامر فالشاب ممن يليقون بنا» .

فقالت : «ولكن ..» . وخنقتها العبرات فلم تستطع ان تتم عبارتها.

فبادرها قائلا : «لا حاجة بنا الى التردد ، وقد قضي الامر ووعدت الرجل » .

فلم تستطع فدوى جوابا لشدة تأثرها واشتغالها بالبكاء . فغضب الباشا منها وانتهرها قائلا : «ما معنى هذا البكاء ؟ لعلك تريدين خداعي بدموعك فلا حاجة بنا الى الاطالة فالغد موعد الاقتران» .

فترامت على يدي ابيها تقبلهما وتقول : «ارحم يا أبتاه ابنتك المسكينة واسمح لها بكلمة» . فأحس بالحنو الوالدي فانعطف قلبه نحوها وقال : «تكلمي ما بدا لك» . فقالت : «يا سيدي لا تظلم ابنتك ولا تحملها ما لا تطيق» .

فقال : «ماذا ؟.. هل تجرؤين على مخالفة قولي ؟»

قالت : «ما عودتك ان أخالف لك امرا ، ولكن ..»

فقاطعها وهو يتميز من الغضب قائلا : «كفى لا تزيدي ، أتظنين اني لم أطلع على مكاتبتك لذلك الغر الشقي ؟»

فقاطعته قائلة : «مهلا يا ابي ولا تظلم ابنتك ، فالموت اقرب الي من قبول هذا الامر» . قال : «لا يعنيني هذا ولا يهمني الا اني وعدت ولا بد من انجاز وعدي . هل فهمت ؟»

فأوشكت فدوى ان تفقد صوابها من التأثر ، لكنها تجلدت وقالت بصوت ضعيف ونغمة حزينة : «الموت أحب الي من هذا» .

فانتهرها قائلا : «أهذه نتيجة التربية يا فدوى ان تعقي أباك وتخالفي امره ؟»

فقالت : «معاذ الله ان أعق ابي ، وانما أطلب اليك الامهال ريثما تختبر من غشتك ظواهره» .

فقال : «عبثا تحاولين ، فغدا ميقات الاقتران قبلت ام لم تقبلي» .

ثم تركها وخرج لا يلوي على شيء ، وأخذ يهتم بمعدات عقد القران . وبقيت فدوى تتقلب على نار الاسى وتندب سوء بختها ، فتراءى لها ان تستنجد بوالدتها ، فلما ذهبت اليها وأطلعتها على الامر أجابتها قائلة : «خير لك الانصياع الى امر ابيك فانه لا يسعى الا الى خيرك ، ولا ينبغي ان تخالفيه فأنت أقل خبره منه ، وهو لا يمكن ان يريد بك سوءا» .
فعادت فدوى الى غرفتها وقد عصر الاسى روحها وبقيت بياض النهار وسواد الليل تتقلب على مثل الجمر . فلما كان الصباح أعد الباشا معدات الفرح من مأكول ومشروب ، وأعدت فدوى جرعة سامة اخفتها في ثيابها حتى اذا تحققت وقوع المقدور تجرعتها لتتخلص من حياة تسخر قلبها فيها لغير من تحبه وتهواه .

اما عزيز فأخذته هزة الطرب لما نال من الفوز ، فدعا من استطاع من اصدقائه الى الاحتفال ، ولبس أفخر ما لديه من اللباس ، متناسيا حالة البلاد التي كانت في خطر عظيم ، فالجنود المصريون كانوا في التل الكبير يتوقعون هجوم الانجليز عليهم ، ولكنه ما كان يفكر الا في نفسه ٠ ولو ساعدته الاحوال لجاء بالمغنين والمغنيات ٠ وما حان العصر حتى امتلأت القاعات في قصر الباشا بالمدعوين، فلما تأكدت فدوى الامر نالها اليأس فخلت الى نفسها في غرفتها تندب حظها ، وأرسلت تستقدم بخيتا وأطلعته على ما اعتزمته من تجرع كأس الموت فقال لها : «كلا ٠٠ لا تفعلي هذا يا سيدتي ولا تبيعي حياتك رخيصة ، ان هذا الخائن لن يبلغ ما يريد وأنا حي أرزق ، فلا بد لي من اخطف روحه قبل ان يدركك ببصره ، وبعد ذلك سواء عندي أعشت ام مت لاني اكون قد قمت بما يجب علي وخلصت نفسا طاهرة من العذاب والموت» ٠

وكان بخيت قد أعد مسدسا ليطلقه على عزيز ثم على نفسه فيموت الاثنان فداء لفدوى ٠



وفيما كان بيت الباشا غاصا بالجماهير احتفالا بعقد الزفاف ، جاءه خادم يقول : «ان في الباب جاويشا في يده كتاب لسعادتكم» ٠ فخرج الباشا وتناول الكتاب فاذا هو مكتوب بايعاز عرابي باشا في قصر النيل يقول فيه : «ان امتلاك جنود العدو حصون التل الكبير يقضي على جميع أمراء العسكرية والملكية وأعيان البلاد بالحضور حالا الى سراي قصر النيل ، للمباحثة في الاحتياطات اللازمة لمنع العدو من دخول مدينة القاهرة ٠ فيجب حضوركم حالا الى السراي المشار اليها ٠٠ من قصر النيل يوم الاربعاء في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢» ٠

فلما قرأ الباشا الكتاب تغير لون وجهه فأمر باحضار العربة وركب ، وركب معه من حضر من أعيان البلاد الى قصر النيل • فلما وصلوا رأى الباشا قاعات القصر ملأى بالامراء والاعيان وهم يتفاوضون فيما يتخذونه من الاحتياطات لمنع العدو ، وكثرت الآراء ، وتعددت وتناقضت ، فنهض احد الباشوات وكان من الذين لا يزالون محافظين على الولاء للخديو فعنف العسكريين على عصيانهم وحرضهم على وجوب التماس العفو من مولاهم ، ووافقه كثيرون ممن حضروا ، فألفوا لجنة لتكتب عرضا بطلب العفو فكتبته وأرسلته مع وفد خاص الى الاسكندرية •

وبعد مسير الوفد من القاهرة أصر بعض الحاضرين على وجـوب الدفاع وقرروا انشاء خطوط دفاعية في ضواحي القاهرة ، فذهب عرابي باشا لتنفيذ ذلك في العباسية • وكانت العاصمة حينذاك في اضطراب كبير خوفا من حدوث مثل ما حدث في الاسكندرية من حريق وخراب •

أما عزيز فلم يكن له هم الا الظفر بفدوى . فلما أقبل المساء ولم يأت الباشا خاف ان يعرقل الانقلاب السياسي مساعيه ولاسيما اذا جاء شفيق العاصمة ووقف على خيانته له فيعمل على الانتقام منه ، فسولت له نفسه ان يأتي بزمرة من الرعاع ويتهدد فدوى ويختطفها غصبا ، وهكذا فعل فلما وصل الى باب غرفتها وهم بالدخول اعترضه بخيت . ولكنه نحاه بالقوة ، وهجم مع رفاقه يريدون فتح الباب قهرا • فلما رآهم بخيت على هذه الحال أطلق مسدسه على عزيز فأصاب الرصاص جنبه فسقط علـى الارض . وعلت الضوضاء ، وهجم من كانوا معه على بخيت بالعصي ، فدافع عن نفسه حتى كاد يقع على الارض • وكانت فدوى قد اضطربت لهذه الضوضاء واطلاق الرصاص ، فتناولت كأس الجرعة السامة ويداها ترتعشان وفرائصها ترتعد ، ثم اخرجت تذكار شفيق وجعلت تقبله وتذرف العبرات قائلة : «على الدنيا ومن فيها السلام ، الوداع الوداع ايهـــا

الحبيب اذا كنت لا تزال من اهل الحياة ، واللقاء اللقاء اذا كنت قد انتقلت الى اهل البقاء» . ثم لم تقو على الوقوف فألقت بنفسها على المقعد خائرة القوى ، وسمعت ضجة أعقبها سكوت صوت رخيم ينادي: «ما هذا ؟. اين فدوى ؟. من هؤلاء يا بخيت ؟. وكيف يجرؤون على انتهاك حرمة البيوت ؟» . فلما سمعت فدوى هذا الكلام خافت افتضاح امرها ورفعت الكأس الى فيها فسمعت ذلك الصوت نفسه يقول : «اين فدوى . من يظلم هذا الملاك ؟» . فبهتت وأخذتها الدهشة لمشابهة هذا الصوت صوت من تحب ، ورغبت في استطلاع الخبر قبل ان تتجرع السم ، وتصورت ان حبيبها عاد اليها ، ثم عاد الصوت مرة اخرى يقول : «اذهبوا لا يبق منكم احد» . وبعد بضع ثوان لم تعد تسمع صوتا ، ثم فتح الباب ودخل ضابط انجليزي فلما رآته اضطربت من جديد ، ولكنه بادرها قائلا بالعربية : «لا تخافي يا فدوى ، انا شفيق !»

وكانت لا تزال جالسة والجرعة السامة في يدها ، فلما سمعت ذلك سقطت الجرعة من يدها وقالت : «شفيق ؟. شفيـــق ما زال حيا ؟» . وسقطت على الارض مغشيا عليها فرشها شفيق بالماء الـــى ان افاقت ، وأجلسها على المتكأ ، وهو يقول : «خففي من اضطرابك» . فلما تأكدت انه هو شفيق لم تتمالك ان صاحت قائلة : «شفيق حبيبي شفيق ، لقد رحم الله حياتي فأرسل الي ملاكي الحارس» . فأخذ شفيق يسكن روعها ويلاطفها الى ان هدأ روعها وعاد اليها صوابها .

★ ★ ★

نهض شفيق ليرى ما تم لعزيز فاذا به يئن من ألم الجراح وقد هم بخيت بأن يقضي عليه ، فمنعه وأمره بنقله الى غرفة لمداواته فقالت فدوى: «أتريد احياء خائن اراد بك سوءا ؟» . فقال تمهلي يا حبيبتي ، فهذا

الشاب كان من اصدقائي وهو الان مطروح بين حي وميت فيجب علينا معاملته معاملة الجريح في الحرب » .

ثم أمر بنقله الى غرفة ثانية ، وغسل جراحه وضمدها حتى أفاق ، فلما رأى شفيقا عند رأسه بكى وشعر بما اساء به الى هذا الباسل ، فهم بأن يلقي بنفسه على قدميه طالبا اليه المغفرة ، فمنعه شفيق وطيب خاطره قائلا : «لا بأس عليك يا عزيز ، انا أعلم انها هفوة صدرت منك فلا أؤاخذك عليها ، فاضطجع ريثما تستريح وسأعود اليك» . ثم تركه وعاد الى فدوى .

وكان رجال الشرطة قد سمعوا صوت اطلاق الرصاص والضجة التي اعقبت ذلك ، فجاء بعضهم الى القصر ، فشاهدوا شفيقا يدخله في ملابسه العسكرية الانجليزية ، وكانوا قد سمعوا بدخول الانجليز مدينة القاهرة في ذلك المساء ، فظنوه فعل ذلك عمدا ، ولم يستطيعوا كلاما .

اما والدة فدوى فلما سمعت الضوضاء واطلاق البارود اضطربت وخرجت فرأت الازدحام ، ثم رأت ضابطا انجليزيا يدخل غرفة فدوى فخافت عليها ونادت الخدم ان يمنعوه فلم يجرؤ احد منهم على ذلك ، فظنت ان الانجليز دخلوا القاهرة وجاءوا للقتل والنهب ، فبقيت في قلق عظيم على ابنتها ، الى ان اتى الباشا فأطلعته على الخبر فصار ينتفض من الخوف والغضب ويفكر في مخرج ليخلص ابنته ، واذا ببخيت قد اتى اليه ودلائل الفرح والاستبشار بادية في وجهه وقال : «لم لا يدخل سيدي ؟» . فدخل الباشا غرفة ابنته فاذا بها جالسة الى ذلك الضابط فاستاء منها لما كان يجب عليها من التحجب عن الغرباء خصوصا انه كان يعهد فيها المحافظة على تلك العادة ، غير انه لم يقو على ابداء ملاحظة في هذا الشأن فنسب ذلك الى خوفها . فلما اقترب منهما وتفرس في وجه شفيق عرف انه هو الذي نجاه من الموت في الاسكندرية ، فسارع الى

تحيته وقال : «اهلا وسهلا ، اني لا انسى فضلك مدى العمر ، ما هذا الاتفاق السعيد ؟ ومتى جئت ؟»

قال : «جئت هذا المساء مع الجيوش الانجليزية» .

فقال : «هل على المدينة من بأس منهم ؟» . قال : «لا ، لانهم دخلوها وأقاموا الحراس في كل جهاتها واحتلوا القلاع والحصون ولا يلبثون ان يقبضوا على عرابي . وها قد تمت نبوءة قائد الحملة الجنرال ولسلي بأنه يدخلها في ١٤ سبتمبر» .

اما فدوى فدهشت لترحيب ابيها بشفيق ولكن امارات الوجل كانت لا تزال على وجهها بعدما قاست من الاهوال والمفاجآت .

ولم يكن الباشا قد علم بسبب اصابة عزيز ، وخيل اليه انه أصيب خلال دفاعه عن فدوى ضد ذلك الضابط الجالس اليها ، فأسف لما اصابه وأوجس خيفة من ضياع الثروة التي أوشك أن ينالها ، وهم باستطلاع الخبر فبادرته فدوى وكانت قد استردت روعها وقالت : «ان بخيتا هو الذي ضربه يا ابي ، ويا ليتها كانت القاضية !»

فعجب وسألها : «كيف كان ذلك ؟» . فقالت : «قبل ان أقص عليك الخبر ، أرجو ان تخبرني كيف عرفت هذا الضابط ؟»

فقال الباشا : «انه هو الذي أنقذنا من الموت في الاسكندرية انا وعزيـز » .

قالت : «أتعرف ان اسمه شفيق ؟»

فبهت اذ تذكر هذا الاسم ، وقال : «لعله الذي خبرت عنه من عزيز؟»

قالت : «نعم ، هذا هو الملاك الحارس الذي انقذك من المـوت مرة ، وأنقذني منه مرتين ، وأنقذ ذلك الخائن مرارا» .

فخجل شفيق وقد أذهله لطف حديث فدوى حتى أوشك ان يغيب بسكرة الحب ، فقالت له وهي ترمقه بنظرات ناطقة بأنها لا تخشى في

حبه لوم اللائمين : «اذا ذكرت بسالتك فلا أكسبك رفعة لان اعمالك المتجددة مع الايام ناطقة بذلك ، فلا تحسب شكري لك على ما أوليتني من الفضل ثناء عليك» . ولم تدع له مجالا للكلام بل وجهت الخطاب الى ابيها وقالت : «أتلومني بعد هذا يا ولدي اذا كنت ...» . وكادت تتلعثم فأتم ابوها عبارتها قائلا : «اذا كنت تحبينه أليس كذلك ؟» . فخجلت ولكنها استأنفت الكلام فقالت : «لا أجهل يا أبت ان وجودي بالقرب منه ولو ملثمة محظور في عوائدنا غير اني لا أستحيي ان اقول بأنه يجب معاملة من كان كهذا الشهم وقد انقذني من الموت مرتين معاملة اقرب الناس مني ، فأعد مقابلتي له على هذه الحالة كمقابلتي لاقرب اقربائي» .

فنهض الباشا حينئذ الى شفيق وقبله ومدحه . فكرر شفيق ما حضره من عبارات الشكر والامتنان لما أظهراه له . ثم اخذوا بأطراف الحديث عن عزيز وأعماله حتى انكشفت للكل سعايته ورداءة جوهره ، فأسف الباشا على ثقته به قدر اسفه على فقد ثروته بهذا الحادث ، ثم سأل الباشا شفيقا عن اسرته فقال : «ان ابي اسمه ابراهيم وهو من مستخدمي قنصلية انجلترا في القاهرة وقد قضى حتى الان في خدمتها زهاء ١٨ سنة» .

فدهش الباشا لذلك وخاف ألا يكون مسلما فقال : «ومن أي الطوائف هو ؟»

قال : «من الطائفة الاسلامية» . فازداد الباشا دهشة وقال : «أيكون مسلما ويقضي في خدمة الحكومة الانجليزية جل عمره ؟» . فقال شفيق: «ان لتقربه من قنصل انجلترا فيما يلوح لي سرا حرص على اخفائه . فلم أعرفه !»

فقال الباشا : «أظن هذه البلاد ليست بلادكم ؟»

فقال شفيق : «أعترف لك بجهلي الحقيقة في هذا ، لكني أرجح ان ابي جاء من الشام» •

فاستأنف الباشا الحديث لئلا يضايق شفيقا وعاد الى التكلم في امر عزيز ولكنه أضمر ان يبحث عن حقيقة حسب شفيق ونسبه قبل اتمام امر الاقتران • فقال الباشا : «ان خيانة هذا الرجل تستوجب القتل» •

فقالت فدوى : «لا شك في ذلك ، واني أعجب كيف سعى شفيق الى معالجته ؟»

فقال شفيق : «ألم يكن هذا الشاب من اصدقائي بل رفيقي في المدرسة ؟ فلا يليق بي ان أقابل جهله بالشر» •

فقالت فدوى : «أيستحق هذا الخائن غير القتل وقد ابدى لك ما أبداه من الشر والعدوان ؟»

قال شفيق : «أي فضل للعاقل على الجاهل اذا هو قابل الجهل بالجهل والشر بالشر ، وما الانتقام الا شأن الضعيف الساقط ، وهذا المسكين قد نال ما جنت يداه فأصيب بما استحق ولو استحق الموت لكانت الضربة هي القاضية ، ثم هو الى ذلك جريح يقاسي من الآلام وتبكيت الضمير ما يكفيه جزاء» •

فقالت : «لا تزال تسعى الى الابقاء عليه وشفائه وأنا لا ارى الا الموت جزاء له» •

فقال : «الموت والحياة يا عزيزتي بيد الله ، وما نحن الا عبيد ضعفاء عرضة للغلط والتهور ، وقد رأيت هذا الشاب يترامى على قدمي ليقبلهما وهو فيما علمت من ألم الجرح وقد أصيب من تبكيت الضمير بما يكفيه، ومع ذلك فالشهامة تأمر بالعفو عند المقدرة» •

قالت : «ولكني أطلب اليك بحق المحبة ألا تبقي عليه ، والا فليعالج جرحه في غير هذا البيت» •

فقال شفيق مبتسما : «ان امرك يا سيدتي مطاع ، ولكني أذكـرك امرا واحدا وهو انني وقد صرت من رجال الجهادية عرضة للرصاص في الحروب وحياتي دائما في خطر ، فلو بلغك يوما انني أصبت برصاصة ولم ألق نصيرا ولا مواسيا ، ماذا يكون حالك حينئذ وكيف يكون قلبك ؟»

فارتعدت فرائص فدوى جزعا من تصور اصابة شفيق . ثم مسحت دموعها وقالت : «ان هذا خائن لئيم أعيذك من التشبه به» .

فقال : «ان البشر ضعفاء يا عزيزتي ، ومن منا معصوم من الغلط ؛ وقد قيل ان المستغفر لذنبه كمن لا ذنب له» .

وكان الباشا يسمع تحاورهما وينظر الى شفيق معجبا بكرم أخلاقه فقال : «لله درك يا ولدي ما اكبر نفسك وما أظهر دلائل الفضل عليك فافعل ما بدا لك لئلا يقال فقدت المروءة اهلها» .

فقال : «عفوا يا سيدي ، اني لم أقصد الا ابداء رأي ، ولسعادتك الامر والنهي ، غير اني اظن انه يحسن بقاء عزيز هنا الان تحت المعالجة» .

فقال الباشا : «نعم الرأي رأيك يا ولدي فهيا بنا نخيره في البقاء هنا ريثما يشفى او الذهاب الى بيته» .

فلما قابلاه اخفى وجهه بين يديه وقال : «عفوا عفوا ايها الصديـق الكريم فضميري يبكتني لما اقترفته نحوك فذنبي عظيم يستحق الموت» .

فقال شفيق : «لا بأس عليك ولا راد لما جرى به القدر ، اما الان فقد اتيت وسعادة الباشا نخيرك بين البقاء هنا او الذهاب الى بيتك» .

فقال : «أريد ان تسمحا بنقلي الى محل سكني» . فأجاباه الـى ذلك ، وعادا الى غرفة فدوى حيث استأذن شفيق في الانصراف قائلا : «اني آسف لعدم امكاني البقاء الان لازداد شرفا ومؤانسة برؤيتكم ، اذ ربما يترتب على تغيبي عن الجيش وقتا طويلا سوء ظن بي ، لانهم لـم يسمحوا بانخراطي في جندهم متطوعا الا بعد السعي الكثير فاني لست

انجليزي الاصل ، وانما ساعدني كون ابي من موظفي الحكومة الانجليزية هنا وله خدمات صادقة ، فلا بد لي من ان أبرهن لهم على صدق خدمتي حتى يثقوا بي ، وسأعود الان الى الآلاي ومتى استتبت الحال أصير قادرا على التشرف بالمثول بين يدي سعادة الباشا فألقي اليه ما يخالج ضميري من المحبة والاحترام لعلي أصادف ما آمله من محبته وكرمه» .

فلحظ الباشا المراد من تقربه ، وقد أحبه وسرته العلائق التي ربطت فدوى بحبه . اما فدوى فهان عليها ان تفارق حياتها ولا تقاسي بعاد الحبيب ثانية ، لكنها لم تجد مجالا لاظهار عواطفها امام ابيها . فنظرت الى شفيق مستعطفة وقد تاه عقلها فتبادلا الخطاب بالالحاظ الناطقة التي يريدها الشاعر بقوله :

تشير لنا عما تقول بطرفها وأومي اليها باللحاظ فتفهم
حواجبنا تقضي الحوائج بيننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

ثم عاود شفيق الكلام فقال : «انني في انتظار قدوم والدي فمتى قدما فاني أرجو ان تقوى علائق المودة المتبادلة بين الاسرتين» .

فقال الباشا : «ومتى يحضران بمشيئة الله ؟»

قال : «أرجو ان يكون ذلك قريبا ، ولكن ربما تستبقي الحكومة والدي في لندن بعض الوقت» .

ثم دنا شفيق من الباشا وودعه ، ومد يده الى فدوى فمدت يدها وهي ترتعش من عظم تأثرها فضغط عليها بلطف كأنه يقول لها : «عندي مثل ما عندك فلا تيأسي من حبي لك» . ثم انصرف شفيق وبقي الباشا وابنته ، فأثنى هذا على كرم شفيق وبسالته ولامها على كتمانها ما ربطها بشفيق من الحب الطاهر فاعتذرت له بأنها كانت تخاف ألا يوافقها ، وبعد

المذاكرة فيما كان من سفالة مبادىء عزيز وكيف آل امره وفيما أبداه شفيق من كرم النفس وكيف ظهر فضله ، نهض الباشا يريد الذهاب الى المدينة ليرى ما جرى فيها بعد دخول الانجليز ، فوجد انهم دخلوهـــا بسلام .

ولما وصل شفيق الى معسكره في العباسية وجد هناك عرابي وبعض رفقائه معتقلين في غرفة ، وأخذ الجنود الانجليز يلقون القبض على زعماء الثورة للمحاكمة ، فحكم على سبعة منهم وفيهم احمد عرابي زعيم الثورة بالاعدام ، ثم أمر الخديو بالعفو عنهم وابعادهم الى جزيرة سيلان ، وبعد ابعادهم اخذت الاحوال في السكون رويدا رويدا . وكان شفيق ينتظر بعد محاكمة العرابيين واستقرار الاحوال ان يعود الانجليز الى بلادهـم فيستعفي هو من العسكرية ويخلو له الجو فيقترن بحبيبته ، غير ان امله لم يتحقق لان الحكومة الانجليزية قررت احتلال مصر الى أجل غير معين. بدعوى انها جاءت لاخماد الثورة وتأييد الامن فلا تبرح البلاد حتـــى يستتب الامن تماما . فظل شفيق اثناء بقائه في القاهرة يتردد الى بيت الباشا لمشاهدة فدوى ، ولم يكن يهمل السؤال عن صحة عزيز .

★ ★ ★

كان والدا شفيق قد وردت عليهما كتب منه تنبئهما بأنه في مصر بخير وسلام ، فسرا لذلك ولاسيما حين علما انه ممن أنعم عليهم الجنـــاب العالي بالنياشين والرتب وممن اختيروا للانتظام في خدمة الجيش المصري وتدريبه .

وبقيت والدة شفيق كاتمة عن زوجها امر حب شفيق لفدوى ، حتى اتاها كتاب منه يخبرها برضاء والد فدوى عنه وانه يميل الى تزويجه بها ويطلب اليها ان تطلع أباه على حقيقة الخبر وتستطلع رأيه في ذلك ، فبقيت

ترقب الفرص حتى كانت ليلة من ليالي الصيف في لندن وبدا زوجها أقل انقباضا مما هو عادة ، فجلست اليه وبدأت تجاذبه الحديث الى ان قالت : «ألا تبرح مصرا على كتمان حكاية الشعر الذي في الصندوق ؟»

فتأفف ابراهيم من هذا السؤال وقال : «أستحلفك بالله ألا تعيدي على مسمعي ذكر ذلك الشعر ، فقد قلت لك انني لا استطيع اطلاعك على شيء من امره» •

فضحكت سعدى وقالت : «أتظن ألا احد يحمل اسرار الا انت ؟•• ان لدي سرا لو اطلعتك عليه لزالت كل أكدارك وتبدلت أفراحا» •

قال : «وما هو يا ترى السر الذي يجلب الافراح وتكتمينه ؟»

قالت : «لا استطيع ان أنقله لك قبل ان تسمح لي بنفض الكتاب او اطلعني على حكاية الشعر» •

فقال : «اذا كان لديك نبأ سار فهاتيه ، فقد كفانا ما كابدناه اثناء البحث عن شفيق» •

قالت : «لا اظن انك أقل اهتماما مني باختيار عروس لولدنا ، فما رأيك في الابنة الغنية ألا تفضلها على الجميلة ؟»

فقال : «اذا اردت رأيي فلا أريد عروسه الا من ذوات قرباه» •

فقالت : «أتقصد اقرباءك ام اقربائي ؟» • قال : «اقربائي» • فرمقته بنظرة كلها دهشة وقالت : «قد مر علي في عشرتك اكثر من عشرين سنة ولم تطلعني على شيء من امر وطنك او ذوي قرباك • فكتمانك عني هذا الامر أشبه بكتمان امر الصندوق» •

فابتسم ساخرا وقال : «ان معرفة احد السرين يترتب عليه معرفة الاخر » •

فأرادت سعدى استطلاع السر وقالت : «اذا اختار ابنة من بنات مصر الغنيات ذات حسب ونسب وتهذيب أفلا تكون مسرورا ؟»

فقال : «كلا بل اكون متكدرا ولو كانت الابنة من بنات الباشوات، لاني أفضل له ابنة من بنات أعامي ولو كانت فقيرة» .

فاضطربت سعدى لعلمها بشدة تعلق شفيق بفدوى ، ولكنها لـــم تستطع مراجعة زوجها لئلا يفهم قصدها فسكتت مرتبكة . ولم تقدر ان تطلع شفيقا على أفكار والده خوفا من سوء عاقبة ذلك ، فانتظرت ما يأتي به المقدور ، وكتبت الى شفيق تخبره بأنها لم تعلم أباه بأمره مـــع فدوى لانها لم تر فرصة مناسبة لذلك ، وستخبره في اول فرصة ، اما مجيئهما الى مصر فسيكون بعد حين لان الحكومة الانجليزية استبقت أباه لتستخدمه في بعض المهام المتعلقة بمصر لما تعلمه من خبرته بأحوالها. ثم اشارت على شفيق بألا يستعجل امر الزواج وأن يدع كل شيء ريثما يحضران .

وظن شفيق ان قدوم والديه الى مصر يكون على أثر مجيء اللورد (دوفرين) موفدا من الحكومة الانجليزية لدراسة الحالة ، غير ان ذلـــك الظن لم يتحقق . وكان شفيق قد وعد الباشا بأن يرسل الى ابيه ليكتب الى الباشا ليتم تعارفهما فلما جاء كتاب والدته خشي ان تطول المدة قبل اطلاع والده على الامر ، فلبث ينتظر ما يكون وهو على مثل الجمر .

وكذلك كانت فدوى تعد الساعات والايام في انتظار قدوم والدي شفيق لان وجودهما يسهل امر الاقتران ويضع حدا لكل المشاكل التي كانت تخافها ولاسيما دسائس عزيز ، وكان هذا قد عزل من خدمة الجيش المصري مع من عزلوا بعد الحوادث العرابية .

- ٩ -

حملة هيكس

في يوم من ايام شهر فبراير سنة ١٨٨٣ توجه شفيق الى منزل الباشا وعلى وجهه امارات الانقباض ، فعلمت فدوى بمجيئه فبعثت الى ابيها ليأتي‌به الى دار الحريم ؛ فلما جاءاها ورأت شفيقا على تلك الحال بادرته بالسؤال عن السبب ، فتبسم يريد اخفاء اضطرابه وقال : «ليس هناك ما يوجب الاضطراب يا عزيزتي ، ورجال العسكرية كما تعرفين يجب ألا يضطربوا حتى من المسير الى الحرب» .

فقالت : «لعلك ذاهب الى الحرب ؟»

فقال : «نعم» . فتلعثم لسانها والتفتت الى ابيها وقد اغرورقت عيناها بالدموع قائلة : «اسأله يا ابي عما يقصد بهذا فاني لا استطيع كلاما» .

فابتسم شفيق ليهون الامر عليها ، وامتلأت عيناه بالدموع ثم قال : «ان اكبر فخر للجندي يا عزيزتي هو فخره بالانتصار في الحرب . فاسألي الله ان يكتب لنا هذا الفخر» .

قالت : «والى اين ؟» . قال : «الى الاقطار السودانية» .

ولم تتمالك نفسها عن البكاء ، فأخذ يخفف عنها ويهون عليها ؛ ثم قال له الباشا : «وما سبب هذه الحرب الان ؟»

قال : «لا يخفى على سعادتك ان الاقطار السودانية ما برحت منذ افتتحها المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية تحت كنف الحكومة المصرية ينتفع من تجارتها بالعاج والريش والصمغ وغير ذلك ؛ فظهر فيها في أواسط سنة ١٨٨١ رجل نوبي يقال له محمد احمد ، وادعى انه هو المهدي المنتظر فالتفت حوله عصابة قوية عرفوا بالدراويش وجاهروا

بعصيان الحكومة ، فحاولت قمع ثورتهم مرارا فلم تفلح واستفحل امرهم حتى استولوا على مديرية كردفان واحتلوا الابيض عاصمتها . فشق ذلك على الحكومة المصرية واعتبرته الحكومة الانجليزية امرا مؤذنا باضطراب الامن في البلاد . فانفتح لها باب لاطالة مدة بقاء جيشها في مصر . مع حق المشورة على الحكومة المصرية بما تتخذه من الاحتياطات ، وقــد اشارت بارسال حملة مصرية لانقاذ الابيض بقيادة قائد انجليزي اسمه هيكس باشا ، فأعدت الحملة وستسير من هنا بعد يومين قاصـــدة الخرطوم لتتحد هناك بحاميتها ويسير الجميع الى انقاذ الابيض . ولما كنت من الضباط الانجليز المنتظمين في خدمة الجيش المصري فقد دعيت لمرافقة تلك الحملة» .

وما أتم شفيق كلامه حتى غلب على فدوى البكاء جزعا على شفيق. فقال لها : «لا تجزعي يا فدوى فاني ذاهب لاداء واجبي وسأعود باذن الله مكتسبا فخرا . وهذا يسرك طبعا» .

فقالت : «دع عنك هذا الفخر المحفوف بالاخطار» .

فرمقها شفيق بنظرات المستهام ، ثم وضع يده على قبضة سيفـــه وابتسم قائلا : «اني لم أتقلد هذا السيف يا فدوى الا لكي انال شرفا يجعلني جديرا بك» .

فقالت : «ان لم تشفق على قلبي . فهلا رحمت قلب والدتك ؟»

فاغرورقت عيناه بالدموع وقال : «أستحلفك بالله يا فدوى ان تدعي هذا الكلام وأنا ذاهب الى الحرب ، ولندع عواطف الحب جانبا فانــي أمرت بالسفر الى الابيض ولا يسعني مخالفة الامر ، على انه لو وسعني ذلك ما فعلته محافظة على شرفي لئلا يقال اني خفت الحرب والاعمـــار والارزاق بيد الله» .

فاعتمدت فدوى رأسها باحدى يديها ومسحت دموعها باليد الاخرى،

ولبث الجميع صامتين برهة يفكرون ، ثم قال الباشا : «اذا كان لا بد من سفرك فصبر جميل ، والله المستعان» .

فرفعت فدوى رأسها وقالت : «لا .. لا .. لا اظن ان قلبه يطاوعه على السفر» .

فقال شفيق : «لو اردت مطاوعة قلبي يا عزيزتي ما كلفتك هذا العناء، وانما الامر امر الشرف والشهامة اللذين انا عبد رق لهما . والآن مالنا وللخوض فيما لا فائدة لنا منه ، فقد جئتكم مودعا فليس لنا الا الصبر الجميل والاتكال على الله» .

ثم التفت الى الباشا قائلا : «اما وصيتي لك يا سيدي فالعناية بوالدي اذا جاءا مصر اثناء غيابي ، وما احسب فدوى تحتاج الى الوصية وانما اطلب اليها ان تسمح لي برسمها حتى أستأنس به في سفري» .

ثم مد يده الى جيبه وأخرج رسمه وناولها اياه قائلا : «وهذا رسمي يبقى عندك تذكارا ريثما اعود ان شاء الله» .

فأخذت فدوى رسمه بعد ان استأذنت أباها وهي تبكي ، ولم تستطع النهوض حتى تأتيه برسمها الا بعد العناء فسارت وركبتاها ترتجفان ثم عادت فناولته رسمها فتأمله واذا هو رسم فوتوغرافي كثير الشبه بها يمثلها جالسة على كرسي ملثمة باللثام التركي كأنها تمعن النظر في شيء في يدها ، فتأمله فاذا هو الزر الذي اعطاها اياه تذكارا . وبعد ان تأمل الرسم مدة وضعه في جيبه وكان يريد تقبيله فمنعه الحياء . اما هي فكانت تنظر الى الرسم ولا تتمالك عن البكاء .

ثم نهض شفيق وقبل يد الباشا فقبله وعيناه تدمعان ، ثم مد يده الى فدوى وضغط على يدها قائلا : «ارجو انك لا تنسين شفيقا» . فخنقتها العبرات ولم تستطع جوابا .

وخرج تاركا اياها في حالة يرثى لها من القلق والاضطراب .

* * *

سار شفيق الى معسكره فرأى هيكس وأركان حربه على أهبة المسير ، فأعد ما يحتاج اليه ، وكتب الى ابيه في لندن يخبره بما هو فيه، كما كتب الى والدته يلح عليها في ان تستطلع رأي ابيه في امر فدوى .

وفي اليوم التالي سافرت الحملة عن طريق السويس فالبحر الاحمر الى سواكن ، ومن هناك سارت في الصحراء حتى مدينة بربر على النيل. لتستقل السفن الى الخرطوم حيث تسير مع حاميتها الى الابيض .

اما ما كان من امر والدي شفيق فانهما لما جاءهما كتابه بسفره مع حملة هيكس اضطرب بالهما . وأوقف ابوه سعيه في سرعة المجيء الى القاهرة ، وما زال كذلك حتى دخل صيف سنة ١٨٨٣ فوردت الاخبار بظهور الكوليرا في مصر . وكانت أخبار هيكس تصل الى لندن في حينها فعلما بوصوله الى الخرطوم ثم استعداده للمسير لفتح الابيض .

وفي ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨٣ جاءت برقية من هيكس قال فيها :

«نحن الان على مسافة عشرين ميلا من نورابي ، واني آسف لاننا لم نحفظ خط الرجعة ، وقد علمت من علاء الدين باشا حكمدار السودان ان العرب سيقطعون عنا الذخيرة والزاد ويحدقون بنا من كل ناحية بعد ان يوغل جيشنا في البلاد ، هذا الى ان برك الماء ستجف فلا يمكننا الاستقاء الا بحفر الآبار .. صحة العساكر جيدة والحر شديد» .

ثم انقطعت أخبار هيكس وحملته منذ ذلك الحين فخاف الناس خوفا عظيما ، وكان اكثرهم وجلا والدا شفيق في لندن وفدوى في مصر ، وأخذ الناس يقولون في مصير تلك الحملة اقوالا متضاربة نقلا عن ألسنة العرب القادمين من تلك الانحاء ، حتى ثبت اخيرا ان تلك الحملة ذهبت بمن

فيها من الرجال عطشا وقتلا بين العربة والابيض ولم ينج منها احد . فأصبح الكدر مستوليا على جميع الناس ولاسيما على قلب والدي شفيق اللذين لا يزالان في لندن • ولما مضت سنة ١٨٨٣ ولم يرد خبر عن شفيق شقا عليه الجيوب ولبسا أثواب الحداد ولم يعد ابوه يخرج من البيت ولا يخاطب احدا واستولت عليه السويداء حتى لم يعد احد يستطيع مخاطبته حتى ولا امرأته •

اما فدوى فانها بعد ان علمت بنكبة هيكس وحملته اصبح النور في عينيها ظلاما ، ولم تعد تستطيع طعاما . وأخذ جسمها في النحول وجمالها في الذبول . وتكدر لذلك أبواها لكنهما كانا يعزيانها من وقت الى اخر بأن الاخبار الصحيحة لم ترد بعد • ولكنها لم تكن تصغي الى قول احد. وأخذت تقضي النهار واضعة رسم شفيق امامها والعبرات تتساقط من عينيها . حتى اصبحت جلدا على عظم ووصف لها الاطباء السفر الى خارج مصر ترويحا للنفس ولكنها لم تشأ الخروج من حجرتها لئلا يمنعها ذلك من البكاء والنحيب . ولكنهم ما زالوا بها حتى اجبروها على الخروج من القاهرة وذهبوا بها الى الريف . فلم يجدها ذلك نفعا •

وأما عزيز فكان قد شفي وازداد حقدا على شفيق . ولما علم بما حل بحملة هيكس سر وابتهج وكان يود ان يبلغ فدوى ذلك شفاها تشفيا منها ، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعلمه ان من في البيت عالمون بقصته• فاكتفى بأن اقام عليها الارصاد والعيون ظنا منه انها حالما تستيقن فقد شفيق يتغير قلبها وتسلوه مع الزمن . فلما رأى انها لم تزل على حبه . لجأ الى بعض اصدقائه ليفهموا أباها ان احسن وسيلة لحفظ حياة ابنته هي ان تشغل عنه بغيره •

فلما علم بقرب سفر فدوى من القاهرة جاء الى ابيها يسأله عن صحتها مظهرا الاسف الشديد على ما اصابها ، وكان ابوها قد يئس من

عودة شفيق واقتنع بأن الخير في حمل فدوى على نسيانه ، فتلقــــاه مرحبا به .

وكان عزيز قبل ذلك قد اراد الشماتة بفدوى المسكينة فكتب رقعة قال فيها : «ذلك نتيجة كبريائك ، فأين شفيق الان ؟ وهل رأيت في حبك له خيرا مما كنت تلاقين ممن نبذتهم فأصبحوا ولسان حالهم يقول :

«من عاش بعد عدوه   يوما فقد نال المنى»

وبعث بتلك الرقعة مع احد جواسيسه ليوصلها الى فدوى ، فلـــم يستطع هذا غير رميها في ارض حجرتها ، ولكنها وقعت في يد بخيت، فلما قرأها علم انها من عزيز فاشتد غضبه وصمم على قتل ذلك الخائن، لكنه لم يستطع الخروج من البيت لاشتغاله بمرض فدوى .

***

وصل هيكس بحملته الى بربر ، ومن هناك ركبوا البواخر النيلية فوصلوا الى الخرطوم في اول شهر مارس من تلك السنة . وكان شفيق قد اكتسب ثقة هيكس باشا ومحبته لما اتصف به من الشهامة ولمعرفته اللغة العربية .

وخرج حكمدار الخرطوم لملاقاتهـــــم وأنزلهم بقصر أعده لهم . والخرطوم عاصمة السودان ومقر حكومته وهي واقعة على الشاطـــىء الشرقي للنيل عند ملتقى النيلين الابيض والازرق . وهي اكبر مـــدن السودان . فلما كان اليوم التالي خرج شفيق لمشاهدة المدينة فاذا هي آهلة بالسكان وفيها ديوان الحكمدارية والمجلس المحلي ومستشفـــى ومخازن للذخيرة ومكاتب للتلغراف والتليفون ومتاجر بها انـــواع

البضائع الافرنجية والسودانية . وفيها كذلك حدائق وبساتين كثـــيرة حافلة بأشجار الليمون والبرتقال والعنب والرمان والتين والقشطـــــة والخوخ والتفاح ، وكان مما أعجب به شفيق هناك مهارة صاغة المدينة في عمل الفناجين من الاسلاك .

وبعد مضي ثلاثة اسابيع وصلت الى هيكس سرية من الجند المصري قادمة من القاهرة ، ثم جاءته سرية اخرى معظم ضباطها من العرابيين .

ودخل شفيق يوما على هيكس باشا في حجرته فوجده يكتب كتبا الى لندن ، فلما أتم هيكس الكتابة . بدأ الحديث فقال : «لا ارى هؤلاء الدراويش يستطيعون الثبات في منازلة جنودنا» .

فقال شفيق : «حبذا ذلك يا سعادة الباشا ، ولكني ارى ان جندنا لا يصلح لهذه المهمة !»

فقال هيكس : «ولماذا ؟» . قال : «لان معظم ضباطنا كانوا في جيش عرابي وهم لم يأتوا الينا الا مكرهين ، لاعتقادهم انهم سيقوا الى هنا ابعادا لهم عن الديار المصرية » .

قال : «ولكنهم يؤكدون تفانيهم في الولاء للخديو وخدمة مصلحة البــلاد » .

قال : «لا يغرنك ذلك . فاني سمعتهم يتحدثون بما ذكرته الك الان. وهم يجاهرون بأفكارهم امامي لانهم لا يعلمون انني اعرف اللغة العربية. فكن منهم على حذر» .

فقال هيكس : «وما ظنك بالجنود السودانيين ؟»

قال : «ان السودانيين اذا تدربوا على الجندية كانوا قوة يخشى بأسها لانهم صبورون على الاهوال ثابتون في مواقع القتال» .

فوقع هذا الكلام لدى هيكس باشا موقع الاستحسان وازداد حبا لشفيق وتقريبا له . فأخذ يصطحبه حيثما سار ويستشيره في كثير من

الاعمال . فكان ذلك مدعاة لسرور شفيق ، آملا في ان ينال بما يعقبه من الرتب والالقاب مرضاة حبيبته .

وبقي هيكس باشا في الخرطوم مكتفيا بارسال بعض الجند لمقاتلة شراذم العصاة في اماكن مختلفة . الى ان عقد النية على المسير لافتتاح كردفان واستخلاص الابيض عاصمتها من قبضة المهدي وجنوده . فبعث الجواسيس يستطلعون أحوال العدو ، ولكن أخبارهم جاءت مختلفة متناقضة ، فاحتار ولم يعلم أيها الصحيح . ثم افضى الى شفيق بما هو فيه من الحيرة والتردد ، وقال له : «لا بد لنا من رجل نثق به كل الثقة ليستطلع لنا أحوال العدو ، والا فاننا في خطر على حياتنا» .

فأطرق شفيق هنيهة ثم قال : «ما رأيك في ان اسير انا في هذه المهمة ؟ »

قال : «انك أقدر الناس على ذلك لمعرفتك العربية ، ولاطلاعك على عوائد هذه البلاد . واذا فعلت فاني أذكرك لدى نظارة الحربية فتنال مكافأة عظيمة ، ولكن اخشى ان تلقي بنفسك الى التهلكة بهذه المغامرة» .

قال : «اني لم آت الى هذه الديار الا للقتال» .

«ومن كانت منيته بأرض فليس يموت بأرض سواها»

«وانما اسألك ان تكتم امر ذهابي عن كل احد» .

وكان شفيق قد تعلم لغة عرب السودان ، وعرف كثيرا من عوائدهم فأزمع الذهاب متنكرا في زي المغاربة ، فلبس جبة فوق قباء طويل ، واعتم بعمامة بيضاء ، واحتذى حذاء كحذاء المغاربة ، وحمل السبحة بيده ، وعلق الغليون بمنطقته . وجاء بجملين خفيفين احدهما لركوبه وعليه رجل خفيف بكل من جانبيه قربة ماء . ثم تقلد سيفا سودانيا

واصطحب دليلا كان في الخرطوم في مثل لباسه وحاله ، وركب الاثنان وسارا جنوبا يريدان الابيض بعد ان حمل شفيق جملا اخر بأكياس فيها انواع العطارة متظاهرا بأنه تاجر مغربي يطوف البلاد للاتجار بها • ولم ينس رسم فدوى فجعله في كيس وعلقه حول عنقه تحت ثيابه احتفاظا به لانه كان تعزيته الوحيدة في تلك الانحاء •

وخرج شفيق من الخرطوم في أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٣ دون ان يعلم بذلك احد ، وفي غد يوم خروجه سارت حملة هيكس تريـد الدويم بقيادة هيكس باشا وعلاء الدين باشا حكمدار السودان ، على ان يلتقوا بشفيق في جهة مورابي عند اول خور ابي حبل ، وكان قد اتخذ طريقه بعيدا عن مجرى النيل ، وكلما مر بحي من العرب في الصحراء بـات عندهم وباعهم الطيوب وحادثهم في مختلف الشؤون •

- ١٠ -

المهدي والدراويش

وما زال شفيق سائرا ومعه دليله حتى صارا مقربة من الابيض فقال له الدليل : «لا يمكننا المسير بهذا الزي بعد الان ، اذ لا بد لنا من التنكر في زي الدراويش» • وأشار عليه باخفاء غليونه لان التدخين به محظور على أتباع المهدي ، فعمل شفيق بمشورته • ثم انطلقا حتى لقيا جماعة قادمين من الابيض ، فعلما منهم ان المهدي خارج بموكبه ليخطب في رجاله الذاهبين لملاقاة العدو • فأحب شفيق مشاهدة ذلك الموكب

فوقف حتى جاء الموكب فانضم اليه ، ولما كان العصر سمع نقر الدفوف من بعيد ، وعلم ان هذا هو موسيقى الجيش المهدوي السائر الـــى الدويم ، وبعد قليل رأى أفواجا من الدراويش تسير مهرولة ، ويتقدمها اربعة يحمل كل اثنين منهم آنية كبيرة من النحاس شد عليها رق مـــن الجلد ، ومعهما ثالث ينقر عليها نقرات تقلق الاذن ولكـــن الدراويش يطربون لها • ووراء هذه الموسيقى خيالة علـــى أفراس بسرج عربية ؛ وعليهم لباس الدراويش المؤلف من جبة من نسيج السودان يقال لهـــا مرقعة لانها مرقعة بقطع مختلفة الالوان ، وعلى رؤوسهم عمائم بيضاء ملفوفة حول القش الابيض او القطن ، تسترسل من كل منها ذؤابـــة طويلة تتدلى على الصدر ، وحول أوساطهم مناطق من نسْج الدمور او القش يقال لها في لغتهم كربة • وهم حفاة ، وقليل منهم يحتذون نعالا تشدها على القدمين سيور من الجلد ، وحول أعناقهم سبحات مدلاة على صدورهم • اما اسلحة غالبيتهم فهي الرماح والحراب وسيوف مستطيلة ذات حدين أغمادها من الجلد الاصفر يعلقونها بأكتافهم ويحملون درقا من جلد بقر النهر ، وكبراؤهم يتقلدون خناجر معلقة بمناطقهم • وكان شفيق يسمع عن ملابس الدراويش فلم يعجب منها كثيرا ، ثم رأى القوم قد حطوا رحالهم ونصبوا بيارقهم الحمراء والبيضاء والزرقاء ، مكتوبـا على بعضها بالعربية (لا اله الا الله محمد رسول الله والامام المهـــدي خليفة رسول الله) • ثم تعالى النقر مرة اخرى فاصطف الفرسان فـــي ناحية والمشاة في اخرى ، وكان هذا الجيش مؤلفا من : الدراويش وهم سمر الوجوه ، ومن الجنود حملة البنادق وفيهم السود والسمر وهم حامية الابيض الاصليون ، ثم من العبيد خدم الدراويش وهم يلبسون شملات من قماش اصله ابيض من نسيج السودان يسترون بها عوراتهم وبعض صدورهم •

وعرف شفيق امراء ذلك الجيش بخيولهم المطهمة وبما يحدق بهم من الخدم ، وان كان لباسهم لا يختلف كثيرا عن ملابس بقية الدراويش .

ثم صاح القوم جميعا بصوت واحد قائلين : « في سبيل الله قتــل الكفار » . فخفق قلب شفيق وجلا ، ونــدم على تعريض نفسه للخطر ، لكنه تجلد واندس بين الصفوف منتظرا ما يكون ، فرأى كل أمير قــد وقف بجانب قبيلته ، ثم وقف احد هؤلاء الامراء على مرتفع هنــاك وفي يده كتاب ، فضج الجمع ، وصاح بعضهم قائلين : « اسمعوا ماذا يقول الخليفة محمد الشريف ؛ انه والله لأشبه بالامام علي عليه السلام » . فعلم شفيق انه احد خلفاء الخليفة الاربعة .

وكان محمد الشريف هذا مرتديا لبــاس الدراويش ، فلما سكنت الضجة نادى بأعلى صوته قائلا : « الفاتحة ايها المسلمون » . فقرأوا جميعا الفاتحة بصوت مرتفع ، ثم أنصتوا اليه ففتح ورقة كبيرة وقبلها ووضعها على رأسه ثم قال : « اعلموا ايها الاحباب ان هذا منشور من سيدنا الامام المهدي صلوات الله عليه ؛ وسأتلوه عليكم وهو :

(بسم الله الرحمن الرحيم ؛ الحمــد لله الوالي الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فهذا اعلام من عبد الله محمد المهــدي ابن السيد عبد الله ، الى كل المشايخ والامراء والنــواب والمقاديم والاتباع • يا عبــاد الله . اسمعوا ما اقــوله لكم وكونوا على بصيرة ، واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بهــا ، وهي ظهورنا بينكم مما هو شرف لكم يرفعكم على سائر الامم . والمطلوب منكم يا احبابنا هو المهاجرة والمجاهدة في سبيل الله ، مع الزهد في الدنيا فكل ما فيها الى البوار . فجاهدوا في سبيل الله ، فلهزة سيف مسلم في سبيل الله افضل من عبادة سبعين سنة ، وعلى النساء الجهاد اذا كن قاعدات وقد انقطع منهن ارب الرجال . امــا الشابات فليجاهــدن نفوسهن وليسكن

بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ، ولا يخرجن الا لحاجة شرعية ، ولا يتكلمن جهرا ، ولا يسمعن الرجال اصواتهن الا من وراء حجاب . وليقمن الصلاة ويطعن ازواجهن ويسترن ثيابهن . فمن قعدت كاشفة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطا ، ومن تكلمت بصوت عال فتضرب سبعة وعشرين سوطا ، ومن تكلمت بفاحشة تضرب ثمانين سوطا . ومن قال لاخيه يا كلب او يا خنزير او يا يهودي او يا فاجر أو يا سارق أو يا زاني أو يا كافر أو يا نصراني الخ ، فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة ايام . ومن تكلم مع اجنبية ليس بعاقد عليها في غير امر شرعي ، او حلف بطلاق او حرام يضرب سبعة وعشرين سوطا . ومن شرب الدخان او خزنه في فيه او أنفه يؤدب بثمانين سوطا ويحرق ما يوجد عنده منه ، ومن باعه او اشتراه ولم يستعمله يؤدب بسبعة وعشرين سوطا . ومن شرب الخمر ولو مصة يؤدب بثمانين سوطا ويحبس سبعة ايام . وكذلك من ساعد شارب الخمر بشربة ماء او اناء . ومجاهدة النفس في طاعة الله حقيقة اشد من الجهاد بالرماح ، لان النفس اشد فتنة من الكافر، فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه ، وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومسلكها تعب . ومن ترك الصلاة عمدا فهو كافر بالله ورسوله ويجب قتله ، وعلى الجار ان ينهى جاره عن اتيان المعصية، فان لم يقدر عليه فليكلم امير البلد ، فان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة ايام .

« واعلموا ايها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لاجل ان تشفقوا على الخلق وتهدوهم في الدنيا . ويزوج الفتى بعشرة ريالات مجيدية أو أنقص ، والعزبة بخمسة او أنقص . ومن خالف هذا ، فعليه الادب بالضرب والحبس بالسجن حتى يتوب او يموت في سجنه . ويكون مقطوعا من اهل زمرتنا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام » .

* * *

ما أتم محمد الشريف قراءة منشور المهـدي حتى ضج الجماهـير بالدعاء ، فقال شفيق في نفسه : « والله انها لتعاليم حسنة لا يأتي المتمدنون بأحسن منها » . ولكنه شعر بخطر موقفه فصارت ركبتاه ترتجفان واخذ يدبر وسيلة يتخلص بها اذا انكشف أمره ثم جعل يفكر في قيام المتمهدي وما تأتى له من الفوز ، وفيما هو في ذلك رأس الناس في جلبة واختلاط ، ثم علم انهم يستعدون لملاقاة المتمهدي وهم يتطلعون الى جهة الابيض ، فنظر واذا بالموكب قادم والمتمهدي في لباس الدراويش على جواد اصيل يحدق به الخليفتـان : التعايشي ، وولد الحلو . ووراءهم جماعة مـن الفرسان في لباس الدراويش غير ان مراقعهم اقصر لا تتجاوز ركبهم ويكاد يظهر من تحتها اسفـل سراويلهم القطنيـة وعلم بعد ذلك انهم جماعـة الملازمين اي خدم المتمهدي وكانوا سائرين وراء الخلفاء مطرقين احتراما ووقارا وبينهم العلم الخاص بالمتمهدي .

فلما وصل الموكب ترجل المتمهدي ، وترجل كل من معه ، ومشوا الى مرتفع هناك ثم تنحوا جميعا الا المتمهدي فجيء اليه بفرو من جلـد فرش امامه فوقف للصلاة ووقف الجميع صفوفا خلفه وبينهم شفيق ، وقد زاد اضطرابه لما شاهده من سعة نفوذ المتمهدي ، وخيل اليه انه لا يلبث ان يكشف امره فيقتل في الحال .

وبعد انقضاء الصلاة وقف المتمهدي فخطب في الامراء موصيا اياهم بالثبات ، وحول عنقه سبحة من خشب البقس مـدلاة على صدره ، ولم يكن في ملابسه ما يميزه عن سائر الدراويش الا كونها اكثر اتقانا واغلى قيمة . فأخذ شفيق يتأمل في هيئة هـذا الرجل الذي اقلـق دول اوربا وألقى في مجالسها الشقاق ، فاذا هو طويل القامـة ، خفيف العضل ، كبير العينين ، حسن الملامح كسائر الدنقلاويين أبناء وطنه . وآنس في وجهـه مهابـة ولطفا . ولفت انتباهـه الخال الاسود على خد المتمهدي ، فتذكر

ما كتبه الى السنوسي من ان ذلك الخـال هو علامة المهدويـة . وكان الحاضرون جميعا يقفون مطرقين صامتين وكلهم آذان لسماع الخطبة وقد جـاء فيهـا :

« ايها الاحباب من المقدمين والمشايخ والنواب والانصار ، اعلموا ان الله لو شاء سبحانه وتعالى ان يبيـد اهل الكفر ويستأصل شأفتهم من غير قتال لفعل ، كما ورد في الكتاب العزيز قوله تعالى : (ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوكم بعضكم ببعض) . وقوله : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) . فصار لا محيد للخلق عن امتثـال هذه الحكمة . فها انكم مرسلون لقتال الكفرة القادمين الينا من جهـات الخرطوم ، فعليكم ان تكونوا اهـل حزم ، وتشددوا العزائم والنيات ، وتسيروا بالهمم العاليات في نصرة دين الله ، وان تبذلوا نفوسكم واموالكم في سبيل الله كما عاهدتم الله ورسوله وبايعتمونا على ذلك ، ولا يحصل منكم ادنى فتور ولا توان عما انتم بصدده ، وضيقوا عليهم اشد التضييق (فعسى ان يأتي الله بالفتح او أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في انفسهم نادمين) . انتم على كلا الحالين من الفائزين . فخوضوا الغمرات شوقا الى الله ، والى جنة قصورها عالية وانوارها زاهية وانهارها جارية وقطوفها دانية » .

ولما أتم المتمهدي خطابه ضج القوم بالتهليل والتكبير ، ثم ركب مع حاشيته وعادوا الى الابيض ، فتراكض الدراويش الى موطىء قدميـه يمسحون وجوهم واعناقهم بالتراب الذي وطئه ويعفرون رؤوسهم به . وكان قد عهد في قيادة تلك الحملة الى الامير عبد الحليم ، وابي جرجة . ويبلغ عدد جنودها ثلاثة آلاف . ثم سارت الحملة الى الدويم ، وشفيق معها وقلبه يخفق بشدة مخافة انكشاف امره .

- ١١ -

اسير المتمهدي

اخذ شفيق بعد ان دخل الدويم يطوف بها مستطلعا احوالها ، فوجد منازلها مبنية بالآجر طبقة واحـدة ، وليست من طراز واحد ، وشاهـد بينها مساكن مصنوعة من القش يقال لهـا (تكول) يسكنها من لا قدرة لهم على البناء بالطين . ثم وصل الى ديوان الحكومة فاذا هو مبني بالآجر وفي وسطه فضاء يقيمون به الصلاة ، ولم يشاهد في الاسواق من أرباب الصناعة غير الحدادين والصاغـة . لان اكثر الاهلين يتعيشون بالتجارة في ريش النعام والصمغ والتمر هندي وسن الفيل وهم جميعا يشربون من آبار عميقة يبلغ عمق بعضها ١٧ قامة .

وكان شفيق قد ارسل دليله ليبحث عن منزل يبيتان فيه ، فعاد الدليل مصحوبا بزمرة من الدراويش ، وما وقعت اعينهم على شفيق حتى قبضوا عليه واوثقوه وساروا به الى ديوان الحكمدارية حيث مجلس المتمهدي ، فلما بلغوا الديوان تصدى له بعض الامراء واخذوه الى الخليفة ، فلمـا رآه توسم في وجهه النباهـة وعجب من جرأته فأحـب ان يراه المتمهدي نفسه ، فأوقفه خارج قاعة المتمهدي ، حتى استأذن في ادخـاله عليـه ، ثم ادخل القاعة فاذا المتمهدي قد جلس فيهـا على عنقريب وبين يديـه الامراء جالسين الاربعـاء خافضي الرؤوس في احترام ووقار والسكوت مستول على تلك القاعة .

وكان شفيق قد ايقن بالهلاك وعلم انه اسر بدسيسة من دليله ، لكنه تجلد واخذ يفكر في وسيلة للنجـاة ، فلما وصـل الى مجلس المتمهدي واوقفوه بـين يديه ، شعر بعظم هيبة ذلك الرجل وسطوته ولكنه تجرأ

ووقف وهو لا يزال في لباس الدراويش ينتظر امر المتمهدي فخاطبه هذا قائلا : « ما الذي جاء بك الى هذه الديار ؟ » .

فقال شفيق : « جئت بقضاء من الله سبحانه وتعالى » .

قال : « ألا تعلم اننا لا نؤخذ بالدسائس وقد نصر الله دعوتنا ومنحنا الغلبة على القوم الكافرين ؟ » .

فقال شفيق : « ان القدرة لله يهبها لمن يشاء من عباده » .

فأعجب المتمهدي جوابه وقال : « ولكن الله يقـول : (ولا تلقـوا بأيديكم الى التهلكة) . فلم فعلت هذا بنفسك ؟ » .

قال شفيق : « صدق الله العظيم ، وهو سبحانه يقول ايضا : (من آمن بالله وباليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)..»

فقال المتمهدي : « اتعلم انك الآن في قبضة يدنا ولو اردنا قتلـك لما كلفنا ذلك غير اشارة ؟ » .

قال : « نعم اعلم ذلك ، واعلم ان الموت والحياة بيد الله » .

فقال : « قد كنت عازما على قتلك ، ولكن اعجبني ايمانـك ، فهل انت مؤمن بما دعانا الله تعالى اليه من المهدوية ؟ أم انت على ما اصحابك عليه من الكفر المبين ؟ » .

قال : « اذا اذن لي مولاي ، قلت : ان الكفر ليس مـن اوصـاف الموحدين ، وما في اصحابي الا كل موحد يؤمن بالله وبرسوله وبيـوم الديـن » .

قال : « انك تستحق القتـل بمقتضى الشرع لانك جاسوس جـاء يستطلع احوالنا ، وقد جاء بك الينا من نال اجره في الدنيا وفي الآخرة ، على اننا سنبقي عليك عسى ان تفيدنا بشيء » .

قال : « لله الامر يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير ، ولو قدر الله قتلي ما أمسكت عنه فان كل شيء بقضاء وقدر ، وانا لم اعمل الا ما

استوجب من اجله الثناء لاني قمت بأمر مـولاي كما قام رفيقي هـذا (واشار الى دليله) بأمر مولاه . وقد قال الله في كتابه العزيز : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم) .. » .

فقال المتمهدي : « خذوه الى السجن موثقا حتى نبت في أمره » .

فقال شفيق : « حيى الله مولانا وبياه ، ان الوثاق لا يزيد شيئـا في الحجر علي ، لاني لو اطلقتم سبيلي ما استطعت العود وحدي ، فاتركوني محلول الوثاق . لعلي استطيع خدمة لكم » .

* * *

ازداد شفيق كرامة في عيني المتمهدي ، فأمر بعض من في حضرته ان يذهب به الى حجرة يبقى فيها تحت الحجر ، فخرج شفيق ينفض غبـار الموت عن وجهه وقعد يندب سوء حظه ويلعن ذلك الخائن الذي خانه وألقاه في هذا الضيق .

وذهبوا به الى حجرة ينام فيها بعد ان جاءوه بالطعام فتناول بعضه ، ثم تركوه في الحجرة وقد اظلمت الدنيا فجلس على الارض وافكاره تتقاذفه كخشبة تتقاذفها الامواج ، واخذ يتأمـل فيما مر به من الاخطار ومـا يزال يخشاه ، وخطرت بباله فدوى فخفق قلبه وجـلا عليهـا لئلا تحزن على طول غيبته ، واشتد به الشوق حتى بكى واراد ان يخـرج الصورة لمشاهدتها ولكنه ادرك انه في ظلمة اذا أخرج يده فيها لم يكد يراهـا ، فاكتفى بلمس الصورة وتقبيلها ، وظل ليلته يبكي ويخاطب نفسه نادبـا سوء حظه ، طالبا الى الله تعالى ان يخفف حزن والديه وخطيبته .

وفيما هو في ذلك وقد مضى معظم الليل سمع وقع اقـدام عند باب الحجرة وصوتا منخفضا يقول : « لا تخف يا اخي ولا تجزع » . فاقشعر بدن شفيق واسرع الى اخفاء الصورة وقال : « من انت » . قـال : « اني

صديق لك فلا تخف » . فأمل شفيق في ذلك خيرا فسكت برهة واذا بذلك الرجل قد دخل بعد ان اشعل قطعة خشب ووضعها في منتصف الحجرة ليستضيء بها ، فتأمله فاذا هو اسمر البشرة تدل ملامحه على انه مصري الاصل ولكنه في لباس الدراويش ، فأوجس شفيق خيفة وظهر ذلك على وجهه فابتدره الرجل هامسا في اذنه قائلا : « لا تخف يا اخي ، اني لست درويشا الا في الظاهر ولم اتقلد هذه الملابس الا مرغما ، فطب نفسا وعسى ان ينجيك الله على يدي » .

فقال شفيق : « ومن انت ؟ » . قال : « كنت قبل سقوط الابيض من مستخدمي الحكومة فيها فلما سقطت في قبضة المهدويين ، ولم ار بدا من التظاهر بدعوتهم حفظا لحياتي فأحبوني حتى دخلت في خدمتهم فاتخذني الامير عبد الحليم كاتبا له . واسمي حسن » . قال هذا وسارع الى الخشبة المشتعلة . فأطفأها وقال : « ان الظلام خير لنا لئلا يأتي الينا احد فيعود ذلك وبالا علينا » .

فقال شفيق : « قد سمعت اليوم ان الحملة سائرة بقيادة الامير عبد الحليم فهل انت ذاهب برفقته ؟ » .

قال : « نعم سنسافر بعد غد ان شاء الله ، ولكني لا اخفي عليك اني ذاهب رغما عني ، اذ لا يسعني غير ذلك . والآن يجب ان اتخذ وسيلة انقذك بها من الخطر ، لان المهدي لا بد ان يأمر بقتلك ، فهو قلما يثق بغير الدراويش . وسأبذل الجهد في انقاذك ، ولا اريد ان اسألك عن احوال حملة هيكس باشا لاننا قد عرفنا عنها كل شيء ، اذ ان جواسيسنا منبثون في سائر الانحاء . وارى ان نجعلك من الدراويش فتسير معهم حتى يقدر لنا الفرار والعودة الى بلادنا ، فاننا ان لم نفعل ذلك قتلنا لا محالة » .

فلما سمع شفيق ذلك تحقق اخلاص الرجل فقال له : « اني فاعل ما

تأمرني به ولن انسى فضلك ، فماذا افعل ؟ » .

قال : « ان المهدي امر الامير عبد الحليم بأن يقتلك قبل مغادرته هذه المدينة ، وسيدعوك غدا لاجل ذلك على اني سأفعل ما يجب علي كي انقذك واضمك الى حملتنا فنسير معا حتى يمن الله علينا بالفرج » .

فتنهد شفيق وقال : « ان الموت لا يخيفني ، ولكني اضن بحياتي لاجل من هم احب الي منها ، وهل في هذه المدينة لحد غيرك من المصريين ؟ » .

قال : « فيها كثيرون ، جلهم من رجال الحامية الذين اصيبوا بمثل ما أصبت فانضموا الى المهدويين ، وفيها ايضا رجل افرنجي يقال له الاب بونومي كان راهب دير في جبل دلن من جبال نوميا جنوبي كردفان، فلما حاصر امراء المهدي ذلك الدير واستولوا عليه جيء به الى هنا ، وهو لا يزال تحت الحجر ، وهناك غيره كثيرون » .

فتأوه شفيق وكاد ييأس لكنه تجلد وقال في نفسه : « ان الرجل من احتمل المشاق والاخطار ، ولله الامر يفعل ما يشاء » .

وبعد ان امضيا وقتا في الحديث ، نهض حسن للعودة الى المعسكر ، وانصرف بعد ان اعطى شفيقا ملابس ليرتديها تنكرا في زي الدراويش وهي المرقعة والعمامة والسبحة .

* * *

في صباح اليوم التالي قام الدراويش للصلاة ، ثم جاء احدهم يدعو شفيقا الى مقابلة الامير عبد الحليم .

وكان حسن قد بكر بالذهاب الى الامير كعادته ، وتظاهر بالاضطراب والقلق ، فلما سأله الامير عما به قال : « رأيت حلما هذه الليلة اقلقني ولا اعلم تفسيره » . قال : « ما هو ؟ » .

قال : « رأيت ايها الامير كأني جالس في مجلسك فجاء الى المجلس شيخ بملابس اندراويش كبير السن عظيم الهيبة واسع اللحية ، ولما رأيناه سقطنا على وجوهنا فقال لك : (لا تخف يا عبد الحليم اني الشيخ البصير، ولم آت لادعوكم الى المهدوية ، ولكني جئت رجلا حل بينكم لعله ينفعكم). ولما قال ذلك رفعت وجهي لعلي أراه فشعرت كأن الشمس تلمع امام عيني فلم ار شيئا وللحال استيقظت مذعورا » .

فقال الامير عبد الحليم : « كرم الله وجه الشيخ البصير ، انه جد مولانا الامام المهدي ، وكثيرا ما يتراءى له ويخاطبه ، فلا تخف انه حلم ليس فيه شر » .

ثم نادى الامير تابعا له لاحضار شفيق ، فلما حضر بين يديه ، عجب نرؤيته في ملابس الدراويش ، وسأله : « ما هذا ؟. وما الذي ألبسك هذه الثياب . الا تعلم انك قد دنستها لانها لباس كرام الرجال الاتقياء ؟ » .

فأشار شفيق بيده الى السماء وقال : « اني لم ألبس هذه الثياب الا بأمر ممن لا بد من طاعته » .

فقال الامير : « ومن امرك بذلك ؟ » . قال : « قد رأيت يا سيدي حلما سرني كثيرا ، وذلك اني رأيت رجلا عظيم الهيبة كبير السن عريض اللحية ، جاءني وفي يده هذه الملابس وقال لي : (انك لم تأت هذه الديار الا لتكسب آخرتك وتصلح دنياك ، فقم الى دعوة الامام المهدي خليفة رسول الله) . ثم علمني آية واوصاني ان اتلوها تكرارا وهي : (لا اله الا الله محمد رسول الله والامام المهدي خليفة رسول الله) . فحفظتها ولكني سألت الشيخ عن اسمه فلم يشأ أن ينبئني به واكتفى بأن قال : (اني مصدر الهدى والصلاح لكل المؤمنين) . ثم رأيت كأن الشمس خارجة من باب الحجرة ، ولما استيقظت رأيت هذه الملابس بجانبي ، فآمنت بصحة الرؤيا، وارتديتها ولبثت اكرر الشهادة السابق ذكرها حتى جاءني رسول الامير

فجئت معه » .

فعجب الامير عبد الحليم لذلك الاتفاق ، واستنتج من اتفاق الحلمين انهما صحيحان ، وبعث الى المهدي بذلك فقال : « انه ممن اختارهم الله لدعوتنا فلا تقتلوه بل ولوه منصبا يليق بعلمه ومعارفه ! » .

فلما جاء الامر الى عبد الحليم بطلب ذلك سأل كاتبه حسنا ان يمتحن الرجل ويرى ما يصلح له ، فامتحنه وابلغ الامير انه يعرف الكتابة والرطانة باللسان الاجنبي فأمر ان يضم الى كاتبه ويرافقه في الحملة .

وكان حسن هو الذي لقن شفيقا ان يقول ما قاله للامير عبد الحليم .

- ١٢ -

مصرع هيكس

انضم شفيق الى معسكر الامير عبد الحليم وهو بملابس الدراويش، وكان ذلك غاية ما يريد لانه استأنس بحسن وتوسم فيه الخير .

وفي اليوم التالي سارت الحملة بجمالها وخيولها ، وقد عجب شفيق لقلة انتظام ذلك الجيش ، وكان مع كل درويش فروة خروف يستخدمها للجلوس والصلاة والرقاد . وما زالت الحملة سائرة حتى وصلت (ابوجوى) . وهناك التقوا بجيش هيكس باشا . وكان قد عسكر هناك ليجمع اليه بعض القبائل البدوية تعزيزا له ، ولا علم لهيكس ورجاله بشيء عن جيش الامير عبد الحليم .

وحاول شفيق ان يفر الى معسكر هيكس ولكنه لم يستطع ذلك لبعد

المسافة . ثم ارسل الامير عبد الحليم حسنا الى المهدي مستأذنا في الحرب ، فأمره بألا يفعل ، بل يتبع الحملة في خور ابي حبل حتى بحيرة الرهد ، وهناك تصل اليه الاوامر الاخيرة .

وكان هيكس بعد ان فارقه شفيق قد جاء الدويم وتفاوض مع زميله علاء الدين باشا في اي الطريقين يتخذان طريق خور ابي جبل ؟ ام طريق بارا . فكان من رأي علاء الدين اتخاذ طريق الخور لانها كثيرة المياه وان كانت بعيدة الشقة . فسارت الحملة حتى جاء نورابي اول الخور في ٨ اكتوبر ، ثم سارت الحملة من نورابي الى جلبن هار في الخور ايضا ، ولكنهم علموا هناك ان جنود المتمهدي تتعقبهم فندموا على قطع خط الرجعة بينهم وبين الدويم ، ولكنهم ما زالوا سائرين واملهم في الحياة يقل يوما بعد يوم ، لانهم رأوا انفسهم محاطين بالعدو من كل ناحية . فضلا عن وقوع النفور بين القائدين هيكس وعلاء الدين وما زالوا بين حل وترحال حتى القوا عصا التسيار في بحيرة الرهد ، فحطوا رحالهم وتحصنوا هناك، واخذوا يتفاوضون في امر الجهة التي يسيرون منها الى الابيض، لان الخور هناك ينفصل الى فرعين : احدهما يتصل بمحلة البركة ، والآخر يتصل بمحلة كشجيل . وهذه اقرب الى الابيض . فبقيت الحملة في رهد ستة ايام ، وشاهدوا في اليوم الخامس بعض العربان على الضفة الاخرى من البحيرة فظن علاء الدين انهم الرجال الذين جمعهم الشيخان اللذان ارسلهما لجمع النجدة فشد منديلا الى عصا وجعل يلوح لهم بالمجيء ، فلم يبالوا وملأوا قربهم ماء وعادوا من حيث اتوا ، فبعث هيكس في اثرهم بعض الفرسان فعادوا واخبروا بأنهم رأوا عددا كبيرا من العدو معسكرين بين الشجر . وبعد ستة ايام سارت الحملة قاصدة البركة فوصلت الى محل على ثمانية اميال من الوبا . ومن هناك بعث هيكس جاسوسا الى الابيض يستطلع قوة المتمهدي . وفي اليوم التالي ساروا الى الوبا ، وفيها كثير من

الماء فبقوا هناك حتى يرجع الجاسوس ، وارسلوا جاسوسا آخر ليستطلع احوال البركة ، ولم يمض اربعة ايام حتى عاد الجاسوس من الابيض ومعه كتاب من المهدي لقواد الحملة يدعوهم فيه الى التسليم ، وبعد قليل جاءهم الجاسوس الآخر وذكر ان العدو جاء قاصدا البركة لملاقاة جيش هيكس . فوقع هيكس في حيرة وتشاور مع رجاله في اي السبل يسلكونها الى الابيض بحيث لا يلتقون بالدراويش في البركة ، فأجمع الرأي على ان تكون طريقهم عبر كشجيل، على ان يأخذوا معهم ما يكفيهم من الماء يومين.

سارت حملة هيكس في اليوم الثالث من نوفمبر قاصدة كشجيل . وبعد مسيرة عشرة اميال في غابات موحشة وقفوا وقد وقع الرعب في قلوبهم خوفا من ان يكونوا قد تاهوا عن الطريق ، وكان الخبراء الذين معهم من الاسرى مكبلين بالقيود خوفا من فرارهم ، وفي اليوم التالي ساروا قاصدين غابة شيكان بين البركة وكشجيل .

وفي تلك الغابة كانت جنود ابو عنجر ، اما المتمهدي فكان قد علم باعتزام هيكس المسير الى كشجيل ، فسار لملاقاته في طريقه الى شيكان ومعه الخلفاء الثلاثة ، وابن النجومي وغيرهم . وشفيق لا يزال في جيش عبد الحليم الذي يتبع خطوات الحملة ، وقد ايقن بأن فوزها لم يعد ممكنا لما علمه من استعداد المهديين ، ولكنه كان ينتظر فرصة يستطيع فيها افادة هيكس باشا بشيء ، وقلبه يكاد ينفطر كلما تصور الخطر الذي احدق بتلك الحملة المنكودة الحظ وفيها نحو ١١ ألفا من الرجال ، كأنما ساقتهم الاقدار ليكونوا طعاما للوحوش في تلك البيداء .

فلما هيأ المتمهدي جنده على هذه الطريقة ، جمع امراءه ليبلغهم الاوامر الاخيرة ، وصلى بهم اولا ، ثم قرأوا الفاتحة ، وبعد ذلك رفع يديه الى السماء واخذ يقرئهم الدعاء التالي :

« اللهم لا عيش الا في دارك ، ولا نعيم الا في لقائك ، ولا خير في

غيرك ، ولا نصر الا من عندك ، بك الحياة وبك الممات ، وبك التقلبات ، واليك المصير » .وكان الجميع يرددون ذلك الدعاء في خشوع . ثم استل المتمهدي سيفه وقال : « الله اكبر لا تخافوا ان النصر لنا » . ثم اصـــدر أمره بالهجوم على الحملة . وكانت قد وصلت الى غابة شيكان بين البركة وكشجيل ، فهجم عليها المختبئون في تلك الغابة ، ثم هجم المتمهدي برجاله من الجهة الاخرى ، وجاء عبد الحليم من الوراء ، والتحم الفريقان يقتتلان بالسلاح الابيض . واراد شفيق ان يسير الى هيكس لعله يستطيع اغاثتــه فلم يدركه الا مقتولا بسيف الخليفة محمد الشريف . وانتهى الامر بابادة الحملة عن آخرها ما عدا حوالي ثلاثمائة جندي، اخذهم الدراويش اسرى.

وكان المتمهدي وقواده في فرح لا مزيد عليه بعد هذا النصر ، وشغل الدراويش بالغنائم، وطاف شفيق بالقتلى فاذا بالجثث متراكمة تلالا والدماء جارية انهارا ، ومر بجثة هيكس فوجده قد صرع بحربة اصابته في صدره ، وشاهد علاء الدين باشا في مثل ذلك ، فكاد قلبه ينفطر لتلك المناظر ، لكنه تجلد مخافة افتضاح امره . وفيما هو في ذلك رأى الناس يهرولون الى مكان المتمهدي فسار في اثرهم ، واذا بالاسرى الذين قبض عليهم قــد اوقفوا في بقعة من الارض موثقين وعلى وجوههم علامات الشقاء والتعب والجوع والعطش ، فسأل عما دعاهم الى ذلك فقيل له انهم سلموا انفسهم وأحبوا مبايعة المهدي ، فوقف شفيق ليسمع المبايعة فاذا بمحمد احمد قد جيء له بالفرو فصلى بمن معه ، ثم وقف احد الخلفاء يلقن الاسرى سورة المبايعة وهم يرددونها بعده حانين رؤوسهم اجلالا ، وهي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بايعنـــا الله ورسوله ومهديه ، بعنـــا أرواحنا واموالنا وعيالنا في سبيل الله ، فلا نهرب من الجهاد ، ولا نزني ، ولا نسرق ، ولا نشرب الخمر ، ولا نعصيه في معروف » .

وبعد قليل اخذ الامراء والمقدمون في احضار الغنائم الى ما بين يدي

المتمهدي ، فأمرهم بأن يأخذوا خمسها له ، ويفرقوا ما بقي على الامراء والمقدمين حسب المعتاد . وكان في تلك الحملة من الغنائم ما لا يحصى عدده من الثياب والدراهم . اما الاسلحة والمدافع فأخذت الى بيت المال .

وبعد الاستراحة عاد الجميع غانمين فائزين قاصدين الابيض، وغادروا جثث رجال الحملة المنكودي الحظ ملقاة على الرمال وبين الاشجار .

فلما وصل الجيش المنتصر الى الابيض اطلقت المدافع تحية له ، ودخل المدينة باحتفال عظيم .

* * *

مكث شفيق في الابيض بعد ذلك حينا وهو يترقب فرصة لعله يستطيع العودة الى الخرطوم ، ولكنه لم يكن يستطيع الفرار وحده لانه لا يعرف الطريق فضلا عن انه لا يأمن غائلة انصار المتمهدي اذا كشفوا امره. فلبث صابرا على مثل الجمر ، وقلبه لا ينفك مشتغلا بوالديه وحبيبته ، ولا عزاء له الا صورة فدوى يتأملها كلما خلا الى نفسه ويطلق لدموعه العنان حتى يشفي غليله ، ثم يعود الى التفكير في وسيلة لنجاته من تلك الاصقاع والعودة الى الديار المصرية ، او على الاقل في ارسال كتاب يبشر اهله ببقائه على قيد الحياة .

وكان حسن يجتمع به احيانا فيتحادثان في شؤون كثيرة اخصها تدبير الوسائل للخروج من ذلك السجن فكان شفيق لا يظهر ملله من تلك الحال خيفة ان ينسب اليه الجبن او ضعف العزيمة .

وكان يترقب ورود جواسيس المتمهدي ليطلع منهم على حركات الحكومة المصرية ومقاصدها بعد انكسار حملة هيكس ، فلم يكن يسمع الا باتساع سلطة المتمهدي وانتشار نفوذه في الاقطار السودانية ، فلم يمض بعض سنة ١٨٨٤ حتى أصبح معظم السودان على دعوته ، وسلمت

له مديريات : دارفور ، وكوردفان ، وبربر ، وبحر الغزال ، وغيرهـا . ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية الا بعض المدن التي فيها حاميتها كالخرطوم وسنار وكسلا وسواكن، وبعض المدن فيخط الاستواء.

واخيرا علم شفيق من اخبار الجواسيس ان الحكومة الانجليزيـة اشارت على الحكومة المصرية بأن تخلي السودان ، فيئس من العودة الى مصر واخذ يندب سوء حظه ويأسف على ما ساقه الى تلك الحالة وقـد كان في غنى عنها .

وفي صباح يوم من ايام سنة ١٨٨٤ رأى في منامه فدوى وقد شفها السقام حتى اشرفت على الموت . فاستيقظ مرتعبا وتناول صورتها واخذ يقبلها ويبكي بكاء مرا حتى كاد يغمى عليه . على انه لم يكن يستطيـع التمادي في اظهار عواطفه خوفا من انكشاف امره .

وفيما هو في ذلك سمع وقع اقدام خارج الحجرة ، فذعر وسارع الى اخفاء الصورة وكظم ما به ، ثم التفت الى الباب فاذا بصديقه حسن قادما اليه وعلى وجهـه امـارات السرور ، فاستبشر وسـأله : « مـا وراءك يا حسن ؟ » .

قال : « ابشر بقرب الفرج يا عزيزي » .

فقال شفيق : « من لنا بالفرج ونحن هنا ، ودون الوصول الينـا خرط القتاد ؟ » .

فقال حسن : « ليس شيء على الله بعسير ، وقد قررت الحكومـة الانجليزية ارسال غوردون باشا الى هذه الديار لاخماد الثورة وتـلافي الاحوال وانا واثق بأنه سيفوز باذن الله » .

فقال شفيق : « ومن قال لك ذلك ؟ » .

قال : « اتظن المهدي غافلا عن استطلاع احوال عدوه ، ان له في مصر نفسها جواسيس يبعثون اليه بالكتب والاخبار عن كل احوال البـلاد ،

وقد جاءنا امس رسـول بكتاب من احـد اعيان الصعيد ينبيء بعـزم الحكومة الانجليزية على ارسال غوردون باشا بـلا جيش لتدبير هـذه المسألة » .

فقال شفيق : « كيف يمكن تلافي الاحوال وقد آمن بالمهدي اهـل السودان كافة ، وهو لا يقبل الا ان يمنح كل مطالبه ، وهي تقضي بزوال السلطة المصرية ، بل الرجل طامع في عرش مصر بـل في عرش الخلافـة بالاستانة . وان شئت فقل انه لا يقنع الا بفتح العالم ، ولا سيما بعد ان ساعدته المقادير وانتصر في وقائع عدة . ولا يخفى عليك ان ما حل بجيش هيكس المنكود الحظ لم يكن الا تنشيطا لمشروع هذا المتمهدي ، لانـه صرح في منشوراته الى اتباعه بأن من علامات المهدوية عدا الخال الذي على خده ان النصر يرافقه حيثما توجه ، وان علما ابيض يتقدمه حيثما سار لجهاد ، وقد رأيت ان جميع حروبه جاءت بنتائج أيدت دعواه ، فاذا راجعت تاريخ ظهوره منذ كان فقيها يعلم الناس الصـلاة والعبـادة في جزيرة أبا حتى بلغ نفوذه هذا المبلغ وانتشرت سطوته في سائر اقطـار السودان ، رأيت ان المقادير كانت تساعده وتوفق مساعيه تأييدا لدعوته . فاذا كانت الحكومة لم تقدر على تلافي خطر المتمهدي عند اول دعوته في جزيرة أبا وهو وحيد ليس حوله الا قليل من طلبة العلم ، فكيف تستطيع ذلك الآن بعد ان ثبتت دعواه لدى اهل السودان اجمع ؟ » .

فقال حسن : «لا انكر استفحال امر هذا الرجل لاستخفاف الحكومة المصرية به اول الامر حين ظهر بدعوتـه في جزيرة أبا ، اذ بعثـت اليه حكمدارية الخرطوم نفرا من العلماء يأتون به اليها فأهانهم ، ثم بعثت اليه نفرا قليلا من الجند فقتل معظمهم ، وظلت الحكومة مستخفة به ، بينما واصل هو نشر دعوته بين اهل السودان متظاهرا بأن قصده الوحيد نصر الاسلام ، وانقاذ المسلمين مما حاق بهم من الاستبـداد لاهمالهم فروض

دينهم . فكان هذا داعيا الى التفاف العامة حوله حتى آل الامر الى ما ترى ، ولكن لا يخفى عليك ان غوردون باشا لا يقل اعتبارا في عيون اهل السودان عن المهدي ، لانه حين تولى حكمدارية السودان اظهر من العدل والحنو والرأفة واللطف والدعة ما حببه الى الناس ، ولا سيما بعد أن ألغى في عهده بيع الرقيق ، ولهذا ارجو انه اذا جاء الآن لا يعجز عن تلافي مسألة المهدي بوجه من الوجوه » .

فأطرق شفيق مفكرا وقال : « ان غوردون باشا حرر السودانيين من الرق حقا ، ولكن امر المهدي قد استفحل بعد ان بايعوه على الطاعة والجهاد . ورأوا من انتصاره في الحروب ما أيد دعوته . ولا تنس انه استحوذ على عقول اكثر القواد السودانيين مثل : ولد النجومي . وابي عنجر . وابي جرجه . فضلا عن خلفائه : ولد الحلو . وعبد الله التعايشي. ومحمد الشريف . وقائده عثمان دقنا الذي اتى بالمعجزات في حروبه بالسودان الشرقي ، وغير هؤلاء من القواد العظام . على اني لأعجب غاية العجب من ارسال غوردون باشا وحده في هذه المهمة التي قصرت دون حلها الجيوش . وكان على الحكومة المصرية اذا ارادت قهر هذا الرجل ان ترسل اليه جيشا منظما مخلصا لها كجيش هيكس باشا الذي كان معظمه من الجنود العرابيين » .

فقال حسن : « ما اظن ان الحكومة المصرية تعجز عن ذلك ، ولكنها لا تستطيع ان تفعل غير ما تشير به دولة انجلترا ، فانها هي التي اشارت عليها باخلاء السودان وارجاع الحامية من الخرطوم وغيرها ، ولما لم توافقها الوزارة المصرية اصرت على وجوب الاخلاء فاستعفت الوزارة الشريفية وخلفتها الوزارة النوبارية ووافقت على اخلاء السودان ، فأنفذت انجلترا غوردون باشا لكي يسترجع الحاميات ويعيد حكم السودان الى ما كان عليه قبل ان يفتحه محمد علي باشا » .

فقال شفيق : « هب كل ذلك صحيحا ، فما الذي يترتب عليه من النفع لنا ، اذا كان غوردون آتيا لاسترجاع الحاميات فليس هنا حاميات نرجع معها ! » .

فقال حسن : « فلنتوكل على الله والله مع المتوكلين » . ثم عـاد حسن الى بيته ، وعاد شفيق الى هواجسه .

ثم انتبه بغتة والتفت الى ما حوله قائلا : « ما لي ولهذه الهواجس ، انني هنا في بلاد الحرب والقتال ، ولا بـد لي من الصبر والجلد والحزم شأن الرجال » .

وألقى بنفسه على العنقريب لعل النوم يخفف ما ألم بـه من التعب بسبب تلك الهواجس .

وما لبث قليلا حتى سمع نقرات الدفوف اشارة الى عرض الجند ، فخرج بلباس الدراويش الى ساحة العرض خارج المدينة ، وهو يفكر فيما عسى ان يكون سبب ذلك ، وفي الطريـق لقيه حسن فسأله عن السبب فقال : « تسهل وستعلم كل شيء عما قليل » . فخفق قلبه وخاف ان يكون في الامر ما يخشى منه . وما ان انتهى العرض وعادت الجيوش الى اماكنها حتى سار بجانب حسن ، حتى بعدا من الجمع فقال له حسن : « ألم تشاهد الرجل الذي جاءنا اليوم محاطا بالحراس » . قال : « نعم ولعله اسير » . قال : « لا ... ولكنه رسول من غوردون باشا ارسله من الخرطوم » .

فقال شفيق متلهفا : « وهل جاء غوردون الى الخرطوم ؟ وماذا يريد بهذه الرسالة ؟ » .

قال : « انه بعث يؤكد للمهدي انه جاء لانقاذ المسلمين وفتح طريق الحج الى بيت الله الحرام مظهرا رغبته في توطيد دعائم السلم ، وطلب الى المهدي ان يطلق سراح من في حوزته من الاسرى النصارى والمسلمين من رعايا الحكومة ، على ان يعين في مقابل ذلك مديرا لكردفان » .

فقال شفيق : « وهل تظن المهدي يجيبه الى طلبه ؟ » .

قال : « يا حبذا ذلك ؛ لاننا نكون ممن يطلق سراحهم ، ولكني لا أظنه يقبل بعد ان اتسع نطاق سطوته ونفوذه ؛ ولذلك رأيته قد امر بعرض الجيش امام الرسول ليبين له قوته » .

فقال شفيق : «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وماذا ترى؟»

قال : « ارى انه لم يكن من حسن السياسة ارسال غوردون وحده من اقاصي الغرب الى اواسط افريقية لبخمد ثورة المهدي التي جعلت السودان شعلة ثورة بلغ لهيبها اقاصي افريقيا بل لقد مس شعاعها اقطار آسيا . وسيرفض المهدي ذلك الطلب . ولا سيما بعد ان ايقن بالفوز واعتاد رجاله النصر والاستخفاف بالحكومة المصرية. وزد على ذلك ان السودانيين يكرهون الجنس التركي . وهم يرون كل من لبس الطربوش تركيا . واذا تأملت فيما كتبه غوردون الى المتمهدي فسترى انه مما يزيده طمعا في النصر والاستخفاف بعدوه ؛ فهو قد اساء الى الحكومة المصرية بقتل حامياتها وسلب حقوقها ؛ ولكنها بدلا من ان تقتص منه بعثت على لسان غوردون تكافئه بتوليته كوردفان ! »

فقال شفيق : « لنصبر الى الغد لعلنا نصيب خيرا باذن الله والله مع الصابرين » . ثم افترقا ومضى كل منهما لشأنه .

وامضى شفيق ليلته مسهدا يدعو الله ان يجيب المهدي طلب غوردون لتتاح له العودة الى مصر ورؤية فدوى . ثم لاح له انه حتى لو رفض المتمهدي ذلك الطلب قد يستطيع ارسال كتاب الى فدوى او والديه مع رسول غوردون .

وفي الصباح توجه الى حسن وسأله عما انتهى اليه رأي المتمهدي في خطاب غوردون ، فقال حسن : « لقد رفض كما توقعت وكتب الى غوردون مؤكدا انه لم يقم بجهاده رغبة في الدنيا ولا ليتولى كوردفان او

غيرها ، وان النصر مقدور له لان النبي (صلعم) بشره بسقوط كل من يناوئه . ثم طلب من غوردون نفسه ان يؤمن بدعوتـه وينتظم في سلـك الدراويش ، وبعث اليه مع الرسول صرة بها جميع ما يحتاج اليه الدرويش من الملابس ! » .

فقال شفيق : « ومتى يسافر الرسول ؟ » . قال : « يسافر في صباح الغـد » .

فتساقطت عبرات شفيق على الرغم منه وسكت ، فابتدره حسن سائلا عما ابكاه ، فقال : « تذكرت والدي اللذين ربياني بدموعهما وضحيا بكل شيء من اجلي ، وهما الآن ولا شك يحسبانني في عالم الاموات وقـد لبسا علي الحداد » .

فقال حسن : « اننا جميعا في مثل هـذا المصاب يا اخي ، وهـذا قضاء الله » .

فتنهد شفيق وقال : « ان بقائي هنا دون علم والدي يقضي عليهما لا محالة ، فأنا وحيدهما وقد علقا آمالهما بي ، وكنت اذا غبت عن البيت ساعة قلقا لغيابي . فكيف يكون حالهما وقد جئت الى هذه الديار مع حملة علما بأنها بادت عن آخرها ؟ » .

فقال حسن : « لعلك تريـد ان تبعث مع رسول غوردون بكتاب الى والديك ؟ » .

قال : « حبذا ذلك » . فقال : « هذا امر عسير جدا ، لان الرسول محجور عليه ولا يباح لاحد ان يخاطبه في شيء ، ولكن اكتب الخطـاب فلعلي اجد وسيلة لارساله مع من سيصحبون الرسول في عودته من رجال الامير عبد الحليم . ولكن يجب عليك ان تختصر الكتاب ما امكن ، وتطويه بحيث يستطيع الرسول اخفاءه في ثنايا ثوبه او نعله » .

فشكره شفيق وجاء بورقة في حجم الكف وكتب فيها يقول :

« سيدي الوالدين . اكتب اليكما من الابيض حيث قدر لي ان اكون في عداد الدراويش في أمن وسلام لولا البعد عنكم ، ولا ادري متى يتاح لي الرجوع ، فاصبرا حتى يأتي الله بالفرج ، واكتبا الي مع حامل كتابي هذا ... شفيق » .

ثم فكر في امر فدوى وخجل ان يذكرها في كتابه : فلا يكون ابوه قد علم بأمره معها بعد ، او يكون غير راض عن خطبتهما ، واخيرا رأى ان يوجه الكلام عن فدوى الى والدته فكتب تحت ذلك الكتاب حاشية قال فيها : « ارجو من والدتي ان تخبر فدوى بأني باق على العهد ، فاذا رأت سعادتها في البقاء عليه فبها نعمت ، والا فهي في حل من امرها ، والامر لله».

ثم طوى الكتاب ودفعه الى حسن ليسلمه الى الرسول ، واعطاه له عشرين ريالا على ان ينقّده ضعفها حينما يأتي بالجواب . وجعل العنوان على قنصلية انجلترا بالقاهرة ، فان لم يجـد الرسول اباه هنـاك ، سلم الكتاب لوالد فدوى في بيته .

فأخذ حسن الكتاب وسلمه الى الرسول ، ثم عاد واخبر شفيقا بذلك.

* * *

كان والدا شفيق قد اشتد بهما الحزن لفقده حتى كرها الاقامة بمصر، ولم تكن سعدى قد اطلعت زوجها على شيء من امر فدوى ، لكنها كانت تنتهز الفرص لمشاهدتها للاجتماع بها حيث تتشاكيان الاحزان .

وفي ليلة من ليالي سنة ١٨٨٤ كانت سعدى جالسة في غرفتها فدخل زوجها وبيده صحيفة (لسان الحال) . وكان يطالع فيها وعلى وجهه بعض الانبساط مع ما كان فيه من شدة الحزن ، فاستغربت سعدى ذلك منه ، وتطلعت اليه متسائلة فابتدرها قائلا : « لقد دنا الوقت الذي يباح لي فيه ان اطلعك على ذلك السر ، بعد ان مات الامير عبد القادر الجزائري ولم

يعد علي رقيب » .

فلم تفهم مراده واصغت لسماع تتمة كلامه ، فقال : « هاتي الكتاب الذي عهدت اليك في حفظه » .

فسارعت الى النهوض وتوجهت لاحضار ذلك الكتاب ، ولكنها لم تجده حيث وضعته ، وعبثا حاولت البحث عنه ، فعادت الى زوجها قلقة مضطربة وقالت له : « لعلي وضعته في مكان لا اتذكره الآن . وسأواصل البحث عنه حتى اجده باذن الله » .

فاشتد غيظه لضياع الكتاب، وتركها ومضى الى حجرتها قلقا متكدرا، فلم تجرؤ على مخاطبته في شيء .

وفي الصباح التالي قال ابراهيم لزوجته : « ان المقام بهذه الديار لم يعد يحلو لي ، ولا سيما بعد فقد ولدنا ، وارى ان نبيع امتعتنا ونهاجر من مصر الى لبنان فنتخذ لنا مسكنا في قرية من قراه نقضي فيها بقية حياتنا » .

فوافقته على ذلك ، ولم تمض ايام حتى هاجرا الى لبنان ، وابى خادمها الامين احمد الا ان يرافقهما ليكون عونا لهما في السراء والضراء .

اما فدوى فظلت تزداد سقاما يوما بعد يوم حتى خاف ابوها عليها الهلاك ، وكان كثير التعلق بها لانها وحيدته ولما آنس فيها من الخلال الحميدة ، فلما رأى ما ألم بها من النحول بسبب حبها لشفيق ، عمل على ان ينسيها ذلك الحب وراح يتخذ كل وسيلة يراها مؤدية الى ذلك . ومن هنا اصبح ميالا الى الاجتماع بعزيز والاستماع لمشورته في هذا الشأن .

فلما وصف لها الاطباء السفر الى الشام لترويح النفس في ربى لبنان الجيدة الهواء ، سارع الى اجابة هذه الرغبة ، معتقدا ان بعدها عن القاهرة ربما يعينها على السلوان ، وعرض عليها الامر فلم تمانع ، فأعد عدة السفر ، واصطحبها وبخيتا وخادمين آخرين ، تاركا امرأته في البيت مع

بقيــة الخدم ، ثم ركبوا القطــار الى الاسماعيليــة ليسيروا منهــا الى بورسعيد ومن هناك يبحرون الى بيروت .

وودعهم عزيز في المحطة وقد اضمر ان يقتفي اثرهم بعد حــين الى لبنان لعل المقادير تساعده في نيل مرامه .

وبعد مسيرة يومين بالباخرة في بحر الروم ، وصلوا الى ميناء بيروت، فأعجبهم موقعها عند سفح لبنان الشامخ الآكام ، الذي لم يحل ارتفاعه الهائل دون اكتساء جباله المناطحة للسحاب بأنضر الاشجار .

واتفق وصولهم في يوم رق اديمه واعتل نسيمه ، فلاحت لهم قمم ذلك الجبل القديم العهد مكسوة بالثلج الابيض الناصع ، وكانت كل رباه الخضراء قد غسلها المطر الذي لازمها اسبوعا فأصبح منظره من ابهــج مــا يكــون .

واخذ الباشا بيد ابنته فدوى واشار الى تلك المناظر الطبيعية وقال لها : « تأملي يا عزيزتي هذه الآكام الممتدة على مدى النظر وسبحي الخالق العظيم الذي فجر الماء من اعلى قممها فاكتسبت خضرة بهيجة بين اشجار واعشاب ، تتخللها قرى صغيرة ، كل قرية على أكمة او في سفح اكمة ، وبيوتها بيضاء متفرقة بين الزرع كأنها لحجار كريمة على ديباجة خضراء . وانظري الى هذه المدينة الجميلة القائمة على مرتفعات لطيفة عند سفــح هذا الجبل ، ان ابنيتها الشاهقة مختلفة الالوان ، وفي سقفها القرميديــة الحمراء وما يحيط بها من الحدائق الخضراء ما يجعلها بهجة للناظرين » .

وكان يقول ذلك وينظر الى وجه فدوى ليرى ما يكون منها ، فاذا هي ساكتة لا تبدي جوابا فظنها تتأمل جمال ذلك المنظر ، ثم ركبوا عربــة اوصلتهم الى فندق بسول على الشاطيء ، فوجدوه حسن الموقع لا تنفك الامواج تضرب اساسه ليلا ونهارا ، فهيأ صاحبه حجرة لنوم الباشا وابنته واخرى للخدم ، فلما دخلت فدوى الغرفة استقبلت المرآة في صدرهــا ،

فارتاعت لما رأت نحولها فألقت بنفسها على السرير وهي تغالب الحزن والبكاء .

وبعد الاستحمام وتغيير الثياب وشرب المنعشات والاستراحة من وعثاء السفر ، تناولوا الغداء ، ثم خرج الباشا ملتفا بقباء شتوي لمشاهدة غرف الفندق فقابله احد خدمه وذهب به الى غرفة الاستقبال المطلة على البحر ، فأشعل سيجارة وجلس بجانب النافذة يسرح نظره في البحر الهادىء وصوت امواجه .

اما فدوى فلبثت في الحجرة ترتب الثياب ، وفيما هي تقلب محتويات صندوقها عثرت بصورة شفيق فتناولتها واخذت تتأمل فيها وتذرف الدموع حتى بللت ثيابها وخارت قواها فألقت بنفسها على السرير والصورة في يدها وهي لا تعلم ، فأخذتها سنة من النوم . وفيما هي كذلك عاد ابوها فلما رآها على تلك الحال علم انها نامت باكية ، ثم لاحت منه التفاتة الى يدها فاذا فيها صورة شفيق ، فانتزعها من يدها وهي لا تدري واخفاها في مكان بالغرفة ، ثم خرج عائدا الى قاعة الاستقبال .

ولما افاقت فدوى افتقدت الرسم فلم تجده فأخذت تبحث عنه فلم تقف له على اثر ، وفيما هي في ذلك دخل عليها ابوها ، فلما اخبرته بفقدها رسم شفيق تظاهر بمشاركتها في البحث عنه ، ولخذ يحاول اقناعها بأنه ربما سقط منها في البحر وهي غائبة عن صوابها .

وفهمت من كلامه انه مغتبط لفقد ذلك الرسم فصبرت حتى خرج وبعثت الى بخيت واطلعته على الامر فوعدها بأن يبحث عن الرسم ويأتي به ولو كان في لج البحار .

* * *

لاحظ صاحب الفندق ان الباشا يبدو قلقا مهموما ، فجاء اليه

وحياه ، ثم اخذ يجاذبه اطراف الاحاديث لاستطلاع امره الى ان قال : « لعل الهانم لم تسر بنزولها بهذا الفندق لعدم وجود سيدات فيه » .

فقال الباشا : « هذا صحيح ، ولا سيما ان تقاليدنا لا تسمح لها بالظهور امام الرجال كما يفعل الافرنج ومن يقلدونهم » .

فقال صاحب الفندق : « اذا اذنت سعادتك ، فان زوجتي تتشرف بمعرفة ابنتكم لعلها تأنس بها في وحدتها » . فوافقه الباشا وشكره .

فخرج صاحب الفندق واخبر زوجته بأن عنده سيدة مصرية تود الاستئناس بها ، فلبست احسن ما عندها من الثياب والحلى وسارت معه حتى دخلا على الباشا فاستقبلها مطرقا ولم يرفع اليها نظره جريا على عادة بلاده ، ثم عهد الى بخيت في ان يسير بالسيدة الى فدوى ويعرفها اليها لعلها تستأنس بمعاشرتها في وحدتها ، وسار بخيت امام زوجة صاحب الفندق حتى وصل الى باب غرفة سيدته ، فأوقفها خارجا ودخل وحده ليستأذنها . فرآها متكئة مبهوتة لا تبدي حراكا ، فأخذ يلاطفها ويسري عنها ثم قال لها : « ان زوجة صاحب الفندق بالباب ، وقد جاءت لتحيتك فهل ادعوها اليك ؟ » .

فقالت : « دعني يا بخيت ، اني غير قادرة على لقاء احد الآن » .

فقال : « انك يا مولاتي توقدين في قلبي نارا تحرق حشاشتي بهذا الكلام ، ولا اقول لك شيئا الآن سوى اني مستعد لان ابذل حياتي في سبيل مرضاتك ، فانهضي غير مأمورة واذني للسيدة في الدخول ، فان لم تؤانسي منها تعزية فلا تعودي الى مجالستها مرة اخرى ، على ان اهل هذه المدينة كلهم يجيدون الحديث والمؤانسة لتعودهم لقاء الغرباء » .

فقالت : « دعها تدخل » . ونهضت ترتب ثوبها وتنظم غرفتها ، فلما دخلت المرأة قابلتها بوجه باش وأذنت لها في الجلوس . فبادأتها بالحديث قائلة : « اهلا وسهلا بك يا حبيبتي ، انك شرفتنا بقدومك » .

فأجابتها فدوى بما عهد في اهــل مصر من اللطف والدعــة وحلو الحديث . ثم جرى الحديث بينهما في شؤون مختلفة ، الى ان تطرقتا الى ذكر الملابس والحلى فنظرت زوجة صاحب الفندق الى سوار من الذهب المرصع بالياقوت والماس كانت فــدوى تتحلى به وقالت : « لعل هــذا السوار من صنع اوربا ، انه في غاية الاتقان » .

فقالت فدوى : « نعم هو من صنع اوربا ، ثم نزعته من يدها وناولتها اياه قائلة : هل يستطيع الصاغة عندكم ان يصنعوا مثله ؟ » .

فقالت : « ان الصاغة عندنا مشهورون بالمهارة والحذق ، وجميــع مصوغاتنا من صنعهم » . ثم اشارت الى سوار في يدها ، ونزعته وناولتها اياه قائلة : « انه من صنع صاغتنا » . فتأملته فدوى فاذا هو مصنوع من الذهب ومرصع ترصيعا جميلا .

ثم مدت صاحبة الفندق يدها الى شعرها وانتزعت دبوسا مرصعا بالماس ناولتها اياه وقالت : « هذا من صنع اوربا على ما اظن » .

فتناولت فدوى الدبوس ، وما تأملته حتى اشتــد وجيب قلبهــا ورجفت ركبتاها ، لانه يشبه الدبوس الذي اعطته لشفيق ، ثم تحققت انه هو بعينه فازداد خفقان قلبها واصفر وجهها واخذتها الرعدة وتلعثم لسانها وبردت اطرافها . فأدركت زائرتها ذلك ولم تفهم له معنى لانهــا لم تعلم له سببا .

اما فدوى فانها حاولت اخفاء عواطفها فلم تستطــع لان الدمــوع سبقتها ، وارادت ان تسألها كيف وصل هذا الدبوس اليها فلم تستطــع وخافت الفضيحة فأسندت رأسها الى وسادة المقعــد متظاهرة باضطراب صحتها فوقع الدبوس من يدها فتناولته المرأة وشكته في شعرها قائلة : « لا اراك الله سوءا يا ابنتي ما هذا الاضطراب الذي اعتراك ؟ هل تأمرين باستدعاء الطبيب ؟ » .

فقالت : « لا حاجة الى الطبيب الآن » . قالت ذلك وهي ترتجف ، فنهضت المرأة واستأذنت في الانصراف ، ثم سارعت الى اطلاع زوجها على الامر ليخاطب والد الفتاة في شأنها .

ودخل بخيت على فدوى فرآها على تلك الحال ، فسألها عن شأنها فأخبرته بأمر الدبوس وقالت : « اريد منك ان تستطلع هذا الامر وتعرف كيف وصل الدبوس الى هنا » . فقال : « سمعا وطاعة » . وخرج وهو لا يقل عنها دهشة .

ومضت زوجة صاحب الفندق اليه وقصت عليه قصة الفتاة وقالت : « لعلها مصابة بمرض من الامراض العصبية ، ومما يدل على ذلك شـــدة ضعفها وسرعة تأثرها ، فيحسن ان تخبر اباها بذلك وتشير عليه باستدعاء الطبيب ، لاني اضن بهذه الفتاة لما شاهدت من لطفها وجمالها » .

فاستصوب الرجل رأيها وقال : « سأغتنم فرصة مناسبة واذكر ذلك امامــه » .

ولما كان وقت العشاء طلب الباشا الطعام في الغرفة ، ثم تغـــير الجو تلك الليلة وتساقطت الامطار غزيرة ، فآثر الاستدفاء بالفراش . وقضت فدوى ليلتها مشغولة البال بأمر الدبوس .

نهض الباشا في صباح اليوم التالي ، فرأى فدوى في حالة يرثى لها من الضعف والاصفرار ، فقلق على صحتها وعزم على ان يأتيها بالطبيب ، فسار بعد الغداء الى قاعة الاستراحة وبعث الى صاحب الفندق فلما حضر قال له : « اريد استدعاء اشهر طبيب في بيروت لمشاهدة ابنتي » .

فقال : « ان لكل طبيب شهرة في فرع من فروع الطب » .

قال : « اريد اشهر طبيب في الامراض العامة » .

فقال : « في هذه المدينة طبيب من اعرف الاطباء بهذه الامراض وان يكن مشهورا ببراعته في علاج امراض العين ، وهو الدكتور (ن) . وفضلا

عن سعة اطلاعه قد خصه الله باللطف والايناس فان كلم المريض طيب خاطره وخفف اوجاعه بلطف حديثه قبل ان يصف له الدواء . وقد اقام هنا خمسين عاما بين تطبيب وتدريس في فن الطب . وهو بفراسته يعرف الداء بالنظر الى المريض » .

فقال الباشا : « الي به حالا » . قال : « لا يمكننا ان ندعوه الا بعد الظهر ، لانه قبل ذلك يطبب الفقراء في بعض المستشفيات مجانا » .

قال الباشا : « ندعوه من المستشفى ، فلا بد انه يفضل المريض الذي ينقده الدراهم » .

فتبسم الرجل قائلا : « لا يا سيدي انه على نقيض ذلك يفضل تطبيب الفقراء ، بل هو يساعدهم في الحصول على الدواء وغيره . وله صدقات يجريها على عائلات كثيرة كل شهر في الخفاء » .

فقال الباشا : « اذن ندعوه بعد الظهر » . قال : « سمعا وطاعة » .

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر وقفت عربة امام باب الفندق ، ونزل منها شيخ في نحو السبعين من عمره يمشي على عصا لكن من غير تحدب ولا خمول ، وهو سريع الحركة قصير القامة خفيف الجسم طويل اللحية خفيفها ، وعلى عينيه النظارات . فاستقبله صاحب الفندق واخبر الباشا بأن الطبيب حضر ، فخرج الباشا لاستقباله ، وعاد معه الى غرفة الاستراحة فآنس الباشا منه فوق ما سمعه عنه من اللطف والدعة ، فأثنى عليه ثناء جميلا الى ان قال : « لقد وددت لو اكون مريضا فأتمتع بتطبيبك . ان حديثك لاشهى من الترياق » . فلم يرد الطبيب على هذا المدح فرارا من مدح آخر .

ثم تحادثا قليلا الى ان قال الباشا : « قد دعوتك يا حضرة الطبيب لاستشيرك في امر ابنتي ، وقد جرأتني اخلاقك الشريفة على ان اطلعك على سر لم اطلع عليه احدا في هذه المدينة » . فقال : « قل ما بدا لك » .

فقص الباشا قصة ابنته مع شفيق الى ان قال : « وقد وقعت في حيرة الآن لان الفتاة كلفة بذلك الشاب كلفا شديدا ، ولا انكر عليك اني احبه ايضا ، لانه انقذني من الموت وآنست منه شهامة غريبة ؛ ولكني لا ارى فائدة من بقائها على حبه بعد ان تحققنــا ان الحملة التي سار معها قــد هلكت بأجمعها » .

فقال الطبيب : « هل حاولتم ان تشغلوها بشأن من الشؤون ؟ » .

قال : « نعم ولكن بلا فائدة » .

فقال : « ان افضل طريقة على ما ارى ان تشغل الفتاة عنه بما ينسيها أياه تدريجيا ، ولقد اعجبني منها محافظتها على العهد ، ولكن ليس في اليد حيــلة » .

فقال : « وكيف نشلغها عنه ؟ » .

قال : « اشغلوها بالاسفار من بلد الى آخر ، والسفر في لبنان افضل ما يكون ، ولكن هذا الفصل فصل شتاء فلا تستطيعون التجوال في انحاء الجبل . فامكثوا هنا ريثما ينقضي هذا الفصل ويحلو المقام على ربى لبنان فتتمتع الفتاة بهوائه » .

فقال الباشا : « ولكن ما العمل الآن ، وهي لا تنفك تفكر في ذلك الشاب ليلا ونهارا ، وكلما زدت في تسليتها عنه زادت شغفا به ؟ » .

فأجاب الحكيم وهو يمسح النظارات بمنديله الحريري : « تلك عادة اهل الغرام ، كلما زدتهم لوما زادوا هياما ، فالاولى ان تغض الطرف عن ذلك . واذا ذكرت حبيبها فاذكره بالجميل ، مع الاشارة الى الدهر الذي يقضي على المحبــين بالفراق ، واشغلها بالامل البعيــد حتى يقضي الله بما يشاء » .

فتأوه الباشا ثم قال : « والله انك لاحسن من يعزي عن المصائب ، فهل لك ان تتردد علينا حينا بعد حين » .

قال : « سأفعل ان شاء الله ، ولكن ربما كان الافضل ان تذهب بها الى زيارة منزلي بقرب المنارة فانه في مكان يشرف على البحر من جهة وعلى الجبل من جهة اخرى » .

* * *

ظلت فدوى معتكفة في غرفتها ، مشغولة بالبحث عن صورة شفيق ، فلم تترك مكانا هناك الا بحثت فيه ، لكنها لم تقف للصورة على اثر ، فلاح لها ان اباها اخفاها في جيبه فعزمت على البحث عنها في ثيابه بعد نومه ليلا . ثم ألقت نفسها على فراشها خائرة القوى ، في انتظار عودة بخيت .

وفي المساء عاد بخيت والدبوس بيده ، فلما رأته فدوى خفق قلبها واسرعت اليه وخطفته من يده وجعلت تقبله وتتأمله وتبكي قائلة : « هل عرفت حكايته ؟ » .

فقال : « لا يا سيدتي ، ولكني ذهبت الى صاحب الفندق وزعمت له انك تحبين مشاهدة الدبوس لانك اعجبت بصنعه ، وحاولت معرفة طريقة وصوله اليه ، فلم يقل اكثر من انه جاءه هدية من احد السياح الانجليز الذين ينزلون بفندقه » .

فقالت : « لم يقل الحق ، لاني شاهدت الدبوس مع شفيق قبل سفره الى السودان ، فكيف وصل بعد ذلك الى بلاد الانجليز ؟ » .

فقال بخيت : « سأواصل البحث حتى اهتدي الى طريقة وصوله ، كما اني سأقلب الارض طولا وعرضا حتى اجد الرسم المفقود » .

قالت : « ليس في العالم من اثق به سواك ، فلا تضع املي فيك ، والآن خذ الدبوس وارجعه الى صاحبه » . فأخذ الدبوس وخرج .

وجاء الباشا الى غرفة فدوى بعد قليل ، فرآها احسن حالا من ذي

قبل ، فقال لها : « لقد اطلت عليك الغيبة اليوم » .

قالت : « نعم يا ابتــاه ، وانت تعلم اني لم آت هذه البلاد لإسجن في هذه الحجرة » .

قال : « كنت ابحث عن مكان نخرج اليه للنزهة ، وقد دعانا الدكتور (ن) الشهير لزيــارة منزله غدا وهو في طرف المدينــة يطــل على البحر والجبل » .

قالت : « وكيف دعانا الى منزله وهو لا يعرفنا ؟ » .

قال : « لقد دعوته لاستشيره في امرك ، وقد انست بلقائه كثــيرا واحببته للطفه وكرم اخلاقه فضلا عن علمه الغزير » .

وصحيح ان الافرنج لا يدعون الى منازلهم احدا الا بعد طول معرفة. ولكنه امضى في هذه البلاد قرابــة خمسين سنة فتخلق بأخلاق اهلهــا وألف عاداتهم ، كما اتقن لغتهم وحفظ امثالهم واساليب كلامهم . وقــد سمعته يورد في حديثه من الامثال الدارجة ما يتعذر ايراده على كثير من ابناء اللغة انفسهم . واؤكد لك انك لو جالسته ساعة لذهــب عنك كل كدر ، وستعرفين زوجته حين نذهب الى منزله غدا ، ولا بد ان تكون قد اكتسبت شيئا من اخلاقه ولطفه وظرفه » .

قالت : « اذن نذهب اليه غدا » . ثم ذهب كل منهما الى فراشه ، ونامت فدوى لاول مرة منذ السفر نوما عميقا مريحا .

* * *

مضى بخيت الى صاحب الفنــدق فرد اليه الدبــوس وقال : « ان سيدتي سرت كثيرا باتقان صنعه وتحب معرفة المكان الذي صنع فيه لتوصي بصنع مثلــه » .

قال : « قلت لك انه صنع في اوربا وقد اهداه الي سائح انجليزي ،

ولم أسأله عمن صنعه هناك ، ولو ان الهدايا لا تباع ولا تشرى لقدمناه لحضرة السيدة » .

فشكره بخيت ، ثم ذهب الى عبود طباخ الفندق ، وكانا قد تعارفا وتحابا ، فدعاه هذا الى حجرته ، ثم دعاه الى مشاركته شراب (العرقي) . فتظاهر بالقبول ، واخذ يسكب على الارض كل قدح يملؤه له دون ان يشعره بذلك حتى فرغت الزجاجة او كادت ، وسكر الطباخ فقال له بخيت: « ان موقع هذا الفندق جميل جدا ولا سيما في فصل الصيف ، فانه يشرح الصدر لقربه من البحر » .

فقال الطباخ : « صدقت ولكنا نسر في الشتاء لكثرة السياح فانهم يأتوننا جماعات من اقاصي البلاد » .

فاستبشر بخيت بذكر السياح آملا ان يعرف شيئا عن وصول الدبوس الى هناك فقال : « وما الذي يحملهم على المجيء الى هذه الديار في هذا الفصل » .

قال : « انهم يأتون الى يافا ويسيرون منها الى بيت المقدس لزيارة قبر المسيح ، ثم يأتون الى هنا غالبا في اوائل الربيع لمشاهدة اشجار ارز لبنان المشهورة بقدم عهدها حتى ليقال انها باقية من ايام سليمان » .

قال بخيت : « انهم يزورون مصر في فصل الشتاء لاعتدال الهواء هناك » .

قال : « نعم وهم يأتون من مصر الى يافا ، ولكنهم لا يستطيعون التجوال هنا لكثرة الثلوج التي تتراكم في طرق جبل لبنان ، والمهم انهم ينفقون اموالا طائلة فنكسب منهم كثيرا » .

فقال بخيت وقد رجا قرب الوصول الى مبتغاه : « هل يعطونكم هدايا من الثياب او الحلى ، ام يكتفون بالنقود ؟ » .

قال : « هم يعطوننا نقوداً وهدايا من الثياب والحلى وغيرها ، ولكني

افضل النقود طبعا » .

فقال بخيت : « ولكن اذا اعطوك حلى مثل دبوس رقبة مثلا . افـلا تفضله على الدراهم ؟ » .

قال : « وما اصنع بالدبابيس وانا لا ألبس ثوبا افرنجيا، ولو اعطيتني حلة افرنجية ما لبستها وكذا لو اعطيتني قطعة حلى فاني افضل بيعها واذا كنت لا تصدق فاسأل معلمي الخواجه بسول ، فهو قد خبرني جيدا منذ جئت من بلاد السودان » .

فسر بخيت لمعرفته ان صاحبه كان في السودان وقال له : « انـك مغربي يا عزيزي فكيف ذهبت الى بلاد السودان ؟ » .

فتغيرت حالة عبود من السكر المضحك الى الهدوء والرزانة وقال : « ذهبت اليها من مصر ، لاني كنت اذهب كل سنة الى القاهرة في فصـل الشتاء لمرافقة السياح . فلما كانت سنـة ١٨٨٢ مضى فصل الشتاء علي في القاهرة دون عمل لان محل كـوك احتكر السياح وكان يرسـل معهم تراجمة وأدلاء من عنده ، فلما اعتزمت العودة الى بيروت سمعت بمسير حملة هيكس باشا لمحاربة المتمهدي في السودان ، وعرضت على احـد ضباط الحملة الانجليز ان يصحبني لخدمته هناك فقبل ومضيت معه حتى اتينا الخرطوم » . قال ذلك وشرق بدموعه وتوقف عن الحديث .

فقال بخيت : « لا بأس عليك يا اخي ، ما الذي يبكيك ؟ » .

فتنهد عبود وقال : « تذكرت ما مر بي من الاهوال بعد ذاك . فقد تركني صاحبي الضابـط الانجليزي في الخرطوم ، وذهـب متنكرا الى الابيض حيث يقيم المتمهدي ، وابقى عندي امتعته وثيابه حتى يعود ، ولكنه لم يعد وا أسفاه . ثم سمعنا بالقضاء على هيكس وجيشه ، ولم يسعني الا المهاجرة من هناك فحملت ما خف حمله من ثياب ذلك الضابط ، وسافرت

قاصدا هذه الديار عن طريق بربر ، فلما بلغتها خشيـت على نفسي خطر الدراويش ، فطرحت ما كان معي من تلك الثياب ولم ابق معي الا بعض الاشياء الغالية الثمن ، ثم واصلت المسير الى سواكن مصطحبا اعرابيا كان ذاهبا اليها في مهمة سرية ارسله فيها حسين باشا خليفة مدير بربر ، فقطعنا نصف الطريق في بضعة ايام ، ثم علمنا أن الطريـق الى سواكن مقطوعة لظهور دعاة المهدي فيها بقيادة عثمان دقنا الذي اصبح ألد عدو للاتراك ومن شابههم مع كونه تركي الاصل » .

فضاق بخيت ذرعا لطول القصة ، واراد ان يبتدره بالكلام لاستطلاع ما يهمه ، ولكنه خاف ان يغضبه فبقي صامتا مصغيا ، واتم عبود حديثه فقال : « فلما سمعنا ذلك وقعنا في حيرة ، وتوسلت الى رفيقي الاعرابي ان يدبر لي وسيلة اخلص بها من تلك الورطة فأعطاني بعض ثيابه وعلمني من الكلام السوداني فوق ما كنت اعرف حتى اذا وقعنا في مشكل ندعي اننا من اهل تلك الجهات القائمين على دعوة المهدي . وما زلنا سائرين حتى صرنا على مقربة من سنكات ، فأخبرني بأنها محاصرة وفيها حاميـة من الجنود المصريين ، وقد ارسلت الحكومة المصرية اليهم نجـدة بقيادة رجل انجليزي اسمه بيكر باشا ، واشار بأن ندخـل سنكات بـدلا من الاستمرار في السـير الى سواكن ، فدخلناهـا وبتنا تلك الليلـة قرب الحصون ، وفي الصباح تجولت في البلدة فاذا هي ليست كبيرة وابنيتها من الآجر تتخللها بيوت من القش . وشاهدت اهلها في ضنك شديد لقلـة المؤونة بسبب انقطاع المواصلات » .

- ١٣ -

بطل سنكات

واصل عبود الطباخ حديثه عن الاهوال التي لقيها في رحلتـه الى السودان فقال : « وفيما انا اجول في سنكات جاءني جندي يدعوني الى مقابلة توفيق بك محافظها ، فذهبت اليه في ديوانه ، فسألني عما سمعته عن حملة بيكر باشا فقلت : (اني لم اسمع الا انها جاءت لانقاذكم من هـذا الحصار) فتنهد توفيق بك وهز رأسه وجعل يخاطب نفسه قائلا : (اجاءوا الينا بنساء أم برجال ؟) . ثم قال يخاطب ضابطا بجانبه : (لقد جاء بيكر باشا في حملة لانقاذنا ، ولكن الاوامر جاءته بانقاذ حاميـة طوكر اولا ، ولكن جنوده لم يحسنـوا القتـال فهزمهم الدراويش واضطروهم الى العودة) .

« فأخذ ذلك الضابط يخفف عنه ويهون عليه ، فقـال له : (اني لا اخاف الموت ، ولكني اخشى العار الذي يلحق بحكومتي لاهمالها انقـاذ حامية هذه البلدة التي دافع اهلها دفاعا حسنا ، وكم من كتاب جاءنا من عثمان دقنا يعدنا مواعيد حسنة اذا سلمنا ولم نجبه الا بالتهديد والوعيد . وعما قريب يحل بنا ما حل بهيكس ، ولكن حملته كان لها عذرها لبعدها عن مراكز الحكومة ، وجهل هذه مقر الحملة . اما نحن فمقرنا معلـوم ، وقد اصبحنا في حال لا تطاق) .. »

وكان بخيت قد سمع طرفا من قصة البطولة التي ابداها ذلك القائد الشهم فأحب الوقوف على تفصيلها ، وشغل بذلك عن حكاية الدبوس ، فقال : « يلوح لي ان هذا القائد من اصحاب الحزم والعزم » .

فقال عبود : « نعم ، وقد اعجبت باخلاصه للحكومة وعظم شهامته ، وقلت في نفسي : انه اذا انحاز الى العصاة فلا لوم عليه لانــه مضطر ، ولكنه في اليوم التالي جمع ضباط مجلسه في جلسة حافلة حضرتها وخطب فيهم قائلا : (ها ان العصاة قد احاطوا بنا من كل ناحية ، والنجدة التي ارسلتها الحكومة الينا لم تصل ، والبلد في جوع مدقع . فالآن امــا ان نلبث في الحصار فنموت جوعا ، واما ان نخرج مستقتلين وندافع عــن انفسنا وحكومتنا ، فاذا قتلنــا عن آخرنا فذلك خير لنا من التسليم لانه لن يفيدنا شيئا ، وعثمان دقنا لن يبقي علينا اذا سلمنا له . فما رأيكم ؟) .

فبهت الجميع وقد سحروا بكلام ذلك القائد المملوء شهامة وحزما ، وتركوا الرأي له فقال : (ارى ان نفتح ابواب البلدة غدا بعد ان نخربها ثم نخرج منها مستقتلين فاذا لقينا الاعداء قاتلناهم الى آخر نسمة من حياتنا باسم خديوينا توفيق باشا حتى يقضي الله بيننا وبينهم ، ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون) .

فوقعت في حيرة ، لاني لست جنديا ولا معرفة لي بالقتال ، وندمت على دخولي سنكات ، وكذلك كان شأن رفيقي فتعاهدنا على ان نفر من المدينة تلك الليلة الى معسكر العدو كما كنا قبلا وقد لبسنا المرقعيات نريد معسكر عثمان دقنا ، فدخلناه مولولين مستنجدين ، وزعمنا اننا ضللنــا الطريق فمررنا بجانب سنكات ، فأطلقت حاميتها علينا الرصاص ولم ننج الا بعد الجهد والعناء . فصدقونا وبتنا تلك الليلة هناك ، وفي الصبــاح تركنا المعسكر وسرنا حتى اتينا سواكن . وهناك علمنا بخروج توفيــق بك ورجاله من سنكات حيث احاط بهم الدراويش من كل جانب وافنوهم عن آخرهم ، فأسفت لمصرع ذلك البطل . ثم ركبت البحر من سواكن الى السويس ، ولم اصل الى هنا الا منذ ايام » .

فقال بخيت : « ان حكايتك غاية في الغرابـة ، ولكنـك لم تذكر الاشياء التي جئت بها من السودان » .

قال : « لقد جئت من هناك بما بقي معي من ثياب الضابط الانجليزي وفي جملتها دبوس مرصع ، فبعته لصاحب هذا الفندق بثمن زهيد اذ انه لا ينفعني » .

فأخذ قلب بخيت في الخفقان ، ثم سأل عبودا عن اسم ذلك الضابط الانجليزي ، فأجابه عبود قائلا : « من الغريب ان اسمه عربي وهو الكابتن شفيق ، وكان يعرف العربية كأنه من اهلها » .

فازداد خفقان قلب بخيت ، وكاد يطير من الفرح لاكتشافـه سر الدبوس ، ولكنه اسف لتذكره فقد شفيق ، وقال لعبود : « ألم تسمـع شيئا بعدئذ عن ذلك الضابط ؟ » .

فقال : « لو كنت سمعت عنـه شيئا ما برحت السودان قبـل ان ألتقي به » .

فقال بخيت : « ولكنك ذكرت انه لم يسر مع الحملة فمن الممكن ان يكون حيا بعـد ؟ » .

قال : « آه لو اعلم انه حي ، اذن لما ادخرت وسعا في سبيل البحث عنه ، لاني لا انسى فضله ولطفه فقد كان يحبني ويعدني بمستقبل حسن عنـده » .

فاكتفى بخيت بهذا الحديث ونهض فودع صاحبه شاكرا له حسـن ضيافته ، واعطاه بعض النقود قائـلا : « ان الباشا مسرور منك وقـد اوصاني بأن اكرمك » . فتنـاول الدراهم وقبلها قائلا : « اطـال الله حياة الباشا » .

ثم خرج بخيت غارقا في بحار من الهواجس، وود لو استطاع انيسير توا الى سيدته ليطلعها على ما سمعه ، ولكنه سمـع الساعة تـدق عشر

دقات : فسار الى حجرته على ان يقص عليها القصة في اليوم التالي .

امضت فدوى تلك الليلة تحلم بأمر الدبوس ورسم شفيق . فلما اصبح الصباح . تناولت طعام الافطار مع ابيها في حجرته ؛ وفي الساعة العاشرة ارسل بخيتا ليأتيهم بعربة توصلهم الى منزل الدكتور (ذ) . وكانت فدوى قد لبست ثيابها استعدادا لهذه الزيارة وضفرت شعرها ضفيرة واحدة محلولة من طرفها وارختها على ظهرها ؛ فبدت غاية في الجمال رغم نحولها . ثم جاءت العربة فركبت بجانب ابيها . وركب بخيت بجانب السائق وساروا قاصدين رأس بيروت حيث منزل الدكتور .

وساروا في طريق طويل خارج المدينة ينتهي ببناء فيه المناره التي تهتدي بها السفن الى ميناء بيروت . فشاهدوا على يمينهم قبل وصولهم الى المنارة بابا كبيرا عاريا من كل زينة ، دخلوا منه الى بقعة محاطة بسور وفي صدرها باب آخر وقفت العربة عنده ، فاستقبلهم خادم هناك، وادخلهم رواقا يحف به من الجانبين حوضان مزروعان بأعشاب ونباتات مختلفة آلوانها ، وفي نهاية ذلك الرواق باب يؤدي الى حديقة تشرف على البحر والمنزل كله على مرتفع اشبه بتل كبير .

فلما وصلوا الى آخر الرواق ، دخل الخادم في باب صغير على يمينه اتصل منه الى مكتب الدكتور واخبره بمجيء الضيوف ، ثم سار في طرفة اخرى الى اليسار مرصوفة بالرخام يتصل منها الى بـاب المنزل الحقيقي واخبر زوجة الدكتور . فخرج الدكتور واستقبل الباشا ودخل به مكتبه. وجاءت امرأته واستقبلت فدوى بكل ترحاب كأنها تعرفها من زمن مديد . وأمرت بالقهوة وسائر معدات الترحاب ، وبعثت الى بناتها وعرفتهن اليها . فشاركن والدتهن في الترحيب بها ومؤانستها حتى كادت تنسى هواجسها.

وامر الدكتور للباشا بالقهوة والنرجيلة وجلسا يتبادلان الاحاديث . وكان الدكتور يرتدي فوق بذلته الافرنجية عباءة سوداء من ملابس البدو،

وعلى رأسه بدل القبعة عراقية من المخمل الازرق مزركشة بالقصب تتدلى منها طرة من القصب .

ومضى نصف النهار دون ان يشعر الباشا لاستئناسه بمضيفه ، ثم تنبه الى ذلك فاستأذن في الانصراف ، ولكن الدكتـور لم يتركه حتى تغدى عنده ، بينما مدت مائدة اخرى للسيدات احتفاء بفدوى .

وقال الباشا للدكتور وهما على المائدة : « اعـذرني اذا تطفلت في سؤالك عما رغبك في عادات الشرقيين والتخلق بأخلاقهم » .

فقال الدكتور : « تلك عادتي في سائر ايامي ، فاني جئت الى هذه الديار واتخذتها وطنا لي ، واحببت اهلها محبتي لاولادي ، ولا انسى محبتهم لي واكرامهم لي » .

ثم سأله الدكتور عن صحة فدوى ، فأخبره بانها استراحت قليلا . فقال الدكتور : « اذا كان منزلنا يفيدها فاننا نرحب باقامتـها معنا اذا شاءت » . فأثنى الباشا على كرمه واعتذر عن عدم استطاعته ذلك .

وبعد تناول الغداء وشرب القهوة استأذن الباشا في الانصراف فودعه الدكتور ، وودعت زوجته فدوى بحرارة .

وفيما العربة سائرة بهم بالقرب من مدرسة طبيـة في الطريـق الى الفندق ، حرنت الخيل ، وعبثا حاول السائق حملها على المسير ، فهبـط الباشا وفدوى منها ، وارسلا بخيتا ليحضر عربة اخرى ، ثم اخذا يتمشيان في الطريق امام المدرسة حتى يعود اليهما .

وفيما هما يتمشيان امام سور المدرسة ويتأملان في بنائها الجميـل المشرف على البحر ، امطرت السماء على غير انتظار ، فاضطرا الى دخول المدرسة للوقاية من المطر ، ووقفا هناك ينتظران مجيء بخيت بالعربـة ، فجاءهما البواب بكرسيين جلسا عليهما .

ومضت ساعة دون ان يعود بخيت ، ثم حان موعد الانصراف من

المدرسة فاذا بالتلامذة والاساتذة يخرجون افواجا . وسمع الباشا قرقعة عجلات عربة خارج الباب ، فحسب انها العربة التي لحضرها بخيت ، فخرج ليتحقق الامر ، فوجد بالقرب منها احد اساتذة المدرسة وهو شيخ في لباس افرنجي اشيب الشعر كثيف شعر اللحية على عينيه النظارات ، فحياه فرد التحية مرحبا به وسأله عن غرضه ، فأخبره بما كان فقال : « ربما يتأخر رسولكم اكثر من ذلك اذ لا بد له من الذهاب الى المدينة لاحضار عربة . وهذه عربتي تحت امرك » .

فشكره الباشا على اريحيته وقبل هذه الدعوة بعد الحاح .

ولم يكن الدكتور قد شاهد مع الباشا احدا سواه ولذلك كان يريد الركوب معه ، فلما رآه ينادي ابنته امتنع عن الركوب معهما ، فركب الباشا وابنته وقال للسائق : « خذنا الى فندق بسول على البحر » . والتفت الى الدكتور شاكرا ، فسارت العربة حتى اتيا الفندق فلم يجدا بخيتا هناك ، فقلقا عليه ، ولكن صاحب الفندق طمأن الباشا وقال له : « لعله ضل الطريق ولا يلبث ان يعود » .

* * *

انقضى اليوم كله دون ان يعود بخيت ، فبات الباشا وفدوى ليلتهما قلقين عليه ، فلما كان الصباح جاء احد خدم الفندق يدعو الباشا الى مخاطبة شرطي جاء يطلبه ، فخرج فاذا بأحد الشرطة وبيده ورقة فلما تلاها فهم منها ان بخيتا في سجن البوليس رهن التحقيق ، فلبس ثيابه وسار مع الشرطي الى دار البوليس قرب حديقة الحميدية ، فلما دخل على المأمور وقف له احتراما واجلسه بجانبه ثم قال له : « ان خادمك واحد المصريين تشاجرا امس ، وجيء بهما الى المخفر » . ثم امر باحضارهما فحضرا فاذا بالمصري الذي تشاجر معه بخيت هو عزيز .

وما وقعت عين عزيز على الباشا حتى اكب على يديه يقبلهما وقال : « عفوا يا سعادة الباشا ، لقد لقيت خادمكم هذا مساء امس وهو منسرع نحو المدينة ، فناديته لاسأله عن سعادتكم ، فلعنني واهانني ، وسمعنا الشرطة فقبضوا علينا وساقونا الى السجن » .

فقال الباشا : « لعله لم يعرفك ؟ » . وهنا صاح بخيت قائلا : « كلا يا سعادة الباشا ، بل عرفته ولولا ذلك ما اهنته » .

فقال له الباشا : « اسكت يا بخيت ، لقد جئت الآن لاصلح بينكما واخرجكما من السجن » .

ثم قال الباشا للمأمور : « لقد تصالحا لانهما من بلد واحد وكلاهما من خاصتي ، وارجو ان تأمر باطلاق سراحهما » .

فقال المأمور : « ليكن ما تريد سعادتك » . وامر بالافراج عنهما .

وعاد الباشا الى الفندق وهما معه ، وفي الطريق رحب بعزيز وسأله عن سبب مجيئه فقال : « يعلم الله يا سعادة الباشا اني لم يهدأ لي بال منذ برحتمونا ، ولم ار سبيلا للاطمئنان الا بالمجيء الى هنا ومشاهدتكم ، فعسى ان تكون فدوى هانم بخير » .

فقال الباشا : « انها بخير والحمد لله » . ثم سأله عن محل نزوله فقال : « لم اختر منزلا بعد ، وقد قيل لي ان هذا الفندق من افضل فنادق بيروت ، وقد وضعت امتعتي في مقهى بقرب الميناء على ان اعود لاخذها بعد الاهتداء الى منزل مناسب ، فالتقيت بخادمك وجرى ما جرى » .

فقال : « سنبعث من يأتيك بالامتعة الى هنا » .

وكانت فدوى في انتظار عودة ابيها فلما سمعت صوته في الدهليز المؤدي الى غرفتها فتحت الباب لاستقباله والاستفهام عن بخيت ، فوقعت عينها على عزيز فارتعدت فرائصها وخفق قلبها واتقدت النار في فؤادها ، فعادت الى الحجرة واغلقت الباب وراءها وألقت بنفسها على المقعد خائرة

القوى من شدة الغيظ والتأثر .

وقد ادرك ابوها ما بها ، ودخل عليها ومعه بخيت فأسرع هذا الى تقبيل يدها وقال لها : « معذرة يا سيدتي ، انها حادثة عرضت وانقضت بسلام » . قال ذلك وحرق اسنانه ، فأدركت ان في المسألة سرا فصبرت ريثما تخلو اليه وتعلم ما هناك .

وجلس الباشا يقص القصة عليها وهي مصغية ، حتى وصل الى ذكر عزيز فامتقع لونها وظهرت عليها امارات الغيظ ، فلحظ ذلك منها وقال ضاحكا : « ما الذي غاظك من حديثي يا حبيبتي ؟ » .

قالت : « لم يغظني شيء وانما عجبت لهذا الاتفاق » .

فقال : « انه اتفاق عجيب ، والرجل قد جاء من مصر غيرة علينا ، وقد سألني عنك كثيرا » . فازدادت هي غيظا حتى لم تعد تقدر على اخفاء ما بها فقالت : « وما الذي حمله على افتقاد من لم يخطر لهم في بال » .

فضحك ابوها وقال : « الا تزالين حاقدة عليه يا عزيزتي ؟ » .

قالت : « نعم يا سيدي ولن ازال كذلك ما بقيت حية » .

فقال : « يا للعجب ، لقد عهدتك كريمة لينة الجانب لا تحملين لاحد حقدا وهذا الفتى لم نر منه بعد تلك الحادثة المشؤومة الا اخلاصا ومحبة » .

فازداد اضطرابها لتذكرها شفيقا ، وارادت التكلم فلم تستطع ، فألقت بنفسها على الفراش وغلب عليها البكاء .

فحاول ابوها اسكاتها فلم يستطع ، فاغتاظ منها ونسي محبته لها وانتهرها قائلا : « كفى يا فدوى كفى ، الا تزالين مشغوفة بحب الاموات؟ »

فلم تزدد الا بكاء وعويلا ، فتركها وخرج مغضبا مغلقا الباب وراءه .

وبعد قليل دخل عليها بخيت وقال لها : « لا تخافي يا سيدتي ، وطيبي نفسا ، فلعل وقت الفرج قد دنا وقد قيل :

« ضاقت ولما استحكمت حلقاتها   فرجت وكنت اظنها لا تفرج »

فالتفتت اليه مندهشة وقالت له : « هل عندك خبر جديد ؟ » .

قال : « نعم عندي خبر جديد ولكني لا اخبرك به الا متى سكن روعك واصغيت الى ما اقول » .

فمسحت دموعها وقالت : « ها أنذا قد اصغيت فقل ما عندك » .

فقال : « ان هذا الخائن اذا بقي حيا الى الغد فلن يبقى الى ما بعده ، ولو ساعدتني الاقدار لسقيته كأس المنون امس ، ولكن ابشري فسوف اذيقه تلك الكأس عاجلا او آجلا . واما الاهم من ذلك فهو اني عرفت شيئا جديدا يختص بالدبوس » .

فقالت : « قل حالا ماذا عرفت ؟ » .

قال : قد عرفت انه دبوس سيدي شفيق ، وعرفت الرجل الذي جاء به وهو طباخ هذا الفندق » .

قالت : « وماذا قال عن شفيق ؟ » .

قال : « اكد لي انه لم يكن مع حملة هيكس باشا بل .... » .

فانتفضت فدوى من الفرح وهزت بيدها كتف بخيت قائلة : « واين ذهب اذن ؟ » .

قال : « ذهب يا سيدتي في مهمة سرية الى الابيض » .

فأخذت فدوى تثب في ارض الغرفة كأنها اصيبت بجنة وهي تقول : « شفيق لم يمت في الحملة ؟!.. آه يا شفيق هل انت حي ؟ » .

فقال بخيت : « اجلسي يا سيدتي فأحدثك بكل ما سمعت » .

فجلست وقص عليها الحكاية كما سمعها . ثم قال لها : « على اني ارى اولا ان اقتل هذا الخائن ثم اقول لك ماذا فعل بعد ذلك » .

فقالت : « اقتله لا بارك الله فيه ، ولكن .. » وسكتت .

فقال بخيت : « لكن ماذا ؟ انه يستحق القتل حرقا لانه خائن غادر» .

فقالت : « لا يا بخيت ، لا تقتله ، ان شفيقا اوصى بألا نقتله فهل

نخالف الوصية ؟ » .

فقال بخيت : « كيف لا نقتله وقد فرح بمقتل شفيق ، ألم يكتب اليك يوم سمع بمذبحة هيكس باشا يقول : من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى ؟.. » .

فقالت : « ان اخلاق شفيق تأبى قتله مع ذلك ، والامر الجدير بالاهتمام الآن هو البحث عن شفيق واذا قدرت لنا لقياه فاني اصفح عن هذا الخائن اكراما له » .

وفيما هما في الحديث، سمعا وقع اقدام فعرفا ان الباشا قادم وتظاهرا بالسكون ، فلما وصل الباشا رأى ابنته حمراء العينين فازداد غضبه وامر بخيتا بأن يخرج ، ثم نظر اليها شزرا ولحيته تنتفض في وجهه ويداه ترتعشان وقال : « ما هذا يا فدوى ؟ أتريدين ان تلبسيني ثوب العار في هذه الديار ؟ » .

فقالت : « حاشا وكلا يا سيدي ، لا ألبسك الله عارا ابدا » .

قال : « لماذا اذن تخالفين امري وتتقادين الى امل لن يتحقق ؟ » .

فقالت : « لا تقل هذا يا ابتاه ، فانك بذلك تزيد اشجاني وتهيج احزاني » .

قال : « الا تزالين تؤملين عودة الاموات الى الدنيا ؟ » .

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت : « لا تقل ان شفيقا مات يا ابتاه، بل قل انه حي يرزق باذن الله » .

فقال : « هل اذا قلت ذلك يقوم من بين الاموات ؟ » .

فقالت : « ان الله على كل شيء قدير ، وهب انه لا سمح الله غير حي فماذا تريد مني ؟ » .

قال : « اريد ان تطيعي اوامري » .

قالت : « اني لا ازال ابنتك المطيعة البارة ولكن ... » . فقاطعها

وانتهرها قائلا : « هيا اغسلي وجهك ودعي عنك الهواجس فانها مجلبة للسقام . ولا تعلقي آمالك بحبال من هواء ، فقد سمعت بأذنك عندما سألنا شفيقا عن مذهبه ووطنه انه لا يحقق اهو مسلم ام غير مسلم ، ولا هل هو من الشام ام من مصر ، فافرضي انه حي فهو ليس من امثالنا ولا ينبغي ان نعلق به آمالنا » .

فوقع هذا القول على قلب فدوى وقوع السهام ولم يزدها الا ولعا بشفيق ، لكنها نهضت وغسلت وجهها وهي عالمة بما يضمر ابوها ، وقد أغضت عنه تخلصا من القيل والقال واضمرت الاصرار على عزمها مهما تلقى في سبيل ذلك من الاهوال .

- ١٤ -

حصار الخرطوم

عاد الباشا الى غرفة الاستقبال بالفندق ، فنهض عزيز لاستقباله احتراما له ، ولما رآه منبسط الوجه استبشر بنيل مبتغاه ولكنه لم يجرؤ على مخاطبته في ذلك .

ولم يملك الباشا اخفاء عواطفه فقال : « يلوح لي انها لانت ، وان كانت لا تزال تذكر ذلك الشاب » .

فقال عزيز مراوغا لا يمكننا تعنيفها على ذلك لان محبته تمكنت من قلبها . لكنه مات وأسفاه فعلينا ان نسعى الى تعزيتها وتسليتها حتى لا تضار صحتها » .

فقال الباشا : « لقد نطقت بالحق ، اذ لا فائدة من محبته وقد صار في عداد الاموات ، لكني لا اعلم كيف ابغضه اليها » .
فقال عزيز : « عندي طريقة تريحنا جميعا فهل اعرضها على سعادتك؟»
قال : « قل ما بدا لك » .
قال : « قرأت في بعض المجلات العلمية عن علم حديث يقال له علم التنويم المغناطيسي يستخدمه بعض الاطباء لتنويم المريض صناعيا ، ثم يسألونه خلال نومه هذا عن مرضه فيشرح لهم حقيقته وعلاجه شرحا وافيا ، وهم يؤكدون ان النائم بهذه الطريقة يتنبأ بالغيب ايضا . كما يؤكدون ان الطبيب المنوم يتسلط حينذاك على ارادة المريض النائم بحيث يجعله بعد استيقاظه يفعل ما يأمره به حين نومه . فاذا قال له وهو نائم : (اذا صحوت فابغض فلانا او احب فلانا) فعل ذلك من تلقاء نفسه دون ان يعلم السبب » .
فقال الباشا : « وهل يخضع كل انسان لسلطان المنوم ؟ » قال : « لا، ولكن النساء اكثر قبولا له من الرجال ، ولا سيما العصبيات منهن » .
قال : « اذن تكون فدوى صالحة لذلك التنويم ، ولكن على من نعتمد في تنويمها هنا ؟ » .
قال : « ان الذين يعرفون هذا العلم هنا قليلون ، وفي استطاعتنا ان نسأل عنهم احد كبار الاطباء » .
فقال الباشا : « لقد عرفت هنا طبيبا من اشهر اطباء هذه المدينة واعلمهم ، وهو خير من نسأله في ذلك ، وهو الدكتور (ن) .. » .
فخشي عزيز ان يعرقل هذا الطبيب مساعيه ، اذ قد تمنعه استقامته عن استخدام التنويم للغاية التي يريدها فقال : « ان هذا الطبيب على شهرته لا يستطيع التنويم ، لانه شيخ طاعن في السن ، ولا بد للمنوم من ان يكون شابا قوي البنية لكي يمكنه التسلط على من ينومه فاذا شئت

فاني ابحث عن طبيب آخر يصلح لذلك » .

فقال الباشا : « لا بأس بذلك ، وارجو ان يوفقك الله » .

فسر عزيز لنجاح مسعاه ، ثم نهض مستأذنا ليذهب ويأتي بأمتعته الى الفندق ، فأذن له الباشا وهـو ليس اقل منه فرحا بتجـدد الامل في مصاهرتهما ، طمعا في ثروته الكبيرة .

* * *

لبثت فدوى بعد خروج ابيها تفكر في امرها وتدبر وسيلة لنجاتها ، ثم جاءها بخيت فأخبرته بما كان من ابيها فكاد يتميز غيظا وقال لهـا : « ما لنا ولهم ؟ ما دمت انت محافظة على عهد سيدي شفيق فلا نخاف شرا باذن الله ، وقد دبرت وسيلة للبحث عنه » .

فقالت : « وما هي هذه الوسيلة ؟ » .

قال : « اتفقت مع عبود الطباخ على ان يذهب الى السودان ويأتينا بالخبر اليقين في اسرع وقت ممكن . وقد دفعت اليه بعض النقود سلفا ، ولم اخبره بحقيقة الامر ، اكتفاء بأن اعطيه كتابا يوصله الى سيدي شفيق حيثما يجده هناك » .

قالت : « ولكن اين يبحث عنه في السودان ؟ » .

قال : « سيذهب اولا الى مدينة الخرطوم التي ذهب اليها غوردون باشا مؤخرا » .

قالت : « احسنت يا بخيت بارك الله في وفائك » .

وكان عبود قد عثر بصورة شفيق ، فحفظها معه ليتذكره بها ، فلما طلب اليه بخيت الذهاب في تلك المهمة استبشر بالفوز ، واخذ يعد معدات السفر ، بعد ان ألح على صاحب الفندق في ان يبيع الدبوس لبخيت ، فباعه اياه بضعف ثمنه ولبث عبود في بيروت حتى سلمه بخيت الكتاب المطلوب

توصيله الى شفيق ، وقد كتبته فدوى وقالت فيه :

« الى شقيق الروح ومنى القلب .

« اكتب اليك هذا الكتاب من بيروت ، غير عالمة بمحط رحـالك ، وكلي امل ان تسمح الاقدار بالاطمئنان عليك فأنسى ما قاساه فؤادي من العناء والمشاق بعد طول الفراق . وكنت قد يئست من بقائك في عـالم الاحياء حتى ظفرت بناقل هذا اليك فقص علي قصة جددت آمالي واحيت ما بقي في من رمق الرجاء . فاذا تحقق لي هذا الامل فلا يكون على وجه هذه البسيطة من هو اكثر سعادة مني، والا فالموت خير لي من معاناة الحزن الذي كاد يذهب برشدي بعد ان ذهب بصحتي ، كما ان فيه خلاصي من شر الوقوع فيما نصبه لي ذاك الذي لم ترض الاجهاز عليه فتركته يتبعني حيثما توجهت وينصب لي الشراك حتى اوغر قلب ابي علي ، وحمله على تهديدي ومحاولة ارغامي على قبوله .

« فاذا وصل اليك كتابي هذا فبادر الى انقاذي من مخالب المـوت والعار ، هذا اذا بقيت حية حتى وصولك والسلام .

« كتب في فندق بسول بيروت اول مايو سنة ١٨٨٤ .. الباقية على عهدك .. فدوى » .

وما تسلم عبود الكتاب حتى غادر بيروت الى مصر في احدى البواخر، ليستقل منها سفينة نيلية الى الخرطوم ، وذلك لعلمه ان طريق سواكن قد قطعت لاستفحال امر عثمان دقنا فيها ، فلما وصل الى القاهرة ركب القطار منها الى اسيوط ، ومن هناك اكترى جملا خفيفا وسار فوقـه على البر الغربي في عطمور الاربعين قاصدا دنقلا ، ومديرها يومئذ ياور بك فوصل اليها في اواخر يونيو ووجد اهلها في هرج ومرج واستعداد للحرب ، وعلم انهم سائرون لمقاتلة الدراويش في الدبة .

وكان عبود يظن ان الطريق الى الخرطوم آمنة فلما سمع هذا الخبر

وقع في حيرة . ثم لخذ يطوف في الاسواق حتى دخل وكالة شاهد فيها بعض التجار السوريين فتقرب من احدهم ، وتحقق منه ان الطريق من هناك الى الخرطوم لا يمكن السير فيها مخافة خطر الدراويش ، كما ان الخرطوم نفسها في حصار شديد .

وفيما هما في الحديث اذا بجماعات من الجند يسيرون بأسلحتهم وخلفهم فارس نحيف الجسم قصير القامة يرتدي الجبة والقفطان ، وحوله جماعة من الحشم ، فسأل عنه التاجر فقال : « انه مصطفى ياور بك ، وهو خارج في رجاله لمقاتلة العصاة في الدبة . فعسى ان ينتصر عليهم لانه رجل من الاولياء الاتقياء ، اذا اطلق عليه الرصاص لا يخترق لحمه ، واذا سار الى حرب لا يحمل من السلاح الا حربة قصيرة في يد ، وسبحة في اليد الاخرى ، ولا يكف عن الصلاة والدعاء ما طالت المعركة ! » .

وكان التاجر قد استأنس بعبود لانه غريب مثله فدعاه الى الاقامة بمنزله حتى ينجلي الامر فقبل شاكرا ، وذهب معه الى منزله في المساء فاذا هو بيت مبني بالطين ، وبابه من الضيق بحيث لا يدخله الانسان الا ساجدا، فبات ليلته هناك بعد ان تناول العشاء ، وظل في ضيافة الرجل بضعة ايام حتى وصلت الاخبار بانتصار ياور بك على العصاة ، فظن ان هذا الانتصار كاف لاخماد الثورة وفتح الطريق الى الخرطوم ، ولكن مضيفه اشار عليه بأن يتريث قليلا وقال له : « لقد علمت ان الحكومة الانجليزية امرت بارسال حملة الى الخرطوم لانقاذ غوردون ، وستمر هذه الحملة بدنقلا فتسير معها » . قال : « ولكني لا استطيع صبرا حتى تجيء الحملة ، ولا بد من سفري الى الخرطوم من اقرب طريق اليها » .

فقال : « اذن تسير اليها من الطريق الجنوبي في الصحراء » . ثم احضر له جملا ركبه ومعه ثيابه واوراقه كلها في حصير صغير من صنع السودان . وودعه حتى اول الطريق ، وعاد وهو يدعو له بسلامة الوصول.

وسار عبود حتى بعد عن دنقلا بمسيرة يوم، وهو ما زال في الصحراء، ثم ادركه جماعة من الدراويش فسلبوه ثيابه وكل متاعه ولم ينج من الموت الا بالجهد ، فعاد الى دنقلا وقد فقد الرسم والكتاب في جملة الامتعة ، فلما رآه التاجر السوري وعلم بما حدث له اخذ يعزيه واشار عليه بأن ينتظر مجيء الحملة فيسير برفقتها كما اشار عليه من قبل ، فلم يجد بدا من العمل بمشورته .

* * *

لبث شفيق في الابيض ينتظر الفرج من عند الله ، حتى اذا كان ذات صباح علم ان المهدي امر باستعراض جيشه استعراضا عاما ، فذهب لمشاهدة الاستعراض في الساحة المتسعة خارج البلدة . وهناك رأى الجنود وافقين بأسلحتهم . ثم جاء المهدي وخلفاؤه وامراؤه ، فصلى بهم جميعا ، ثم القى خطبة حثهم فيها على الجهاد والسير لمحاصرة الخرطوم بدأها بقراءة الفاتحة ثم اخذ يغري الناس بالقتال والاستشهاد ، فلما اتم خطبته اخذ الدراويش في الدعاء والتكبير وقد هاجت عواطفهم ، ثم اخذ في استعراضهم ، وامرهم بالسفر الى منطقة الخرطوم لنصرة الدراويش المحاصرين لها ، ثم عاد الى مجلسه بعد ان وكل قيادة الحملة الى الامير ولد النجومي ، على ان يتولى هو القيادة العامة بعد وصوله الى هناك .

وكان من قواد المهدي في حصار الخرطوم الامراء : ابو جرجه ، وولد البصير حمد المهدي ، والامير الفضل ، والامير عبد القادر ولد ام مريم ، والامير مصطفى ابن الفقي الامين ، وشيخ الابيض . وغيرهم .

وعلم شفيق من رفيقه حسن انه دبر له امر السفر مع هذه الحملة في صحبة ولد النجومي بصفته احد الكتبة ، فسر لذلك كثيرا وشكره ، كما علم منه ان عدد الحملة عشرون الفا ، وان معظم الدراويش يحيطون

بالخرطوم وام دومان وقد بدأوا الحصار منذ عودتهم من وقعة هيكس اي قبل ان يأتي غوردون الى السودان ، فسأله : « أذاهب انت معنا الى هناك ؟ » . فأخبره بأنه لم يتلق امرا بذلك بعد ، وهنأه بهذا السفر لانه سيكون قريبا من بلاده وربما اتيح له الخروج من معسكر الدراويش ودخول الخرطوم فيصبح في حمى الحكومة المصرية .

ففرح شفيق بذلك اذ رأى فيه بابا للفرج ، وذهب الى حجرته واخذ في الاستعداد ، ثم سافرت الحملة في اليوم التالي يتقدمها الفرسان وفيهم الامراء ، ثم المشاة وجميعهم في لباس الدراويش ، ووراء الجميع النساء والاولاد .

وكان شفيق قد اعتاد طعام الدراويش ، وكانوا يقصرونه في السفر على الذرة اليابسة ، فيحمل كل منهم جرابا فيه قدر من الذرة ، يأكل منه شيئا كلما جاع ، وقل بينهم من يحمل ماء ولو كان طريقهم في الصحراء لانهم يصبرون على العطش .

وما زالت الحملة سائرة في البر تمر تارة بصحراء وطورا بغابات واخرى في جبال ، حتى وصلوا الى جوار الخرطوم ، فبعث ولد النجومي الى رجال المهدي في المناطق المجاورة فأخذوا في الاجتماع من سائر الجهات حتى زاد عددهم على مائة الف ، ففرقهم فرقا وارسل كل فرقة الى مركز في جوار الخرطوم .

والخرطوم تقع عند ملتقى النيلين الازرق والابيض اللذين يتكون منهما النيل ، ويحدها من الشمال النيل الفاصل بينها وبين الجزيرة والبر الآخر ، ومن الغرب البحر الابيض ، ومن الجنوب سور موصل بين النيلين. وكان شفيق قد شاهد ذلك السور لما مر بالخرطوم في المرة الماضية ولكنه علم عند وصوله هذه المرة انهم حفروا حوله خندقا كبيرا في غيابه حتى أصبح منيعا . وهو قائم على مسافة من المدينة وبينهما فضاء .

وشدد ولد النجومي الحصار على الخرطوم فبعث فرقا من رجاله الى البر المقابل لها من الشمال ، وفرقا الى البر الآخر المقابل لها في الغرب ، وبقي هو في فرقته وراء السور بالقرب من محلة يقال (كلا كلا) . كما شدد الحصار على ام درمان في البر الغربي مقابل الخرطوم ، حتى اصبح غوردون واهل الخرطوم في ضيق عظيم وقد لبسوا لباس الجوع والخوف .

وعلم شفيق من استطلاع احوال اهل الخرطوم انهم في ضيق ، وانهم ينتظرون نجدة من انجلترا لانقاذهم ، ثم مضى حوالي ثلاثة اشهر ولم تأت تلك النجدة ، حتى يئس اهل الخرطوم وقلت رغبة شفيق في الفرار اليها خوفا من ان يفر من بلاء فيقع في اعظم منه ويكون عرضة للقتل اذا ظفر المهدي بالمدينة .

وبعد قليل جاء المهدي من الابيض وانضم الى جنوده في الخرطوم فاصبحت قوة المهدويين عظيمة حتى لم يعد عند شفيق شك في سقوط المدينة اذا لم تأت النجدة المنتظرة . واستشار صديقه السوري ، وكان قد جاء الى هناك ، في امر الفرار الى الخرطوم ، فضحك حسن قائلا : « والله لو آنست من الفرار نفعا لكنت اول الفارين ، ولكنني اؤكد لك ان الخرطوم لا تستطيع المقاومة طويلا لانها في ضيق من قلة المؤن كما قد علمت ، فالافضل ان تكظم ما بك لنرى ماذا يأتي به الغد » .

فصبر شفيق على مضض ، وفيما هو جالس يوما يفكر في حاله ، جاءه حسن ضاحكا وقال له : « ما الذي يهمك الآن في هذه الغربة ؟

قال : « يهمني ان اعرف ما جرى لاهلي » . فقال له : « ان الرسول قد عاد من القاهرة ، فهيا قابله » .

فكاد شفيق يجن من الفرح ، ومضى معه الى الرسول ، فقال له هذا: « لقد سألت عن ابيك في قنصلية انجلترا ، فعلمت انه باع امتعته وهاجر

من الديار المصرية ، ولا يعلم احد اين توجه ، فذهبت الى بيت الباشا فقيل لي : انه هاجر الى الشام ولكن امرأته في البيت ، فدفعت اليها الكتاب ولم تعطني جوابا ! » .

فأخذ شفيق يندب سوء حظه ويبكي حزنا على والديه وعلى فدوى .

واخبرهما الرسول ان الحكومــة الانجليزية اعدت حملة لانقــاذ غوردون باشا والخرطوم ، فتشاوروا فيما يعملان واستقر رأيهما اخيرا على الصبر حتى تأتي الحملة الانجليزية .

- ١٥ -

وقعة ابي طليح والمتمة

علم المهدي بعد ايام بوصول الحملة الانجليزية الى كورتي ، وانهــا عازمة على مواصلة السير في صحراء البيوضة الى المتمة وشندي ومنها الى الخرطوم ، فبعث بعض رجاله بقيادة موسى ودخلوا وابي صافية ليقطعوا عليهــا الطريق عند آبــار ابي طليح وراء المتمــة ، ويمنعوها من الوصول الى النيــل .

وفي اليوم العشرين من يناير سمع شفيق لطلاق المدافــع في معسكر المهدي ، فعجب لذلك اذ لم يكن هناك ما يوجب ذلك وهم بعيدون مــن الخرطوم والدراويش ليسوا في حال حربية ، فسار الى صديقه حســن وفيما هو في الطريق اليه مر بجماعات من الدراويش في ايديهم قبعــات وثياب انجليزية فأوجس خيفة من ان يكونوا قد ظفروا بالحملة الانجليزية،

فلما وصل الى صديقه سأله عن السبب فقال له : « ان المهدي علم بانكسار رجاله في ابي طليح والمتمة ، فأراد ان يوهم من معه خلاف ذلك ، فأمر باطلاق مائة مدفع ومدفع علامة النصر ، وجاءهم بتلك القبعات والثياب على انها بعض الاسلاب وقد سمعت انه جمع خلفاءه والمقربين اليه من الامراء في هذا الصباح للشورى ؛ وفي المساء نعلم ماذا يكون من اجتماعهم » .

فقال شفيق : « كيف يمكنك ان تعرف ذلك اذا كانت الشورى سرية ؟ » .

قال : « ان لي بينهم صديقا حميما لا يخفي علي شيئا . فاذا أتيتني في صباح الغد اخبرك بما تم » .

وفي الصباح التالي جاء شفيق وقد صمم على الفرار من معسكر المهدي الى الخرطوم ؛ فلما التقى بصديقه حسن استطلعه الخبر فقال له : « اجلس لاخبرك بما تم في اجتماع امس » .

فجلس شفيق وجلس حسن بجانبه وقال : « لقد اجتمع المهدي امس بخلفائه والمقربين من رجاله ، ولما استتب بهم الجلوس قرأوا الفاتحة ثم قال لهم المهدي : (جاءتني الحضرة في الليل العابر وقد جمعتكم لاقص عليكم ما قاله لي ـ صلعم ـ فقد امرني بالهجرة الى الابيض، لان الانجليز قوم لا نقوى على قتالهم ؛ فاذا كان غوردون وهو فرد منهم قد دافعنا شهورا فكم يفعل الآلاف منهم وقد ظفروا برجالنا المحنكين في ابي طليح ؛ أفلا يستطيعون ان يغلبونا هنا ؟) . فوافقه الجميع الا الامير محمد عبد الكريم فانه عارض في الهجرة قائلا : (الاحسن ان نهاجم الخرطوم فان ظفرنا بها فلا يعود الانجليز ولا غيرهم يستطيعون الوقوف امامنا ، واذا ظفروا بنا فان الهجرة مستدركة) . وارفض المجلس على ان يعودوا الى الاجتماع مرة اخرى » .

فقال شفيق : « ها قد تحققنا حبوط مسعى المهدي ولم يعد لدينا ما يمنع انحيازنا الى حامية الخرطوم » .

فقال حسن : « ان لدي موانع تحول دون مرافقتي اياك الآن ، فسر انت في حراسة الله ، واذا قدر لنا الاجتماع ثانية فاننا لا نفترق بعد ذلك».

* * *

وعند الظهر انتهز شفيق فرصة اشتغال القوم بالصلاة وسار يريـد باب المسلمية من ابواب سور الخرطوم ، فلما بعد عن معسكر المهدي رفع عصا عليها منديل ابيض ، فلما رآه حماة الخرطوم من السور علموا انـه آت مسالما ، ففتحوا له الباب فانذهل لما شاهد من متانة ذلك السور وعمق خندقه ، وكانوا قد حفروه اثناء غيابه وعرضه نحو ١٧ مترا وعمقه عشرة امتار فقال في نفسه : « ان مثل هـذه الحصون لا يمكن ان يتخطاهـا الدراويش » . وسار به الحراس الى فرج باشا قومندان الحصون ، وكان اسود اللون طويل القامة ، فلما رأى شفيقا في لباس الدراويش سأله عن امره فقال : « اريد مقابلة غوردون باشا » . فأخذه وسار به الى المدينة حيث تقع سراي الحكومة على البحر الازرق ويقيم بها غـوردون ، فنظر شفيق الى جانبيه عند دخوله السور فاذا بالجنود قـد تفرقوا جماعـات واسلحتهم منصوبة على طول ذلك السور ، والرجال بين متوسدين خائري القوى ومتضورين جوعا ، وقد علت وجوههم علامات الضعف واليأس فلما رأوا شفيقا استبشروا بقدومه ظنا منهم انه انما جاء لمخابرة سرية ربما كان فيها خير لهم ، وكانوا يظنون ان المهدي بعـد ان علم بمجيء الحمـلة الانجليزية اصبح راغبا في الصلح والتسليم ، ولكنهم كانوا في ريب من امر المدافع التي اطلقت في الليلة الماضية ، لعلمهم ان مثل ذلك العدد من المدافع لا يطلق الا لانتصار ، فتقاطر جماعة منهم ينظرون الى شفيق وهم

بين مصري وسوداني وباشبوزق وغير هـؤلاء ، فرأوا على وجهه امارات البشر وانه ليس على شاكلة رجال المهدي الا بلباسه فأحبوا ان يسألوه عن امره فانتهرهم الضابط السائر بصحبته وامرهم بأن يرجعوا . وكانوا قد وصلوا القشلاق في وسط تلك الساحة فدخـل بعضهم القشلاق وعـاد الآخرون الى السور . اما شفيق فما زال سائرا حتى دخل المدينة فاذا بها قليلة الناس لتقلد اهلها السلاح واشتراكهم في الدفاع ، ولم ير اسواقـا مفتوحة ولا احد مارا فيها ما خلا بعض الفقراء المطروحـين في الشوارع يتضورون جوعا . وشاهـده احدهم فلما رآه بلباس الدراويش والحراس بجانبه صاح به قائلا : « اما تخافون الله وانتم مسلمون ، كيف تمنعون عنا المـؤن ، واذا كان صاحبكم مهديا حقا فكيف يستحل دم المسلمين ؟». فضحك شفيق ولم يجب ببنت شفة ، ولكن قلبه كاد يقطر دما لما عاينه في تلك المدينـة من الضيـق ، وخاف ان يتهـور بعض اهلها فيرميـه برصاصة او سهم .

* * *

ولما وصلوا الى باب السراي سأل حراس شفيق عن الحكمدار فقيل لهم : « انه سار لتفقد قلعة بوري عنـد الطرف الشرقي للسور ، وربما يسير من هنالك على محاذاة السور لتفقـد حاميته ، ثم ينقلب الى الغرب لتفقد قلعة موكران على ضفة النيل غربي المدينة » . فاضطر شفيق الى الانتظار هناك ريثما يعود الحكمدار حوالي الغروب للاجتماع بأعيـان المدينة . وادخلوه غرفة جلس فيها ينتظر عودة غوردون ، فجلس يفكر فيما وصلت اليه حال حامية المدينة ويعجب لتأخر الحملة الانجليزية الى ذلك الوقت ، ولكنه قال في نفسه : « ان الذين تحملوا الحصـار سنين لا يصعب عليهم احتماله اياما قليلة » . وكان ينتظر الفرج القريب لانـه

علم ان جيش المهدي خائف من الانجليز وعول على ان يطلع غوردون على مقاصد المهدي . ثم تصور انه نجا من تلك الاخطار وعاد الى القاهرة فاضطرب فؤاده لتذكره ما اخبره به الرسول من سفر فدوى الى الشام لتغيير الهواء ، وخطر رسمها في باله فمد يده الى جيبه ليستخرجه ولكنه سمع وقع اقدام كثيرة ولغطا ، فأصاخ بأذنيه فاذا بجماعة يسألون عن غوردون باشا وهم يتكلمون العربية والانجليزية والفرنسية ، فأطل من نافذة تشرف على صحن السراي فاذا بجماعة من الاعيان يرتدي اكثرهم الملابس الافرنجية ، فتأملهم جيدا فعرف اكثرهم ، وفي جملتهم : المستر بور مكاتب جريدة التيمس وكان قد جاء بصحبة حملة هيكس وبقي في الخرطوم بعد مسيرة الحملة ، والمدير احمد علي بيك ، ونيقولا ليوتتيدس قنصل اليونان ، وابراهيم فوزي بك ، وفتح الله جهامي احد التجار السوريين وكان قد تقلد مصلحة النقل والحمل ، والدكتور نقولا بك مفتش صحة السودان العام . وآخرون لم يعرفهم . وسمعهم يتضجرون من تلك الحالة ويتذمرون فيما بينهم من ابطاء وصول النجدة . فعلم من مجمل حديثهم انهم آتون للمفاوضة في وسيلة يصلون بها الى نتيجة .

وفيما هو ينظر اليهم جاءهم رجل في لباس رسمي علم من ملامح وجهه انه يوناني النزعة وتأكد بعد ذلك انه جرياجس بك باشكاتب غوردون فاستقبل هؤلاء الاعيان وقادهم الى القاعة لينتظروا فيها قدوم الباشا .

* * *

وعند الغروب علم بعودة غوردون ، ثم لحظه مارا في صحن السراي مطرقا عابسا لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ورآه يهم بالصعود الى القاعة فابتدره وخاطبه بالانجليزية ، فالتفت بغتة فلم ير احدا في لباس الانجليز،

فناداه ثانية فنظر اليه فلم يتحقق صورتـه لان الظلمة كانت قـد بـدأت تسدل نقابها ، فوقف وسأله : « من انت ؟ » . قال : « اني من ضبـاط الجيش الانجليزي » . فاختلج قلب غوردون لان لفظ الجيش الانجليزي كان نصب عينيه ليلا ونهارا وقد اقلق افكاره ومل انتظار مجيئه ، فتقدم الى النافذة وامر بالنور فجيء به اليه فتأمـل الرجـل فاذا هو بملابس الدراويش ولكن صورته غير سودانية فأمر باخراجه وان يلحـق به الى القاعة . وجلس الجميع هناك ينظرون الى شفيـق متعجبـين ، فابتدرهم غوردون قائلا : «لا تعجبوا لهذا الرجل ولباسه فانه حمل في ثياب الذئاب». ثم التفت الى شفيق وسأله : « ما اسمك وما الذي جاء بك الى هنا ؟ » . قال : « اسمي شفيق ، وقد جاءت بي الى هنا الاقـدار » . وحكى لهم الحكاية من اولها الى آخرها فلما وصل الى المدافع التي اطلقها العصاة ، وما دار بين المهدي وامرائه ضرب غوردون الارض برجله والتفت الى من حوله وقال : « ألم أقل لكم يا سادة انهم لم يقصدوا بتلك المدافـع الا ايهام رجالهم خلاف الواقع تشجيعا لهم ، وقد عرفت ذلك من المرأة التي كنت ارسلها لاستطلاع اخبارهم ؟ » .

فانقشع عن وجه الجلوس بعض العبوس واخذوا ينظرون الى شفيق نظرهم الى رجل جاءهم رحمة ، وجعلوا يسألونه عن حركات المهدي وقواته فأخبرهم بكل شيء الى ان قال : « ان هؤلاء الدراويش على جانب عظيم من البسالة والاقدام ، لا يبالون الموت ، وهم متعاقدو الايدي مرتبطـو القلوب لا شيء يثنيهم عن القتال ، وهم ينزلون كلام المهدي منزلة الوحي ولا سيما اذا ادعى (الحضرة) كما أخبرتكم . اما اذا صبرتم على قتاله فانه لا يقوى عليكم لانكم تعلمون مما قدمت انه في خوف واذا لقي مقاومة شديدة يخور عزمه ويعود على اعقابه الى الابيض » .

فقال قنصل اليونان : « من لنا بالدفاع واهل المدينة منطرحون في

الاسواق عشرات يتضورون جوعا ، وهل نلومهم اذا ارادوا الخروج الى العدو فان الحامية نفسها لا مؤونة عندها على ما سمعت » .

فقال فتح الله جهامي : « اننا لم نسمع بحصار مثل هذا الحصار ، ولا نفهم معنى لابطاء النجدة الى هذا الحد ، ونحن في مثل هذه الحال من الضنك والخطر » .

ثم التفت ابراهيم فوزي بك الى غوردون باشا وقال : « اننا جئنا لنستفهم عن امر الحملة ، فقد ضاقت نفوسنا وخارت قوانا وهلكت اولادنا ونساؤنا ، وانحطت ثقتنا ، واصبحنا في حال لم يصل اليها احد قبلنا ولن يصل اليها احد بعدنا » .

فالتفت اليهم غوردون وعلامات التأثر ظاهرة في وجهه وقال لهم : « ما الذي تريدونه مني ؟.. مروني بما شئتم فأنفذ أمركم ، انني اقسم لكم بالشرف اني لم اكذب في شيء مما قلته لكم ، واني لأفضل الموت على التفوه بغير الصحيح ، كما اني على استعداد لان اخلي لكم مركزي ليشغله من اراد منكم على اني اؤكد لكم انه لن يستطيع اكثر مما فعلت ، وعلى كل حال ، ارى اننا صبرنا كثيرا ولم يبق الا القليل ، والحملة الانجليزية في المتمة الآن وستكون هنا بعد يومين » .

وكان شفيق خلال ذلك الحديث ينظر الى غوردون فوجده قد نزع الطربوش عن رأسه وقد خف شعره وشاب ما بقي منه وقطب وجهه واسند خده الى كفه ، فساد الصمت حينا ، ثم وقف الجميع وانصرفوا وعاد غوردون بعد ان ودعهم الى القاعة فوقف له شفيق احتراما فنظر اليه ممسكا طربوشه بيده اليسرى وخاطبه وقد اخذ منه الضجر كل مأخذ قائلا : « أرأيت مثل هذا الاهمال ؟ ها قد مر علي اكثر من ستة اشهر وانا انادي بأعلى صوتي مستنجدا اصحابنا في لندن لانقاذ حاميات السودان ، فبعد ان شبعوا من المحاورة والجدل في برلمانهم اقروا ارسال النجدة ،

ولكني لا اظنها تصل قبل ان يصل الينا الموت ، فان اهل الخرطوم بعد ان كانوا يحترمون مقالي احترامهم لكلام منزل اصبحوا لا يصدقونني لكثرة ما وعدتهم واخلفت اعتمادا على وعود اصحابنا في لندن . فهل تصل تلك الحملة ونرى رجلا منهم في الخرطوم ؟ » . ثم رمى بطربوشه الى المقعد وجلس مطرقا ويده في جيبه ثم تناول سيجارة من علبة بجانبه واشعلها وراح ينفث الدخان في قلق ملحوظ . فهاب شفيق غضبه ولبث صامتا حتى قال له غوردون بعد قليل : « فلندع المقادير تجري في أعنتها » . ثم امر باحضار بذلة له ليرتديها بدلا من ثياب الدراويش، ودعاه الى الطعام فتناولاه ومعهما كبار الموظفين ولم ينفه احد منهم بكلمة .

* * *

امضى شفيق ليلة في السراي بالخرطوم ، وفي الصباح سأل عن غوردون فقيل له : « انه على سطح السراي يراقب حركات العدو بالنظارات » . وكان ذلك شغله في معظم النهار فينظر تارة الى العدو وطورا الى النيل يترقب عودة البواخر التي ارسلها لملاقاة الحملة الانجليزية في جهات شندي ، فلم يجرؤ شفيق على الصعود اليه ومخاطبته ، وعاد الى حجرته ، ثم خرج منها الى غرفة الاستقبال فوجد فيها بعض الكتب والجرائد الانجليزية فأخذ يتلهى بمطالعتها ريثما ينزل غوردون ، ثم لاحت منه التفاتة الى رسم فوتوغرافي بين الجرائد والاوراق فما كاد يراه حتى خفق قلبه بشدة اذ علم انه رسمه الذي اعطاه تذكارا لفدوى ، وقد ادرك ذلك من توقيعه عليه لان الرسم كان مقطوع الرأس ، فأخذت ركبتاه ترتجفان ، وهو لا يصدق انه في يقظة . ثم جعل يفكر فيما جاء بالرسم الى ذلك المكان ، وفي قطع رأسه . وبقي واقفا مطرقا والصورة في يده حتى سمع الجنرال غوردون يخاطبه مسلما فانتبه فاذا هو قد نزل من السطح

والنظارات بيده ، فبهت شفيق ثم رد التحية حانياً رأسه احتراما ، ولكنه لم يستطع اخفاء ما كان فيه من الاضطراب والرسم لا يزال في يده على انه تجلد خوفـا من ظهور دلائل الوجد والغرام على وجهه لانه ليس في حال تتيح له ذلك .

اما غوردون فحمل تلك المظـاهر على خوف شفيق من سقـوط الخرطوم بعد ان سمع ما سمعه بالامس فابتدره قائلا : « لا تجزع يـا عزيزي ، ان قضاء الله سبحانه وتعالى لا مفر منه ويجب الا تعود نفسك على الخوف وانت في شرخ الشباب » .

فتجلد شفيق وحاول التبسم ثم قال : « اني يا سيدي لا خوف علي طالما كنت والجنرال غوردون في حال ولحدة اذ لست افضل منه » .

فقال غوردون : « ولكن يا ولدي لا يخفى عليك اني قد امسيـت شيخا وقد انقضت ايامي ، اما انت فلا تزال في اول حياتك وربما كانت لك فتاة وتود البقاء من اجلها » .

فعاد قلب شفيق الى شدة الخفقـان ، ولم يمكنه الجـواب لتلعثم لسانه ، ولما حاول الاجابة سبقته العبرات ، فظنه غوردون يبكي خوفا من وقوع القضاء فقال له : « اعتبر يا بني بما يقاسيه الانسان من الاخطار في هذا العالم وكيف يكتب الله نجاته منها » .

فتنهد شفيق تنهدا عميقا ، واراد ان يسأل عن الرسم وسبب وصوله الى تلك الغرفة لكنه لم يجرؤ على اطالة الكلام لعلمه بأن الرجل مشغول بما هو اهم .

واخيرا جلس غوردون على المقعد واشعل سيجارة اخذ ينفخ دخانها ويتلهى بنفض رمادها باصبعه وينقلها من يد الى اخرى مكررا ذلك مرارا حتى امست القاعة تعج بالدخان عجيجا .

ومضت بضع دقائق وهما صامتان ، وغوردون كلما انتهت سيجارة

اشعل غيرها وهو لا يهدأ في جلوسه لحظة . وفيما هما في ذلك دخل جندي يقول : « ان بورديني بك بالباب » . فقال غوردون : « دعه يدخل » . فدخل الرجل وعليه الجبة والقفطان والعمامة وهم بيد الباشا ليقبلها ، فلما رآه في تلك الحال من القلق اضطرب فؤاده ولم يعد يجرؤ على مخاطبته مع ما كان له من الدالة عليه . اما غوردون فقال له : « ماذا اقول الآن ؟ ان الناس لا يصدقونني لكثرة ما أنبأتهم بقرب وصول النجدة ثم لم تصل».

وكان بورديني بك من كبار تجار المدينة ، وقد جاء يدعو الباشا الى جلسة يتخذون فيها قرارا نهائيا بشأن الدفاع ، فرأى ان الباشا لا يستطيع وهو في هذه الحال من الغيظ ان يحضر الجلسات فتركه وانصرف . ثم نهض غوردون وفي يده النظارة المقربة وصعد الى سطح السراي ليراقب حركات الاعداء المحدقين بالمدينة من جهاتها الاربع . فعاد شفيق الى غرفته والرسم في يده يعيد النظر اليه مفكرا . ولاح له ان يحافظ على ملابس الدراويش التي جاء بها لعله يحتاج اليها فتنفقدها، وحفظها في مكان بالغرفة. وصبر ليرى ما يكون .

- ١٦ -

سقوط الخرطوم

قضى شفيق ليلته يراقب حركات غوردون فاذا هو قد ظل حتى نصف الليل ساهرا يكتب ، ثم سمع شفيق صوت اطلاق المدافع فنهض مذعورا فاذا بأهل السراي يتراكضون ، فسأل عن الباشا فقيل له : « انه

على سطح السراي يطلق المدافع على الاعداء » . فصعد اليه فاذا هو في لباس النوم يطلق القنابل والعدو هاجم على الاسوار .

وبعد قليل شاهد شفيق جماهير العصاة قد دخلوا السور من باب المسلمية وامتلأت بهم الساحة وما زال غوردون يطلق القنابل عليهم من السطح حوالي ساعة حتى اقتربوا كثيرا ، فلم يعد يستطيع تصويب المدافع نحوهم . ثم رأى شفيق اعلام المهدويين تخفق في وسط الجماهير فتحقق لديه ان قد قضي الامر ، فأعمل فكره للنجاة بحياته ، فسارع الى غرفته وارتدى ملابس الدراويش بعد ان تحقق ان الدفاع لا ينفعه شيئا ، ثم نزل من السراي فشاهد جماهير العصاة عند باب السراي يريدون الدخول ، ثم تقدم اربعة منهم ودخلوها فالتقوا بغوردون عند رأس السلم وقد لبس ثيابه وتقلد سيفه وحمل المسدس بيده فهجم عليه احدهم ونادى بأعلى صوته : « آه يا ملعون اليوم يومك » . وطعنه بحربة ألقته صريعا . فأجهز عليه رفاقــه .

وكان ذلك قبـل شروق الشمس فسقط غوردون صريعا يتخبـط بدمائه ، ولم يستطع شفيق النظر اليه فترك السراي ونزل الى الشارع حيث اختلط بالدراويش متظاهرا بأنه واحد منهم . وكان كثيرون منهم يعرفونه ولم يعلموا انه فر من معسكرهم فظنوه على دعوتهم . ثم رأى درويشـا حاملا رأس غوردون يريد ايصاله الى المهدي ، مع ان المهدي كان قد امر بالابقاء على حياته ، ودامت المذبحة ست ساعات ولم يكف الدراويش عن القتل حتى امرهم المهدي بذلك .

واغتنم شفيق فرصة اشتغـال الدراويش بالنهـب والقتل وطلـب شاطىء النيل ، فوجد خشبة هناك اتخذها بمثابة قارب ، وما كاد يبتعد بها من الشاطىء حتى بصر به بعض الدراويش فرموه بالسهـام ورصـاص البنادق فأصابه سهم في فخذه ، لكنه ما زال ماضياً في السباحة بالخشبة

حتى اتى جزيرة حلفايا قبالة حلة والتجأ الى شجرة هناك ، وكان الليل قد سدل نقابه فلم يعلم به احد ، لكنه كان في خوف عظيم لانتشار الدراويش في تلك الجهات .

وقضى شفيق ليلته ساهرا يفكر في وسيلة لنجاته ، اما جرحه فكان طفيفا وقد ضمده بقطعة من عمامته . ثم نهض في الصباح فارتدى ملابس الدراويش ، وكان قد اسود لون جلده من الحر ، واتقن اللهجة السودانية وعرف اصطلاحات الدراويش في حديثهم وصلاتهم وسائر احوالهم ، فأخذ يجول في الجزيرة حافيا والسبحة في عنقه يكرر الشهادة والدعاء لنصرة الدراويش وابادة الكفار حتى وصل الى مكان اشتم فيه رائحة خاصة بأهل السودان يشتمها الانسان عن بعد ، فتقدم نحوها حتى وصل الى بيت صغير فيه ثلاثة من اهل القرية ، فحياهم بتحيتهم المعتادة ، فردوا التحية ودعوه الى الطعام ، وسألوه عن حاله فزعم انه ممن جاءوا للجهاد في سبيل الامام المهدي وقد اصيب برصاصة في رجله اثناء هجومه على المدينة فلم يعد يستطيع الجهاد ، فقال احدهم : « انك والله قد نلت اجرا عظيما ، ويا حبذا لو اصبنا بمثل اصابتك ، وعلى كل حال قد اوقع الله النصارى (يريد الانجليز) في شر اعمالهم ، ولم يعودوا يقدرون على المجيء الى هنا بعد سقوط الخرطوم ، وبعد ان رصدهم سيدنا الامام » .

فلم يفهم شفيق معنى ذلك الرصد ، فقال : « وكيف كان ذلك ؟ ».
فقال احد القرويين الثلاثة : « يظهر انك لم تسمع الخبر ، ان رجال سيدنا الامام عثروا في السنة الماضية وهم سائرون الى الدبة بجاسوس من جواسيس الكفار كان آتيا الى غوردون ، ففر الجاسوس تاركا متاعه ، وكانت فيه صورة من صور عساكر النصارى فسلموها للامام فأخذها وقطع رأسها بسيفه ثم بعثها الى غوردون في الخرطوم لينذره بأن القادمين لانقاذه سيصيبهم مثل ما اصاب تلك الصورة ! » .

فأدرك شفيق ان تلك الصورة هي صورته وفهم معنى قطع رأسها ولكنه لم يفهم كيف جيء بها الى السودان ولا من جاء بها فأخذت منه الهواجس كل مأخذ ، لكنه خاف ان يظهر عليه ذلك ، فتجلد وتظاهر بالدعاء للمهدي . ثم جاء القوم بقدر بها ماء يغلي ، ووضعوا فيها شيئا من الويكة (فتات ورق البامياء الجاف) وجعلوا يحركونه في الماء حتى صار مزيجا لزجا ، واخيرا اخرج كل منهم رغيفا من خبزهم الاسمر الملبد، واعطوا شفيقا رغيفا مماثلا ، وراحوا يغمسون اللقيمات في ذلك المزيج ويأكلون ويلحسون اصابعهم بعد كل لقمة ، ففعل مثلهم .

وفيما هو يأكل لاحت منه التفاتة الى الورقة التي كانت بها الويكة الجافة فما تأملها حتى خفق قلبه ووقفت اللقمة في حلقومه ، اذ وجد بها كتابة بخط يشبه خط فدوى ، فتناول الورقة دون ان يشعر بذلك مضيفوه ودسها في ثيابه ، ولم يعد يستطيع طعاما من شدة التأثر ، فنهض متظاهرا بالذهاب لقضاء حاجة . ثم فتحها واخذ يقرؤها فاذا هي كتاب فدوى اليه من بيروت منذ عشرة اشهر ، فعجب لهذا الاتفاق ، واخذ يبكي ويتحرق لعدم استطاعته الوصول اليها ولولا تعوده الاخطار والمشاق لأغمي عليه ، لكنه تجلد وعاد الى رفاقه حيث قضي معهم بقية ذلك النهار ثم غادرهم شاكرا حسن ضيافتهم ، وسار حتى وصل الى مكان منعزل في الجزيرة فجلس يفكر في امر فدوى ويبكي نادبا سوء بخته وما وصل اليه.

* * *

في منتصف اليوم التالي (٢٨ يناير سنة ١٨٨٥) شاهد شفيق باخرة قادمة على النيل فوقها العلم الانجليزي فعلم انها قادمة لانقاذ غوردون من الخرطوم ، فقال لنفسه : « سامحكم الله على ابطائكم لقد ذهبت اعمالكم ادراج الرياح » . ورأى ان نزوله الى تلك الباخرة آمن له من البقاء هناك

فنظر اليها من الجزيرة فاذا هي تجر وراءها صندلا مشحونـا بالعساكر السودانيين . فأشار الى من فيها اشارة علموا منها انه من جندهم ، فاقتربوا بالباخرة من الجزيرة ودلوا له خشبة صعد فوقها اليهم فاجتمع اليه الجنود الانجليز ينظرون الى لباسه وهيئته ويعجبون ، ثم ذهبوا به الى ضابط لهم قصير القامة خفيف شعر العارضين نحيف البنية هادىء الطبع فهم من كلامهم انه السير شارلس ولسن رئيس قلم مخابرات الحملة النيلية التي جاءت لانقاذ غوردون ، فخلا اليه وقص عليه قصة مذبحة غوردون ومن معه في الخرطوم . واشار عليه بألا يمضي اليها لانها في قبضة العصاة . لكنه لم يصغ الى مقاله ، وسارت السفينة والدراويش يضربونها من الجانبين حتى وصلت الى الخرطوم فتحقق السر شارلس صحة قول شفيق لما رأى اعلام المتمهدي تخفق فوق السراي والقشلاق والاسوار وغيرها . وهم بالعودة ولكن السفينة اصطدمت بعد ذلك بصخرة عند الشلال السابع فانكسرت واوشكت ان تغرق ، فهرول شفيق في جملة المهرولين الى الصندل ونزل اليه والرصاص يتساقط عليهم من ضفتي النيل ، وحملوا في ذلك الصندل ما استطاعوا حمله من الناس والمتاع وجروه الى الشاطىء حتى بلغوا جزيرة يقال لها جزيرة واد حبشي ، ثم ارسل السير شارلس ضابطا في قارب صغير الى المتمة لاعلام الحملة بذلك الامر لكي يسرعوا الى انقاذهم . ولبثوا على هذه الحال والخطر يزداد كل يوم حتى رأوا في مساء اليوم الرابع باخرة قادمة من جهة المتمة فعلموا انها آتية لانقاذهم فاستبشروا بالنجاة ، وتعلقت ابصارهم بالباخرة حتى اقتربت من الجزيرة ، ولكنهم ما لبثوا ان سمعوا اطلاق المدافع من جهات العدو ، ثم علموا بالاشارات أن الباخرة اصيبت بقنبلة عطلت آلتها البخارية ، وكاد كل من فيها يهلكون بقنابل الدراويش ورصاصهم وسهامهم ، لولا ان تمكنوا من اصلاح الباخرة

قبل صباح اليوم التالي ، فواصلت سيرها حتى بلغت موضعهم فركبوهـا وعادوا بها في الظلام حتى بلغوا المتمة حيث معسكر الانجليز على ضفة النيل الغربية في محل يعرف بالقبة .

وبعد بضعة ايام ، انسحبت الحملة راجعـة عبر صحراء البيوضـة قاصدة كورتي لتسير من هناك في النيل الى مصر ، فكان سرور شفيـق بذلك عظيما ، ووصلوا الى كورتي بعد اربعة عشر يوما مارين بأبي طليح وجكدول . وهناك جاءتهم الانباء من لندن بأن حكومتها قررت بقـاء الجيش في كورتي حتى الشتاء ، لمعاودة السير لفتـح السودان ، فكادت آمال شفيق تنهار ، لكنه ما انفك يسعى حتى اذن له في ان يسير وحده الى القاهرة ، فأخذ ما يحتاج اليه ، وسار تارة يركب جملا ، وطورا قاربـا ، حتى وصل الى القاهرة في اواخر شهر مارس سنة ١٨٨٥ .

- ١٧ -

في قرية عالية

لبثت فدوى في بيروت بعد ان استولت على الدبوس واستوثقت من ذهاب عبود بكتابها الى شفيق في السودان ، وهي على مثل الجمر ، تأخذ اباها باللين وتعده باطاعة اوامره ، وكان هو يلـح على عزيز في ان يأتي بالمنوم المغناطيسي ، فكتب عزيز الى صديـق له في باريس في هذا الشأن ، وظلا ينتظران الرد .

وورد الى الباشا ذات يوم كتاب من زوجته في مصر ، في طيه كتاب

شفيق الذي بعث به من الابيض وفيه نبأ بيقائه حيا ، فلما قرأ الباشا الكتاب خاف حبوط مسعاه في الاستيلاء على ثروة عزيز اذا عاد شفيق حيا . فأخفى الخبر عن ابنته لئلا تتشبث به .

ولاح له ان يسعى اولا في وضع يده على اموال عزيز فخلا اليه يوما ودار بينهما الحديث في شؤون مختلفة تطرق منها الباشا الى مسألة الاقتران بفدوى ، ثم قال له : « ما دمنا قد صرنا يا ولدي جسمين في شخص واحد ، لانك ستكون صهري وفي منزلة ولدي والوارث لكل اموالي اذ ان فدوى وحيدتي . فأرى ان نضم ممتلكاتنا بعضها الى بعض ، فاما ان اضم مالي الى مالك واكتب لك بذلك صكا . واما ان تضم مالك الى مالي وتكتب لي به صكا » .

ففرح عزيز بذلك القول ، اذ استدل به على تمكن محبته من قلب الباشا . وايقن بزوال كل مشكلة من طريقه وكان يود ان يكون هو المستولي على المالين لكنه لم يجرؤ على التصريح بذلك . كما انه اراد ان يظهر للباشا وثوقه بمحبته وصدق مواعيده فقال له : « اني يا عماه وما املك في قبضة يدك ، لانك بمنزلة ابي » .

ففرح الباشا لنجاح سعيه ، وكان قد اعد الورق والدواة لهذا الغرض ، فكتب عزيز صكا بالتنازل عن كل امواله للباشا ، ثم اشهد على ذلك بعض الشهود ، وناول الباشا الصك فجعله في جيبه فرحا بتحقيق امانيه ، وهنا شعر عزيز بالخطأ الذي وقع فيه ، ولكنه لم يجرؤ على استرجاع الصك ، فلبث صامتا مهموما لاستيقانه بأنه صار صفر اليدين لا يملك شيئا ، لكنه عاد فتذكر انه سيكون عما قليل قرينا لفدوى فتعود هذه الاموال واموال الباشا جميعها اليه . فسكن جأشه قليلا ، وازداد تعلقا بفدوى ورغبة في الاقتران بها .

وفي يوم من ايام شهر مارس كانت فدوى في غرفتها سابحة في بحار

الهواجس فدخل عليها بخيت وقال لها : « ورد علي كتاب من عبود ذكر فيه انه وصل الى قرب الخرطوم ، لكنه لم يستطع دخولها لانها تحت الحصار ، وسيبقى في انتظار الحملة النيلية الذاهبة لانقاذ حامية الخرطوم فيسير برفقتها » .

فقالت : « اني يا بخيت قد بلغ بي اليأس منتهاه ولم اعد استطيع صبرا » . وبكت واخذت تتأوه وتتحسر ، فراح بخيت يواسيها ويمنيها ، ثم خشي مجيء ابيها فاستأذن وخرج ، وتركها نهبا للوساوس والاحزان .

وفي الليلة التالية رأت حلما أزعجها كثيرا ، لانها رأت فيه شفيقا مضرجا بدمائه في صحراء السودان والنسور حائمة عليه تأكل من جثته ، فاستيقظت مرتعبة باكية ، وكتمت الامر عن ابيها ، ثم دعت بخيتا وقصت عليه حلمها وهي تبكي ثم قالت له : « اذا كنت مخلصا لي حقا ، فأتني بسم اتجرعه ، لألحق بشفيق في العالم الآخر قبل ان يدرك مني ذلك اللعين وطرا ! » .

فقال بخيت : « لا بأس عليك يا سيدتي ، ووالله لن ينال ذلك الوغد مسمارا في نعلك وانا على قيد الحياة » .

قالت : « ان الحياة لم تعد تحلو لي ، فأتني بالسم والا خنقت نفسي بيدي » . وحاولت خنق نفسها بيدها ، فأمسكها بخيت وحاول تسكين ما بها فلم يستطع لان عواطفها تسلطت على عقلها واخذت تلطم وتثب كمن اصيب بجنة وقد حلت شعرها وقطعته واوغلت في البكاء .

فوقع بخيت في حيرة واخذ في البكاء معها ، ثم لاح له ان يتظاهر بموافقتها فقال : « سأفعل ما تريدين ، ولكن خففي عنك الآن لئلا يأتي سيدي ويراك على هذه الحال » .

فابتدرته قائلة : « لم اعد لحسب حسابا لاحد ، لاني لست مالكة رشدي ، ولا انا خائفة من شيء ، وسأكون عما قليل في عداد الاموات » .

فبكى بخيت تأثرا ، ثم حاول تعزيتها والترفيه عنها كي تصبر حتى يأتي الرسول ، فلما ذهبت محاولاته سدى ، قال لها : « سأذهب لآتي لك بالسم ، ولكن امهليني بضعة ايام ، لان الصيدليات لا تبيع السموم بغير امر الطبيب ولا بد لي للحصول عليه من تدبير وسيلة لذلك » .

فقالت : « لا بأس ولكني اوصيك بالاسراع ما استطعت لان الموت افضل من حياتي هذه » .

ثم ألقت بنفسها على السرير خائرة القوى ، وخرج بخيت يبحث عن وسيلة لنجاة سيدته من هذه الحال ، وخشي ان تعود الى خنق نفسها بعد خروجه ، فعاد لتفقدها بعد قليل فاذا بها ما زالت ممددة على السرير كأنها نائمة . ورأى على سرير الباشا بعض اوراق كأنه نسيها ، ووقعت عينه بينها على ورقة مكتوبة بخط يشبه خط شفيق ، فتأملها فاذا هي الورقة التي ارسلها شفيق من الابيض الى والديه ينبئهما ببقائه حيا ، فأخذ بخيت يرقص طربا كأنه اصيب بجنة ، ولكنه خاف على سيدته من صدمة الفرح الشديد ، فجاهد نفسه لاخفاء فرحه وانتظر حتى افاقت ، فما كادت تنظر في وجهه حتى قرأت فيه امارات البشر فنهضت وسألته : « لعلك جئت بالسم المنشود ؟ » .

فتلعثم ولم يحر جوابا ، ثم تجلد واخذ يمهد لالقاء النبأ اليها لئلا تضرها البغتة فقال : « لقد جئتك بما هو خير وابقى ، فاتكلي على الله وهو يمنحك كل ما تريدين » .

قالت : « انت تعلم صدق ايماني بالله ، غير اني ارى مماتي اقل شقاء لي من حياتي » .

قال : « وهل تحققت ان سيدي شفيقا غير حي ؟ » .

قالت : « ان ما علمناه يقرب من اليقين » .

قال : « كلا يا سيدتي ، بل الارجح انه على قيد الحياة » .

فاتنفضت فدوى عند سماعها ذلك وقالت : « ماذا تقول يا بخيت ؟ هل سمعت شيئا جديدا » .

قال : « هبي اني لم اسمع شيئا ، فان قرائن الاحوال تدل على ذلك».

قالت : « اين هي هذه القرائن لم ار واحدة منها » .

قال : « اول القرائن انكما وقعتما في ضيق وخطر مرارا فأنقذكما الله . وهذا دليل على انه سبحانه وتعالى يريـد بقاءكما لتتمتعا ببقيـة حياتكما . والقرينة الثانية اننا لم نسمع خبرا صريحا بقتله او موته . واما القرينة الثالثة ... » وسكت .

فابتدرته قائلة : « وما هي القرينة الثالثة ؟ » .

فقال : « ان القرينة الثالثة هي هذا الكتاب الصغير » . ومد يـده اليها بكتاب شفيق . فما كادت تشاهد خطه حتى شهقت وارتدت اليهـا قوتها وهمت بالورقة فاختطفتها وقلبها يخفق وفرائصها ترتعـد ، واراد بخيت منعها فلم يستطع . ثم قرأت تلك الورقة وعيناها تكادان تطيران من اللهفة . ولم تتم القراءة حتى امتلأت عيناها بدموع الفرح والبشر . وظلت تعيد قراءة الكتاب ثانية وثالثة ورابعة ، واخيرا قالت لبخيت : « ما العمل الان وما الرأي ؟ » .

فقال : الرأي ان ننتظر الفرج من عند الله فانه على كل شيء قدير » .

قالت : « وماذا نعمل في شأن ذلك الثقيل الذي سلطه الله على افكار ابي حتى صمم على تبليغه مرامه ؟ » .

قال : « ثقي بأنه غـير بالغ مسمارا من نعلك ، ولسوف ترين من بخيت ما يسرك » .

قالت : « افعل ما بدا لـك ، ولكنني لا ارى ان ابي يميـل الى موافقته » .

فتكلف بخيت الضحك وقال : « بل لقـد تم اتفاقهما ، ولكن ذلك

الوغد لن يبلغ شيئا ما دمت حيا ولو اتى بمنومي العالم كله ! » . ثم عض انامله كأنه صرح بما لم يكن يريد التصريح به .

فقالت له فدوى : « ما معنى هذا الكـلام ؟ ومن المنومـون الذين تعنيهم ؟ » .

فحاول التخلص من الجواب ، ولكنها ألحت عليه حتى خاف غضبها اذا لم يخبرها فقال لها : « ان في الاطباء اليوم فئة يستخدمون التنويم المغناطيسي ، ومن خواص ذلك التنويم استهواء النائم والايحاء اليه بأن ينفذ بعد استيقاظه كل ما طلب منه وهو نائم . وقد علمت من ثقة ان ذلك الخائن بعث الى بلاد اوربا يستقدم طبيبا لينومك ويستهويك كي تحبيه ».

فضحكت ساخرة وقالت : « ان جميع منومي العالم لا يمكنهم ان يحببوا الي هذا النذل الخائن ، واذا مت فان ترابي لا يحبه ولا يمكن ان يحبـه » .

فقال : « ان فعل الاستهواء غريب يا سيدتي ، ولكني اخبرك بأنك تستطيعين رفض النوم ، لان اباك سيدعي ان ذلك الطبيب جاء لتطبيبك ، فتظاهري انك بخير ولا تحتاجين الى طبيب ، والافضل ان تطلبي السفر من هذه المدينة لترويح النفس فان الاطباء قد اشاروا بذلك في الشتاء ولم تكن الطريق مفتوحة لكثرة الثلوج . اما الآن فقد جاء الربيع والتجول في لبنان مما تتوق اليه النفس وينشرح له الصدر » .

قالت : « لقد نطقت بالصواب ، فأرجع هذا الكتاب الى ما بين اوراق ابي لئلا يعلم باطلاعنا عليه ، وسأدبر امر سفري منذ الآن » .

ولما كان وقت الغداء جاء الباشا ليتناوله مع فدوى . وكان قد قضى نصف النهار مع عزيز فلما جلسا الى المائدة اخذا بأطراف الحديث فقال الباشا : « اراك اليوم والحمد لله في صحة جيدة » .

قالت : « نعم يا ابتـاه واني اشـكر الله على ذلك ولكنني اشعر

باحتياجي الى الخروج من هذا الفندق ومن هذه المدينة » .

قال : « وانا ارى رأيك ، فالى اين تريدين الذهاب ؟ » . قالت : « اسمع الناس يطنبون في مدح هواء لبنان ولا سيما في اوائل الصيف . فالافضل ان نقصد احدى القرى حيث يمكننا الاقامة بفندق او منزل بضعة اشهر ، ومتى انقضى الصيف عدنا الى بيروت » .

فاستغرب الباشا ذلك منها ، ولكنه فرح به وخيـل اليه ان تحسن صحتها نتيجة نسيانها شفيقا . فازداد سروره .

وما انتهى من الغداء حتى انطلق الى مقابلة عزيز وعلى وجهه امارات البشر . فقص عليه ما دار بينه وبين فدوى ، فقال عزيز وقد رقص قلبـه فرحا : « وانا ماذا افعل ؟ » .

قال : تتبعنا بعد بضعة ايام الى قرية عالية . وهي على مسافة ثلاث ساعات بالعربة من هنا . وموقعها في سفح جبل عالٍ تشرف على بساتين وغياض » .

ثم امر الباشا بخيتا ان يهيىء مـا يلزم للسفر . وبعد يومين سـار الباشا وابنته وبخيت في عربة حتى وصلوا قرية عالية فاتخذوا لهم مكانا في بيت لبعض اهل القرية . ولم يمض شهران حتى تحسنت صحـة فدوى كثيرا ، وكانت تخرج مع ابيها او مع بخيت الى الكروم خارج القرية فتأكل ما حضر من الفاكهة . وتروح النفس باستنشاق الهواء النقي الذي ليس له مثيل في العالم .

اما عزيز فلحق بهم واتخذ له مكانا بالقرب من بيت الباشا حتى يطمئن قلبه على فدوى ، دون ان يطمع في مشاهدتها . ولكنه كان يعلل النفس بمواعيد والدها ، ورأى بعد مشورته لا حاجة الى التنويم لانهـا اخذت تسلو شفيقا .

وفي ذات يوم من ايام سبتمبر خرجت فدوى مع بخيت للنزهـة في

بعض الكروم ، ولما استقر بهما المقام على صخر مرتفع مشرف على عـدة آكام يكسوها كروم العنب والتين والمشمش وغيرها ، وقد مالت الشمس الى الزوال فأصبح منظر تلك التلال مع ما تشرف عليه من سواحل بحر الروم من بعيد منظرا بديعا تزينه اشعة الشمس المائلة الى الاصفرار ويكلل البحر عند الافق الشفق المتعدد الالوان .

فقالت لبخيت : « ماذا نصنع بذلك النـذل الذي ما زال يرجـو المستحيل بعد ان علم بأني لا استطيع ان اراه ولا يمكن ان اميل اليه ، وقد وافقه ابي على قصده واخشى ان يغريه بتعجيل الامر فنقع في بلاء عظيم ؟».

فابتدرها بخيت قائلا : « طيبي قلبا يا سيدتي ، وتحققي ان الفرج قد صار قريبا . اما امر الاقتران فشيء يسهل تأجيله ما دمت تظهرين لسيدي انك لا تكرهين ذلك النذل الخائن ، وثقي بأن قتله اسهل لدي من شرب كأس ماء ، ولكنني لا ارى داعيا للتعجيل بذلك ، فلا حاجة بنا لان نعرض أنفسنا لقصاص الحكومة او لغضب سيدي الباشا . اما اذا رأيت منه ما يكدرك فاني اقتله ولو كان داخل القلاع والحصون ولا ابالي ما يكون بعد ذلك . فاعملي انت على الهـاء سيدي الباشا عن اتمـام ذلك الامر بالاسفار ونحوها ، حتى نعود الى القاهرة ويكون الله قد اذن باطمئناننا فيما يختص بسيدي شفيق » .

فقالت : « بورك فيك يا بخيت لقد نطقتِ بالصواب ، فهيا بنا الى المنزل لان الشمس قد غربت » . ونهضا عائدين الى المنزل .

وفيما هما في الطريق لمح بخيت ساعي البريد قادما من بيروت، فأسرع اليه وسأله : « أمعك خطابات لسيدي الباشا » . وكان الساعي قد عرفه من قبل ، فسلمه كتابين احدهما اكبر حجما من الآخر كأن فيه اكثر من كتاب ، فقالت فدوى لبخيت : « لعل في هـذا الظرف كتابـا خاصا بي ، ومتى وصلنا الى ابي نعلم الحقيقة » .

ولما وصلا الى البيت وجدا الباشا هناك ، فسلمه بخيت الكتابين ، فأخذهما وجلس وابنته في الحجرة ، وفض اول كتـــاب وقرأه ، ثم فض الكتاب الآخر فاذا فيه كتاب آخر ورقه قديم ، وكانت فــدوى تختلس النظر الى ابيها فلاحظت على وجهه علامات التعجب ، فخفق قلبها ورغبت في استطلاع الامر لكنها صبرت حتى يفرغ ابوها من القراءة ، ثم رأتــه قد تناول الكتاب القديم واخذ يقرؤه في ذهول ، فلم تعد تستطيع صبرا ، ولكن الباشا ما لبث ان تظاهر بانشغاله بأمر مهم خارج الغرفة ثم عــاد وقد اخفى احد الكتابين . فأدركت فدوى ان فيه شيئا يخصها . ولكنهــا اكتفت بأن سألت اباها عن الاخبار فقال : « ان والدتك في خير . وهي نود المجيء الى هنا لقضاء فصل الصيف والذهــاب الى دمشق لمشاهدة والديهــا » .

فقالت : « حبذا مجيئها فاني استأنس بها في هذه الديار ، فهــلا كتبت اليها لتجيء » . قال : « سأفعل ان شاء الله » .

وبعد العشاء ، اوى الباشا الى فراشــه فتظاهرت فدوى بالرغبة في النوم هي الاخرى . ولكنها كانت قد اتفقت مع بخيت على ان يجيئهــا بالكتاب الذي اخفاه ابوها . فلما انتصف الليل ، سمعت وقــع اقدام في غرفتها وكان النور فيها ضعيفا فانتبهت وجلست واشعلت شمعة ، فرأت بخيتا وفي يــده ذلك الكتاب فأخذته ودنت من الشمعة واخــذت تقرؤه فاذا فيه :

« اعلمي يا زوجتي العزيزة ان حكاية ذلك الصندوق وذلك الشعر الملوث بالدماء حكاية قد كتمتها عن جميــع المخلوقات اكثر من ثــلاث وعشرين سنة . وقد كنت عازما على كتمانها بعد ذلك . على ان الحاجة وسفرنا في البحار الان حملاني على كتابة هذا اليك حتى اذا اصابني سوء في البحر او البر قرأت هذه الورقة وعلمت حكايتي واصلي وفصلي .

« اما اصلي فمن دمشق الشام ، ولم يرزق ابواي غيري الا ابنة واحدة ، فاحسنا تربيتنا ، وعشنا في رغد ونعيم حتى كانت حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ على اثر حوادث لبنان المفجعة التي ذبح فيها نصارى حاصبيا ودير القمر وغيرهم ذبح الاغنام بعلم رجال الحكومة . وذلك ان احد المسيحيين في دمشق رأى السير على مقتضى التنظيمات التي سنها السلطان عبد الحميد سنة ١٨٥٦ بشأن البلدية العسكرية ، ولكن احمد باشا والي المدينة لم يوافق على ذلك ، وكتب الى الاستانة يشكو المسيحيين الدمشقيين ويتهمهم بالعصيان ، فأذنت له في تأديبهم ، فجمع اليه مشايخ المدينة وعلماءها في القلعة ، فأفتوا بتأديب العصاة ، وفي صباح اليوم التاسع من شهر يوليه سنة ١٨٦٠ بدأت الثورة في ناحية باب البريد قرب الجامع الاموي فثار اهل تلك المنطقة بدعوى الاهانة التي لحقت بالمسلمين على اثر حكم الوالي على بعض السوقة منهم بالطواف في الاسواق وكنسها وهم مغلولون عقابا لهم على ما ارادوه بالمسيحيين من الاهانة قبل ذلك برسم صورة الصليب على الطرق .

« وكنت انا في جملة اهل باب البريد ايضا ، فرأيت جيراني قد ثاروا كافة ، واغلقوا حوانيتهم وحملوا سلاحهم غضبا من تلك الاهانة المزعومة فأغلقت حانوتي مثلهم ، وتبعت الجماهير فطفقنا ندخل البيوت ونقتل كل من تصل اليه ايدينا من المسيحيين ، وكنت دون العشرين من العمر ، لا افقه ما افعل لان الاندفاع اعمى بصيرتي ، فدخلت بيتا هناك والخنجر في يدي يقطر دما فخرج الي شاب وترامى على قدمي يقبلهما ويتضرع الي ان اكتفي بقتله ولا ادخل البيت ، فلم اصغ الى قوله وازددت رغبة في الدخول فقال : « ليس في البيت احد الا فتاة هي خطيبة لي فاقتلني واكفف عن البيت لئلا يصيب الفتاة سوء » . فما كان مني الا اني طعنته بخنجري فسقط صريعا . ثم نظرت واذا بفتاة كالبدر طلعة والخيزران

قواما محلولة الشعر حالكته قد خرجت من ذلك البيت ، فرمت نفسهـا على ذلك الشاب تندبه وتبكيه ، فهممت بأن امسكها وأرفعها عنه فأصابت قبضتي شعرها واردت انهاضها فاذا هي ميتـة لا حراك بهـا . فشعرت من تلك اللحظة كأني صحوت من سكرة ، وعلمـت اني قتلت نفسـين بريئتين . وكانت يدي لا تزال قابضة على شعر الفتـاة فجذبتها فالتصق بيدي بسبب الدم الذي كانت يداي ملوثة به ، وغادرت البيت مهموما . فاذا بجماعة في لباس المغاربة يتقدمهم رجل جليل القدر في مثـل لباسهم ولكن اكثر اتقانا وعظمة ، فحالما وقع نظري عليه عرفت انه الامير عبدالقادر الجزائري وان هؤلاء رجاله يطوف بهم المدينـة لانقاذ النصارى من الذبح، وعلمت بعد ذلك انه فرق نحو اربعمائة من رجاله في الاسواق مسلحـين يحملون العائلات المسيحية الى بيته وقاية لهم من القتـل ، وقـد خرج هو بنفسه ايضا لمساعدة رجاله ، فاتفق انه وصل الى ذلك البيت وقـد تحولت للخروج منه . فلما عاين جثتي القتيلين في ساحـة الدار وقـد اختلط دمهما بالماء المنسكب من (الفسقية) على الرخام صاح بي قائلا : « يا لقسوتك يا جاهل » . ثم ناداني باسمي وامر رجاله ان يدخلوا الدار فارتعدت فرائصي وكأني شعرت بشنيع فعلتي ولم اعـد اعي ما اعمـل فحملني حب النجاة على ان افر من وجه اولئك المغاربة ، فأدركني واحد منهم وهم بالقبض علي فابتدرته بطعنـة من خنجري اصابت صـدره فسقط ، وتحولت الى داخل البيت وانا لا ادري الى اين اذهب فسمعت الامير يقول « اقبضوا عليه او اقتلوه لانه استحق القتل » . فأسرعـت الى نافذة وثبت منها الى الطريق وطلبت الفرار وما زلت مسرعا لا ألوي على شيء ، وفي يمناي الخنجر يقطر دما ، وفي يدي الاخرى خصلة الشعر ملوثة بالدماء ، وما زلت ممعنا في الفرار حتى سدل الليل نقابه فاختبأت في مكان منعزل بضعة ايام حتى علمت ان الحكومة السنيـة بعثت فؤاد

باشا مندوبا عنها لتحري الحقيقة وقتل الجناة ، فأيقنت بأن الامير عبد القادر يترقب الظفر بي ليحكم علي بالقتل وانا استحقه شرعا وعرفا ، فحرجت من دمشق الشام ولم اخبر احدا بخروجي وجئت الديار المصرية وانا لا ازال خائفا من غائلة ما جنته يدي . وكنت قد حفظت تلك الخصلة من الشعر في صندوق حتى لا انسى ذنبي . ولما استتب لي المقام في القاهرة لم ار افضل من انتظامي في خدمة قنصلية انجلترا لاكون في حمايتها اذا اقتضت الحال ، وما زلت اجد واترقى حتى وصلت الى ما انا عليه وقد سميت نفسي ابراهيم بدلا من عبد الرحمن اخفاء لحقيقة امري .

« وقد كنت عازما على كتمان هذه الحكاية حتى يحكم الله فيها فاما ان يسافر الامير عبد القادر من دمشق او ان يموت او تأتي ساعتي ، وبما انك اردت معرفة هذا السر وقد ألححت علي في استطلاعه فقد كتبت اليك هذا حتى اذا غرقت في البحر الذي نحن مسافرون فيه وقرأت هذا علمت ان والدتي ووالدي لا يزالان في دمشق ، وقد علمت ان شقيقتي اقترنت برجل عظيم غريب الديار فأعلمي ولدنا بذلك ايضا حتى يسير الى جديه ، فانهما يسران بمشاهدته كثيرا اذا كانا لا يزالان على قيد الحياة ، وفيما يلي اسم اسرتي وعنوانها . اما الصندوق فأحرقيه بجميع ما فيه والسلام » .

* * *

لم تكن فدوى تتم قراءة ذلك الكتاب حتى اختلج قلبها في صدرها وارتجفت ركبتاها وبردت اطرافها وصاحت قائلة : « بخيت .. بخيت من تظنه كاتب هذا الخطاب ؟... أليس هو والد حبيبي شفيق ، فان اسمه ابراهيم وهو موظف في قنصلية انجلترا ؟.. ولولا ذلك ما اخفى ابي هذا الخطاب ؟ » .

فتبسم بخيت وقال بصوت منخفض : « ان لذلك سببا مهما » .
قالت : « وما هو ؟ » .

فأخرج من يده ورقة اخرى وقال : « هذا كتاب والدتك المرسل مع هذا » . فتناولته وقرأته فاذا فيه :

« انت تعلم حكاية فقد اخي اثناء حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ . وقد استنتجت من قراءة هذه الورقة ان كاتبها هو اخي بعينه ، فبعثت بها اليك لأرى رأيك لعلك تعرف شيئا عن الرجل ، واحب المجيء اليكم لارى والدي وتتباحث في ذلك » .

فبهتت وقد اخذ العجب منها مأخذا عظيما ثم صاحت قائلة : « شفيق من ذوي قرابتي ؟ شفيق ابن خالي ؟.. آه لو عرفت ذلك قبل الآن » . ثم بكت من شدة الفرح والتأثر .

فقال بخيت : « عليك بكتمان الامر كأنك لم تعلمي شيئا عنه ، ومتى جاءت والدتك فكاشفيها بالحكاية واستطلعي كنه الامر منها ، وها أنذا سأعيد الخطابين الى حيث كانا » . قال ذلك وخرج فعادت فدوى الى فراشها وقد تضاعف حبها لشفيق بعد ان عرفت بما بينهما من القرابة .

وفي اليوم التالي بكرت للخروج الى الكروم وسار بخيت برفقتها فافتتحت حديث الامس فضرب الارض برجله وقال : « اؤكد لك يا سيدتي ان الله سيطيب قلبك قريبا لان محبتكما طاهرة واساسها القرابة عن غير علم منكما فان هذه الحجارة تقضي باجتماعكما والله يفعل ما يشاء ، وارى الآن ان تلحي على سيدي الباشا ليستقدم سيدتي الى هنا ، ومتى جاءت تذهبون جميعا الى دمشق لمشاهدة جديك » .

فلما عادت ألحت على والدها في استقدام امها فأجابها الى ذلك لانه كان يراعي رأيها كثيرا حفظا لرضاها على عزيز .

وبعد مضي بضعة اشهر جاءت والدتها ، فخاطبتها فدوى في امر تلك

الوصية وافهمتها ان اخاها هو ابو شفيــق حبيبها ، فقــالت والدتها : « نطلب الى الله ان يجمعنا بأخي ، وعسى ان يعود شفيق من السودان حيــا » .

فتنهدت فدوى وسكتت تنتظر الفرج من عند الله .

وكان الشتاء قد جاء ولم تعد تطيب السكنى في لبنان لتراكم الثلوج وهطول الامطار واشتداد البرد ، فاستقر رأيهم على السفر الى دمشــق ليشاهدوا الاهل ويقضوا بقية فصل الشتاء هناك .

فبعث الباشا الى بيروت يكتري عربة خاصة من شركة طريق الشام ، فلما حضرت العربة ركبوها جميعا تاركين سائر الخدم والامتعة في عاليه .

اما عزيز فتواطأ مع الباشا على ان يتبعهم الى دمشق ، فسارت بهم العربة على تلك الربى في طريق كثيرة التعرج ، تارة يصعدون وطــورا ينحدرون ، حتى وصلوا الى البقاع العزيزية المشهورة بخصبها واتساعها في منتصف الطريق بين بيروت ودمشق . وهي تبدو للرائي كأنهــا بساط متسع منقسم اقساما مربعة عديدة الالوان ، بين احمر قان وابيض واسمر واخضر وازرق وسنجابي وعنابي .

فوقفت بهم العربة بالقرب من فندق في ذلك السهل نحو ساعة حتى استراحوا ، ثم عادوا يريدون دمشق فلم يدركوها الا بعد الغروب فنزلوا بفندق مشرف على نهر بردى ، ونزل الباشا في الصباح التالي يفتش عن حمويه فاذا هما لا يزالان في بيتهــما القديم ، فلما شاهدا الباشــا لم يعرفاه لطول غيابــه عنهما ، وهو ايضا لم يعرفهما لمــا كان من تأثــير الشيخوخة عليهما مع ما رافق حياتهما من الاحزان والاكدار ، ولمــا عرفاه وعرفهما هما اليه وقبلاه وقبل ايديهما وسألاه عن ابنتهما فقال : « هي هنــا معي بخير وابنتي كذلك ، وانما جئت وحدي لكي اتحقق وجودكما في البيت » .

فتقدما اليه ان يبعث اليهما ليأتيا ، فذهب هو بنفسه وجاء بهـما ، ونزل الجميع ببيت عمل ، ولا تسل عن قلب ذينك الوالدين وما اظهراه من الاشتياق لابنتهما التي لم يرياها منـذ خمس وعشرين سنة تقريبـا . وقـد احبا فدوى خاصة لمـا كان في وجهها من اللطف والجمال رغم ما هي فيه من الضعف .

ومكث الباشا واسرته في دمشق بقية الشتاء . فلما كان ربيع سنـة ١٨٨٥ جاء عزيز الى دمشق راجيا نيل مرامه بعد طـول مدة الانتظـار ولكنه لم يجرؤ على مخاطبة الباشـا في ذلك لئلا يغضبه فيضيع جميـع مستلكاته ، ولا تسل عن ندمه على كتابة ذلك الصك الذي تنازل له فيه عنها ، فلم يسعه الا الصبر .

- ١٨ -

معركة مع قطاع الطرق

ولما اراد الباشا الرجوع الى مصر ، ألح على حمويه في ان يهـاجرا من دمشق ليقيما معه بمصر ، وقال لهما بعد ان اطلعهما على خطاب ابي شفيق : « اننا نرجو ان نجتمع بولدكما في مصر ، لاني لا اظنه يأتي الى هنا ، فالافضل ان تسيرا معنا لنقضي بقية الحياة معا هناك » . فاستحسنا هذا الرأي ، بل كان ذلك غايـة مناهما تخلصا من تذكر ولدهما في المدينة التي فقد فيهـا . فباعا كل ما كان لهما من الامتعة والاثاث والامـلاك ، وسار الجميع من دمشق قاصدين الى مصر . وكان ذلك في صباح يـوم

من ايام شهر ابريـل سنة ١٨٨٥ ، فاكتروا عربتـين ركبت في احداهما فدوى ومعها جداهـا ، وكانا قـد احباها محبـة عظيمـة ولم يعودا يستطيعان مفارقتها ، وركب في الاخرى الباشا وزوجته وبخيـت . وهم جميعا ملثمون بالكوفيات الحريرية الدمشقية ، وقـد التفوا بالعبـاءات فوق ملابسهم للوقاية من غبار الطريق كما هي عادة المسافرين في تلـك الجهات . وكانوا يقدرون ان يصلوا الى البقاع عند الاصيل فيعرجون من هناك الى بعلبك للمبيت فيها ، ومشاهدة قلعتها الشهيرة في اليوم التالي ، ثم يواصلون السير الى بيروت .

وكان الباشا قد اخبر عزيزا بأمر سفرهم ليقتفي اثرهم .

وما زالوا سائرين مسرعين بالعربتين مخـافة ان يدهمهم الليـل في الطريق . وفيها اماكن خطرة يكمن فيها اللصوص للنهب والقتل . وبعـد ثلاث ساعات حرنت خيل العربة التي بهـا فدوى وجداها ، وجعلـت تقهقر الى الوراء ، والطريق هناك على حافة هوة سحيقة فخاف السائق ان تتردى فيها العربة ، ونصح لهم بالنزول منها فنزلوا ، وما لبثت العربة ان اصطدمت بصخرة هناك فتعطل بعض ادواتهـا ، واضطر الباشا الى وقف عربته ايضا ريثما يتم اصلاح العربة الاولى . فلم يتم اصلاحها الا بعد الظهر بساعتين . فاستأنفوا السير مجدين خوفا من خطر الطريق .

ولما وصلوا الى محطة ميرسلون بدلوا خيل العربتين في مركز شركة النقل هناك ، ثم ساروا قليلا فأشرفوا على منحدر ينتهي بواد عميق بين جبلين والشمس قد قاربت الغروب ، وشاهدوا الى جانب الطريق قبـل مدخل الوادي بناء قديما مهجورا بدا رهيب المنظر في ذلك الوقت ، ولمحوا في ذلك البناء اشخاصا بملابس اهل تلك المنطقـة وقفـوا يتفرسون في العربتين حتى مرتا بهم ، ثم رآهم بخيـت يسيرون في اثرهم متمهلـين ، فأوجس خيفة منهم لكنـه لم يخبر احدا بذلـك واكتفى بأن اوعز الى

السائقين ان يزيدا في سرعة السير .

* * *

ما زالت العربتين سائرتين حتى دخلتا ذلك الوادي فاذا هو بين جبلين شامخين لا يرى المار فيه من السماء الا جزءا صغيرا جدا ، فقال أحد السائقين يخاطب بخيتا : « هذا هو وادي القرن المشهور بقاطعي الطرق ، وكان الخطر فيه شديدا جدا في الزمن الماضي ، واما الآن فقد استخدمت شركة النقل حراسا من الفرسان يتجولون فيه ذهابا وايابا حماية لعرباتها ومن فيها . كما ان الحكومة ايضا عينت نفرا من الجند لهذا الغرض وقد شاهدنا بعضهم في طريقنا منذ ساعة » .

وكان الباشا يسمع هذا الكلام ، فخفق قلبه بشدة ولا سيما ان معظم رفاقه نساء وشيوخ لا يقوون على الدفاع ، لكنه تجلد مسلما الامر لله .

وبعد ان سارت العربتان قليلا والرهبة مستولية على الجميع ، حرن الجواد الجديد الذي يجر عربة الباشا ، واخذ يسير القهقرى حتى اصطدمت بصخرة هناك ، وانغرست احدى عجلاتها في قناة على جانب الطريق ، فلم يعد اخراجها ممكنا الا رفعا بالايدي . فنزل الباشا من العربة مستعيذا بالله ، وكذلك نزلت فدوى ، واخذ بخيت يساعد السائق في رفع العجلة فاستغرق هذا وقتا غير قصير . وكانت الشمس قد غربت وساد الظلام ، فأخذ سائقا العربتين في الشتم والسب ، وكان الباشا يسمع السب بأذنيه ولا يسعه الا ملاطفتهما واسترضاؤهما بتقديم السجاير وغير ذلك من انواع الملاطفة فلا يزدادان الا غضبا وسبا .

واما بخيت فكان قد درس طباع القوم ، وسمع كثيرا من حوادث وادي القرن ، فأخذ يتظاهر امام السائقين بعدم الاكتراث .

واخيرا ، تم اخراج العجلة فاستأنفت العربتان مسيرهما وقد اشتد البرد ، فبالغ الباشا ومن معه في التدثر بالعباءات والتلثم بالكوفيات حتى لم يعد يظهر من وجوههم الا العيون ، وكل منهم مرهف سمعه وبصره خيفة من هول ذلك الوادي وشدة رهبته في ذلك الظلام السائد والسكون المطبق .

وكان بخيت راكبا بجانب السائق في العربة الامامية التي بها الباشا ، فلم يمض قليل حتى سمع وقع اقدام وراء العربة فالتفت فاذا بالرجال الذين خرجوا من ذلك البناء قد اسرعوا يريدون ادراك العربتين، فأوعز الى السائقين ان يسرعا ، ولكن القوم ادركوا الخيل وامسكوا بأعنتها واوقفوها ، فصاح بهم بخيت وقد بدا منظره مخيفا لشدة سواد لونه ولمعان عينيه في ضوء مصابيح العربتين الخافت : « ماذا تريدون ؟ » . فأجابه احدهم : « هاتوا ما معكم وفوزوا بأرواحكم » .

فرد بخيت بصوت جهوري وقلب لا يهاب الموت قائلا : « ليس عندنا الا السيوف القاطعة والرصاصات القاتلة ، فاذهبوا لشأنكم والا جنيتم على انفسكم ! » .

فقال الرجل : « فوزوا بأرواحكم ، وهاتوا ما معكم فذلك خير لكم ! » . وجرد سيفه ، وكذلك فعل اصحابه .

فوثب بخيت من العربة وفي يده المسدس واطلق منه رصاصة في الهواء قائلا : « اننا لا نهاب سيوفكم ، وهذه نارنا تحرق ابدانكم » .

وكان بخيت يتكلم وقلبه يخفق خوفا على من معه ولا سيما فدوى . اما السائقان فلأنهما مسؤولان عن العربتين امام اصحاب الشركة اضطرا الى مشاركة بخيت في الدفاع .

على ان اللصوص كانوا قد علموا ان ليس في العربتين من الرجال الاشداء غير هذا العبد والسائقين ، وسرعان ما نفخ احدهم في صفارة

معه فخرج من جوانب الطريق نفر من امثـالهم معهم السيوف والعصي والمسدسات ، فوقع الرعب في قلوب الجميع ، ولكن بخيتا اشتدت بـه النخوة والحماسة حتى صار كمن به جنة ، والتفت الى السائقين اللذيـن معه وقال : « هيا ايها الابطال ، اذيقوا هؤلاء الانذال كأس الوبال ! » .

فاستل كل منهما خنجره وهجما معه على الصوص ، بينما اطلق هو من مسدسه بعض الطلقات على هؤلاء فجرح اثنين منهم ، ولكنهم بدلا من ان يفروا ، بادلوه اطلاق الرصاص فأصيب في كتفه وصرخ من شدة الالم ولكنه لم يكف عن الدفاع .

اما العربتان فان خيلهما اجفلت من صوت الطلقات ، فأخـذت في التقهقر والقفز ، وصارت فدوى وجداها في خوف لا مزيد عليه وكذلـك الباشا وامرأته في العربة الثانية .

واخيرا تقدم بعض اللصوص فأطفأوا مصابيح العربتين وطلبوا الى من فيها ان يسلموا ما لديهم ، فأعطاهم الباشا بعض ما معـه من المـال ووعدهم بأكثر منه اذا كفوا عن اذاهم ، ثم جاء رفاقهم بعد ان تركـوا بخيتا مضرجا بدمائه بين حي وميت ، وبعد ان فر السائقان ، فانضمـوا اليهم . واخذ الباشا وحموه الشيخ في استعطاف اللصوص واسترحامهم ، بينما دنا احد اللصوص من عربة فدوى واشعل عودا من الثقاب ، فرآها جالسة بجانب جدتها العجوز في لباس السفر ، فلما رأته بالغت في التلثم واخذت في البكاء والانتحاب مع جدتها فقال لها : « اننا لن نؤذيكم اذا اعطيتمونا كل ما معكم » . فصاح زميل له كان قد لحق به وبهره جمال فدوى : « اما انا فلا اريد الا هذه الجميلة ! » . ثم مد يده وجذبهـا من العربة فسقطت على الارض ، فصرخت جدتها ، وراح الباشا وجدهـا يستعطفان اللصوص ليتركوها ويأخذوا ما يشـاءون ، ولكن هؤلاء لم يعبأوا باستعطافهم ، واستمروا في جرهـا على الارض يريدون الهـرب

بها ، بينما اخذ بقيـــة زملائهم في نهب ما في العربة من الامتعة والملابس وغيرها .

* * *

بينما كان اللصوص يجرون فدوى سمعوا وقع حوافر خيل قادمة مسرعة ، فتوقفوا عن جرها ، وظن الباشا ان القادمين من اللصوص فخارت قواه وسقط على الارض ، وصاحت فدوى قائلة : « ويلاه اتركوني يا ناس وخافوا من الله » . ولم تتم كلامها حتى وصل الفرسان القادمون وصـــاح احدهم : « قفوا مكانكم يا انذال » . فسمعه الباشا وادرك انه من الحراس فاشتدت عزائمه وكان قد هم بالنهوض ليدافع عن فدوى . ثم سمع بعض الطلقات النارية ، ورأى اللصوص يركنـــون الى الفرار ، ثم تقدم الفرسان القادمون وعددهم خمسة الى العربتين وهم ملثمون (بالكوفيات) وعليهم الملابس العسكرية فطمأنوا الباشا ومن معه ، فشكرهم وتوسل اليهم أن يرافقوهم الى البقاع او الى بعلبك وقال : « ان السائقـين فرا ونحن لا نعرف الطريق ، وقد اصيب خادمنا الامين وهو يدافع عنا » . فبحثوا عن بخيت حتى وجـدوه ملقى على الارض وهو مصـاب بجرح في كتفـه وآخر في فخذه ولا يستطيع النهوض ، فحملوه الى احدى العربتـين ، وركب اثنان من الفرسان في مكان السائقين وســارا بهما ، بينما ســار زملاؤهم بجانبهما .

ولم يمض قليل حتى خرجوا من ذلك الوادي ووصلوا الى محطـة الجديدة فوجدوا السائقين هناك ، فعنفهما الباشـا على فرارهما فاعتذرا بانهما جاءا ليبلغا ما حدث الى مأمور المحطة ليرسل من ينجدهم . ثم عاد كل منهما الى مكانه في عربته بعد ان بدلا الخيل وانارا المصابيح وساقا العربتين والفرسان ما زالوا يحيطون بهما . وسار الجميع يريدون البقاع .

لاحظ جد فدوى وهو راكب بجانبها في العربـة ان الفارس الذي يحرسها يرتدي عباءة تحتها ملابس مدنية وليس عسكريا كبقية رفقائه ، فلم يعبأ بذلك اول الامر ، ثم اراد الاستفهام منه عن بعض احوال تلـك المنطقة ، ولكن الفارس لم يرد عليه ، بل ادار شكيمة جواده ، ودعا احد رفاقه واشار اليه ان يجيب الشيخ عما يسأل عنه ، فتعجب الشيخ لذلك ، ولما سأله الفارس الثاني عما يريد ، قال له : « اريد منك اولا ان تخبرني لماذا لم يجبني رفيقك الحارس الآخر ؟ » .

فقال : « انه يا سيدي ليس من الحراس ، وكذلك نحن ! » .

فازداد الشيخ عجبا وقال : « اذن من تكونون ؟ » .

قال : « اننا من جند لبنان ، وكنا سائرين في مهمة الى دمشق ، اما هو فمسافر لقيناه في البقاع قادما من بيروت قاصدا الى دمشق ايضا ، ولما كان الليل قد دنا وهو لا يعرف الطريق طلب ان يرافقنا فأجبنا طلبه ، ويظهر انه كريم النفس جدا لانه سمع استنجـادكم سارع الى الهجـوم على اللصوص ، وابدى شهامة وشجاعة قل مثلهما ، ثم هو رغم تعجله الذهاب الى دمشق لم يسعه الا مرافقتكم معنا الى البقـاع ، مع ان هـذا يؤخر وصوله الى دمشق يوما كاملا على الاقل » .

فأعجب الشيخ بهذه الشهامة ، واعتزم متى وصلوا الى البقـاع ان يخبر صهره بذلك ليوفي الرجل حقه من الشكر والثناء .

وكانت فدوى جالسة بجانب جدها تسمع حكاية الفارس فأعجبتهـا تلك الشهامة ، وتذكرت حبيبها شفيقا فهاج بها الوجد واخذت دموعهـا تساقط رغما عنها ، ولم تكن تخشى ملاحظة جديها لان داخل العربة مظلم.

وفيما كان الشيخ يتحدث مع ذلك الفارس العسكري ، كان الباشا يتحدث مع الفارس العسكري الذي يسير بازاء عربته على سبيل التسلية ، ففهم منه حكاية ذلك المسافر الشهم كذلك ، واعجب به كل الاعجاب ،

اما ذلك الفارس نفسه فكان يسير بجواده وراء العربة الخلفية التي بها فدوى وجداها ، وهو في شاغل عن كل تلك الاحاديث بما يجول في خاطره من الهواجس والتأملات ، تطلعا الى دمشق التي كان يتوق الى الوصول اليها في اسرع وقت .

وما زالت العربتان سائرتين حتى سمع الباشا الفرسان يقولون : « ها قد وصلنا الى البقاع العزيزية واصبحنا على مسافة اربع ساعات من بعلبك » فقال : « اظن ان الافضل ان نبيت بقية هذا الليل في احدى القرى المجاورة ، لان حركة العربة قد اضرت بجريحنا » . ثم سأل عن اقرب قرية من الطريق فقيل له : « ان هناك قرية على مسافة نصف ساعة » . فهم بأن يأمر السائق بالمسير اليها فاذا ببخيت يئن ، فسأله عن حاله فقال : « لم اعد استطيع البقاء في العربة » . فأوقفوا العربتين ، ونزلت فدوى وهي ملثمة ودنت من ابيها تسأله عن بخيت ، فطيب قلبها . وبعث احد الفرسان يسأل عن اقرب بيت في ذلك الجوار ، فعاد واخبره بأنه وجد بيتا كبيرا على مقربة منهم ، فساروا اليه جميعا ، وترجل بعض الفرسان وحملوا بخيتا على ايديهم حتى اذا اقتربوا منهم تقدمهم الفارس المجهول وهو لا يزال على جواده وسأل عن اهل ذلك البيت ، فخرج اليه رجل في لباس اسود لم يستطع تمييزه ولكنه هابه لاسترسال شعر رأسه على كتفيه وشعر لحيته على صدره ، وكان يرتدي جبة سوداء غاية في البساطة فظنه راهبا وقال له : « ان معنا جريحا لم يعد يستطيع الركوب في العربة ، فجئنا به اليكم ، فهل تسمحون بأن يبيت عندكم الليلة واجركم على الله ». فبهت الرجل برهة كأنه يفكر في امر طرق ذهنه ثم قال : « حسنا فليأت » ونادى قائلا : « تعال يا احمد ساعد الضيوف في نقل جريحهم الى هنا » . فجاء رجل في مثل لباس ذلك الرجل ، وخف الى المساعدة في حمل بخيت ، حتى دخلوا به البيت واجلسوه على مقعد في احدى الغرف ، ودخل الجميع

الا العسكر فانهم بقوا خارجا .

- ١٩ -

الفارس المجهول

اراد الباشا الخروج للثناء على اولئك الفرسان ولا سيما ذلك الفارس الشهم المجهول ، لكنه شغل بتضميد جرح بخيت ، فخرج حموه الشيخ جد فدوى للقيام بذلك الواجب نيابة عنه ، بعد ان اشار الى فدوى وامها أن تدخلا لاحدى الغرف .

وكان الفرسان العساكر قد عادوا الى خيولهم يعدون لها العلف ، ولم يبق خارج البيت الا ذلك الفارس المجهول ، فحياه الشيخ وجلس معه امام البيت على (مسطبة) فوقها حصير ، يشرف الجالس عليها على سهل البقاع الواسع ، فأشعل كل منهما سيكارته واخذا بأطراف الحديث ، وكان الفارس ما زال ملتفا بالعباءة واللثام على وجهه ، فأخذ الشيخ يثني عليه قائلا : «لقد اسرتمونا بما أظهرتم من شهامة، فعسى ان نستطيع مكافأتكم».

فقال الفارس : « اننا لم نفعل ذلك لمكافأة ، وانما فعلناه ابتغاء مرضاة الله » .

ولاحظ الشيخ ان لهجته مصرية فقال له : «لعل السيد من اهل مصر؟»

قال : « نعم يا سيدي » .

فقال الشيخ : « وهل للسيد اقارب في دمشق جاء لزيارتهم ؟ » .

قال : « لا .. ولكن جئت لرؤية اصدقاء فيها » .

فقال الشيخ : « هل لك ان تخبرني عن هؤلاء الاصدقاء لاتنا من دمشق ، ولم تتركها الا صباح اليوم فلعلنا نعرف شيئا عنهم ، والا فأسألك الاغضاء عن جرأتي بهذا السؤال » .

فقال الفارس وقد ازاح اللثام عن وجهه تاركا الكوفية على رأسه : « العفو يا سيدي ، ليس في سؤالك ما يوجب الاعتذار ، ولكن اصدقائي هؤلاء غرباء . والاغلب انكم لا تعرفونهم لانهم من مصر ايضا » .

فقال : « ان صهري الذي رأيته الآن معنا قادم من مصر ، فلعله يعرف احدا من اصدقائك » .

قال ذلك ودخل يدعو صهره فجاء وهو لا يزال ملثما ، وحيى الفارس بكل لطف وبدأ بالاعتذار اليه على تأخره عن شكره لاشتغاله بتضميد جراح خادمه . ثم اخذ يشكر همته وغيرته ، والفارس مطرق خجلا .

فقال الشيخ للباشا : « ان السيد قادم من مصر يريد دمشق لمشاهدة بعض اصدقائه من المصريين » .

فالتفت الباشا الى الفارس وقال : « ومن هم اصدقاء حضرتك ؟» .

قال : « هم اسرة مصرية عميدها فلان باشا » . وذكر اسم الباشا نفسه .

ولم يتم كلامه حتى نهض الباشا ودنا منه متأملا ثم قال : « عجبا !.. انني انا هو يا سيدي ! » .

فنهض الفارس وألقى بنفسه بين يدي الباشا قائلا : « مرحبا بسيدي وعمي » . وطفق يقبل يديه ، فبهت الباشا ولكنه ادرك رغم ضعف النور ان الشاب الذي يكلمه هو شفيق بعينه ، فوقع في حيرة بين الانذهال والاضطراب واليأس والرجاء ولكنه لم يستطع التوقف عن تقبيله وضمه الى صدره ، وسأله شفيق عن فدوى وبقية الاسرة فقال : « هي في خير وستراها قريبا » .

ثم جلسا يتحدثان بأمر هذا الاتفاق العجيب ، وكيف انهما لم يعرف احدهما الآخر ، لما كان فيه كل منهما من الشواغل ، ولمبالغة الباشا ومن معه من التلثم ، وهم الباشا بأن يعرفه بالشيخ جد فدوى ، فسمع ضوضاء في حجرة السيدات فتركهما مستأذنا ودخل ليرى ما حدث فرأى امرأتـه وامرأة عمه وصاحب المنزل متعانقين وهم يبكون ويقبلون بعضهم بعضا ، فأخذه العجب ، ثم بادرتـه امرأة عمه قائلـة : « ولدي ... ولدي عبد الرحمن » . ثم اغمى عليها فأسرعت امرأة صاحـب المنزل وجاءت بالمـاء ورشتها به حتى افاقت ، ففهم الباشا ان صاحب المنزل هو اخو امرأته الذي كان مفقودا ، ثم امعن النظر فيه فاذا هو ابراهيم والد شفيق ، فوقـف مبغوتا ولحيته ترقص على صدره من شدة التأثر لغرابة ذلك الاتفـاق ، وتساقطت عبراته ولم يعد يعلم ماذا يقول . فقالت له امرأته : « هذا هو شقيقي الذي لم اره منذ خمس وعشرين سنة ، فنشكر الله على وجوده ». فأخذ الباشا يهنئهم بالسلامة وحدثته نفسه بأن يخبرهم بأمر شفيق ولكنه خشي على ابويه ان يموتا من شدة الفرح .

واخيرا قال ابراهيم : « آه من الدهر الذي قصم ظهري ونغص عيشي اما كان يحسن به ان يتم عقد اجتماعنا ، بولدي شفيق ؟! » .

فأخذ الباشا يخفف عنه قائلا : « ان الله قادر ان يجمعكما بـه ، فتأس الآن بأختك وابيك ، وها انذا ذاهب لادعو لك ابـاك » . وخرج فلقيه الشيخ قبل وصوله الى موضعه وسأله عن سبب تلك الضوضـاء فقص عليه الخبر بأسلوب لطيف بحيث لا يتأثر ، فدخـل الشيـخ وألقى بنفسه على ولده وقبله حتى اغمي عليه ، فرشوه بالماء حتى أفاق . وجلس الجميع يهنىء بعضهم بعضا . اما الباشا فخرج الى شفيق والتأثر ظاهر في وجهه ، فسأله شفيق عن سبب الضجة ، وكان قد اشفق على فدوى لئـلا تكون قد اصيبت بسوء ، فقال الباشا : « ليس هناك الا الخير يا ولدي

ولكني اسألك ان تمهلني قليلا لآتيك بالخبر اليقين » . ثم دخل الباشا الغرفة التي بها الشيخان وولداهما وبنتهما وحفيدتهما ، فوجدهم جميعا يندبون شفيقا ، فوقف في وسطهم قائلا : « ماذا ينقصكم الآن حتى يتم عقد اجتماعكم » . فصاحوا بصوت واحد : « شفيق ، شفيق » .

وكان بخيت في غرفة قريبة فلما سمع كلمة (شفيق) هب من فراشه كأنه ليس عليه بأس وجاء ماشيا وقد نسي اوجاعه ودخل بلهفة قائلا : « اين سيدي شفيق ؟ » . وجاء من الجهة الاخرى الخادم احمد بمثل تلك اللهفة . فقال الباشا : « ما الذي اقامك من فراشك يا بخيت ؟ » . قال : « والله يا سيدي ان اسم شفيق كاف ليبعثني من القبر وليس من الفراش. فأين هو ؟ » .

فلما سمعت فدوى كلام بخيت علمت انه يتكلم بلسان حالها ، فهاجت عواطفها فازدادت في البكاء ، فعاد بخيت يسأل : « اين سيدي شفيق أليس هنا ؟ » .

فقال الباشا : « ماذا تصنعون اذا جئتكم به الآن ؟ » . فقال بخيت : « اما انا ، فأعطيك روحي يا سيدي » . وقال الخادم احمد : « وروحي ايضا فداء لسيدي وحبيبي » . فاشتد بكاء فدوى ، ثم قال عبد الرحمن وهو يمسح دموعه وامرأته تبكي بجانبه : « ارغب اليك يا سعادة الباشا الا تهيج اشجاننا اكثر من ذلك » .

فقال الباشا : « امهلوني بضع دقائق فأخبركم الخبر اليقين » . قال ذلك وخرج الى حيث كان شفيق ينتظره وقال له : « اتذكر اني سألتك عندما قابلتك في مصر قبل سفرك الى السودان عن ابيك فلم تجبني جوابا صريحا ، ولكنك ذكرت انك ستكتب اليه في لندن ليكتب الي ، ولما سألتك عن وطنه ومذهبه لم تجبني جوابا قاطعا ، فهل علمت الآن وطن ابيك ودينه ؟ » .

فتأوه شفيق واراد الاجابة فسبقته العبرات ، ثم تنهـد وقال : « آه يا سيدي ، لا تذكرني بمصائبي لاني لا اعلم اين مقر والدي الآن ، وقد سألت عنهما في مصر فعلمت انهما غادراها الى حيث لا يعلم احد ، ثم علمت انكم في الشام فلحقت بكم وما زلت اسأل حتى علمت انكم في دمشـق فسرت برفقة هؤلاء العساكر اللبنانيين حتى التقيت بكم وكنت اؤمل ان اعرف منكم شيئا عن والدي » .

فقال الباشا : « لم يكن علمي عنهما اكثر من علمك انت حتى هذه الليلة بل حتى هذه الساعة » .

فقال بلهفة : « وهل عرفت عنهما شيئا الآن ؟ » .

قال : « نعم ، عرفت انهما على مسافة قريبة من هنا ! » .

فنهض شفيق مبغوتا وقال : « قل بالله اين مقرهما » .

قال : « هما يا ولدي في مكان قريب من هنا ، وفي الصباح ابعث معك بمن يهديك اليهما » .

فصاح شفيق كيف انتظر الى الغد ، يجب ان اسير اليهما في هـذه اللحظة فأرشدني اليهما يا سيدي ولك الفضل .

فضحك الباشا وقال : « انهما في هذا البيت يا ولدي » .

فقفز شفيق من شدة الفرح قائلا : « في هذا البيت ؟ أفي حلم انا ام في يقظة ؟ أم انت تمزح ؟ » .

فقال الباشا : « بل انت في يقظة يا ولدي ، وانه لاعجب اتفـاق لم يسمع بمثله احد من قبل » .

ثم حكى له الحكاية فأراد شفيق الهجـوم على الحجرة ، فمنعـه الباشا قائلا : « كان يمكنني ان اخبرهم عنك ، ولكنني اشفقت عليهم من سلطان العواطف اذ قد يترتب على شدة فرحهم ضرر جسيم ، فتعال ورائي وقف بالباب وانا ادخل قبلك وانبههم الى مجيئك » .

- ٢٠ -

لقاء الحبيبين

سار الباشا وشفيق في اثره حتى وصلا الى باب الحجرة ، فدخل الباشا واغلق الباب وراءه والتفت الى ابراهيم وامرأته قائلا : « انزعا عنكما ثياب الحداد ، لان وقت فرحكما قد جاء، بل هو وقت فرحنا جميعا».

فبهت الجميع واصغوا لسماع تتمة كلامه ، فاذا به قد تحول نحو الباب ففتحه وخرج وعاد ممسكا شفيقا بيده .

فلما دخل شفيق بهت الجميع وجعلوا ينظرون اليه وهم لا يدرون أفي حلم هم أم في يقظة ، ولم يكن هو اقل انذهالا منهم ، فاستولى السكوت على جميع الحاضرين لحظة ، لم يكن فيها قلب غير مختلج ، ولا ركبتان غير مرتجفتين ، ولا عينان غير شاخصتين . وكان اكثر الحاضرين انذهالا ذانك الوالدان اللذان اختارا التنسك ولبس الحداد والابتعاد عن العالم بعد فراق ولدهما الوحيد الذي قضيا العمر في تربيته وتثقيفه . اما فدوى التي قاست الاهوال العظام وهي غضة العود لطيفة المزاج ولم تكد تفتح عينيها حتى داهمها الحب بل الوجد فأخذ بمجامع قلبها ثم بعد عنها حبيبها الذي لم يكن لديها اعز منه في هذا العالم ، فلا تسل عن حالتها حينما عاينت حبيبها امامها بعد ان يئست من حياته .

واما شفيق ذلك الشاب الذي ربي في مهد العز ، وعرف قلبه الحب يافعا ، فقاده حب العلا وارضاء سالبة لبه الى تجشم الاسفار الطويلة واحتمال الاخطار في اقصى السودان ، فلا عجب ان كان ذهوله اعظم واشد حين دخل الغرفة فاذا فيها حبيبة قلبه ، ووالداه اللذان زهدا في الدنيا يأسا من حياته ولختارا التنسك على الرفاهية حتى لا يكون بينهما وبينه تفاضل

في الحياة .

وما افاق من ذهوله حتى هم بيدي ابويـه يقبلهما وهما يقبلانـه والجميع يبكون فرحا ، ولا سيما فدوى ، التي كانت اشد الجميع تأثرا ، ولكن الحياء حال بينها وبين اظهار عواطفها . على انها نسيت نفسها واخذت تصيح قائلة : « شفيق ؟.. شفيق هنا ؟ هل انت حي .. آه يا مهجة فؤادي أفي حلم انا أم في يقظة ؟ » .

اما هو فلم يكن يدري من يخاطب ولا الى من ينظر ولم تكن تسمع في تلك الغرفة الا شهيقا وبكاء يمازجه السرور والابتهاج .

واما بخيت واحمد فأخذا يرقصان ويقبـلان يدي شفيق وكتفـيه وصدره وظهره ووجهه ، ويقولان : « الحمد لله على السلامة يا سيدي » .

ثم نهض الشيخ الكبير وتقدم الى حفيده وقبله بدمـوع الفرح ، وكذلك صنعت امرأته وامرأة الباشا ، ثم انتصب الشيخ واقفا وقد امتلأت عيناه بدموع الفرح وقال : « هلم بنا يا اولادي نسجد شكرا لله تعالى على هذه المنة العظيمة التي وهبنا اياها بجمع شتاتنـا من اقاصي العـالم » . فشاركه الجميع في ذلك ، ثم جلسوا يقصون اقاصيصهم . وكانت حكاية شفيق اغرب الحكايات ، وما زالوا كذلك الى الصباح . فاتفقوا جميعا على المسير الى بعلبك يقضون فيها ذلك النهار ويشاهـدون قلعتها الشهـيرة العجيبة البناء ثم يسافرون معا الى بيروت فمصر .

* * *

ظل الباشا طول ليلته يفكر في امر هذا الاتفاق العجيب ، كما يفكر في امر عزيز وما قد يترتب على مجيئه في الغد ، واخـيرا قرر في نفسه ان عزيزا لا يستحق الاهتمام بأمره لانه خائن ذميم ، ومهما يصبه فلا اسف عليه ، ولا سيما ان املاكه كلها قد خرجت من يده وآلت اليه هو بمقتضى

ذلك الصك .

وفي الصباح خرج شفيق الى الفرسان الذين كانوا معه فأثنى على همتهم وكافأهم مكافأة حسنة ، ثم ركب مع سائر العائلة في العربتين ، وساروا قاصدين بعلبك ، فوصلوا اليها في الضحى ونزلوا بفندق هناك . ثم تجولوا لمشاهدة آثارها وقضوا بقية ذلك النهار في التنقل من مكان الى آخر يسرحون الطرف في مناظر تلك السهول الخصبة التي كساها الربيع حلة خضراء وفي المساء عادوا مارين بحجر الحبلى الهائل المعد للبناء ، ولا يستطيع حمله اقل من ستة آلاف رجل ، كما شاهدوا فيها احجار كثيرة مثله .

اما بخيت فبقي راقدا في سريره وقاية لجراحه ، فلما كان الاصيل سمع صوت رجل يعرفه ، ثم ادرك انه صوت عزيز فخفق قلبه خفوق الفرح ونهض لكي يخبره بمجيء شفيق والتقاء سائر العائلة بخير .

ودخل عزيز حجرة بخيت وهو لا يدري انه فيها ، فلما وقع نظره عليه تعجب من رقاده في منتصف النهار وسأله عن سبب ذلك فأخبره انه اصيب بجرح من اللصوص الذين سطوا عليهم في وادي القرن .

فبغت عزيز وقال : « وكيف نجوتم منهم، وهل اصاب فدوى سوء ؟»

فضحك بخيت وقال : « نعم اننا وصلنا الى اشد الخطر وقد نجونا بهمة ذلك البطل الصنديد والشهم المجيد » .

قال عزيز وقد خفق قلبه جزعا : « ومن هو هذا البطل ؟ » .

قال بخيت : « لا اقول لك من هو حتى تسألني بالحاح » .

فاغتاظ عزيز وصرخ بالحاح « قل بالله قل » . قال : « هو سيدي شفيق ».

فوثب عزيز من كرسيه وقد امتقع لونه وارتعدت فرائصه وقال : « أصحيح ذلك يا بخيت ؟ » .

قال : « نعم وحياة سيدي شفيق اني لم اقل الا الصحيح ، ومع

ذلك تمهل ريثما ترى جميع العائلة آتين معاً ، وفيهم والدا شفيق ، واخبرك بشيء آخر اظنه لا يسرك وهو ان شفيقا ابن خال فدوى » .

فاسودت الدنيا في عيني عزيز ، ولم يدر ايصدق كلام بخيت ام يكذبه ، فلبث ينتظر عودة الباشا ، ثم دخل غرفة تشرف على الشارع وجلس الى النافذة .

ولما كان الغروب رأى جمهورا كبيرا قادما فحقق نظره فاذا بشفيق الى جانب فدوى يتحادثان ، وقد حمل كل منهما طاقة من الازهار وهما في غاية السرور ، والباشا سائر بجانب شفيق فرحاً . فتحقق لديه ان فدوى قد خرجت من يده ولم يعد يمكنه الحصول عليها . ثم تذكر الصك الذي اعطاه للباشا فاشتعل قلبه ندما واحس كأنما صب عليه ماء يغلي ثم ماء بارد ، ثم سمع وقع اقدامهم على السلم فلم يعد يتمالك نفسه عن الارتعاش ، فذهب الى سريره وهو ينتفض من البرد والقشعريرة واصابته حمى شديدة اخذت تتعاظم حتى بلغت درجة الخطر ، فبادر صاحب الفندق باستدعاء الاطباء الموجودين في بعلبك فعقدوا مشورة طبية فاذا هو في حالة الخطر الشديد .

وشاع الخبر في الفندق ، وكان الباشا واسرته قد علموا بمجيء عزيز من بخيت ، وهذا لم يكن لديه يوم اكثر سعادة من ذلك اليوم ، فلما سمعوا بمرضه تراكضوا لمشاهدته فلم يأذن لهم الاطباء في الدخول بدعوى ان المريض في حالة لا تسمح لاحد بالدخول عليه ، فلما علم شفيق بذلك تكدر لما ألم بذلك الشاب في ديار الغربة لانه خشي ان تكون تلك الضربة قاضية عليه ، واما احمد وبخيت فكانا مسرورين بذلك لانهما اتفقا على الانتقام من عزيز لما عرفا من دسائسه وخياناته . واما الباشا فبقي صامتا يراجع في ذاكرته حكاية الصك وما قاساه ذلك الشاب من الاسفار والذل وكيف انه استولى على كل ماله وكيف كانت نهاية امره من الفشل الذي

أورث له هذا الداء الشديد .

على ان شفيق كان اشد الجميع اسفا على ما اصاب صديقه القديم ، ولا سيما انه علم ان سبب مرضه انما هو الفشل وخيبة الامل ، فلم يــذق طعاما في ذلك المساء اسفا عليه ، وقضى الجميع معظم الليل في حديث عزيز ومرضه وفيما هم في ذلك جاءهم خادم الفندق يقول : « ان العليل يــود مقابلتكم غير مبال بوصية الطبيب » . فخف شفيق والباشا الى غرفته ، ولما دخلا وقع نظرهما عليه وهو متوسد في فراشه وقد علا وجهه الاحمرار من اشتداد الحمى عليه . فلما سمع وقع خطواتهما حول وجهه نحوهما وامتلأت عيناه بالدموع ولم يكن يستطيع الحركة ، فأشار اليهما بأهداب عينيــه فاقتربا منه باكيين ووقفا بازاء سريره صامتين لئلا يزعجاه بالكلام . وكان الطبيب في الغرفة ساهرا من اجله ، فأشار عزيز اليه ان يخرج قليلا ولم يبق في الغرفة غيره والباشا وشفيق ، فأومأ اليهما وقد ضاق تنفسه مــن اشتداد الحمى ان يجلسا ، فأخذ كل منهما كرسيا وجلسا امــام السرير ينظران اليه نظرة الاسف ، ولا سيما شفيق فانه نسي كل سيئاتــه وكاد ينفطر قلبه شفقة عليه .

وبعد بضع دقائق اعاد عزيز نظره اليهما وهو يريــد التكلم فــلا يستطيعه ، فسأله شفيق : « وهل تحتاج الى شيء ؟ » . فأشار اليه بيده ان ينتظر ريثما يهدأ روعه فيخاطبه ، ثم مد يده الى شفيق فمد شفيق يده اليه وامسكه فأحس بارتجاف شديد ومد يده الاخرى فأمسكه شفيق باليد الاخرى فتوكأ عزيز على يدي شفيق يريد الجلوس فلم يستطع ، فوقف الباشا واسند ظهره ، ثم اجلساه وجعلا الوسائد وراء ظهره ، فجلس وهو لا زال قابضا على يدي شفيق ، ثم جذبه اليه حتى دنا منه فضمه الى صدره وجعل يقبله ويبكي بكاء الطفل والدموع تتساقط على خديه كالمطــر ، ولم يكن شفيق اقل بكاء منه وقد ادرك انه يريــد استغفاره مما فرط منه

فقال له : « طب نفسا يا عزيزي ، اني غافر لك كل ما تقدم من ذنبك » .

فتكلم عزيز عند ذلك وقال : « اني مستوجب لاكثر من الموت ، لان السماء قد سخطت علي لجنايتي ودناءتي ، وكان الله لم يرد ان تدنس يدك بقتلي فقتلني بالمرض ، فأتقدم اليك ، ان تشفق على دموعي وضعفي وتصفح عني فاني لا استحق اقل من القتل ، وعما قليل افارق هذه الدنيا ، فلم اشأ مفارقتها قبل ان استغفرك ايها الشهم الكريم ، لاني قد اخطأت في حقك وأذنبت ذنبا لا يغتفر ، وكم اردت بك السوء فجازيتني بالصفح ، وقد انتقم الله لك مني انتقاما عادلا » .

فلم يعد شفيق يتمالك عن البكاء ، ولكنه هم بعزيز وقبله مرارا وقال له : « ان الله يغفر الذنوب جميعا يا عزيزي ، وكل شيء بقضاء منه سبحانه وتعالى ، وقد صفحت عنك واطلب الى الله تعالى ان ينقذك من هذا الداء » .

فصاح عزيز وقد انهكه العياء قائلا : « لا .. لا .. اني لا استحق الحياة ، ولم يعد يحلو لي المقام في هذه الدنيا لاني دنستها بشروري وارتكبت فيها الخيانة والغدر ... اجل اني خائن غادر ، وقد كرهت حياتي الرديئة المدنسة بالشرور » . ثم التفت الى الباشا قائلا : « وانت ايها الشيخ الجليل ، اصفح عن شروري ، واسأل ذلك الملاك الارضي ان تعفو عني لما سببت لها من الشقاء بحياتي ، فكم نغصت عيشها وحاولت أذاها وهي ثابتة على وداد من لا استحق ان ألثم حذاءه ، آه لو اراها فأقبل نعلها واستغفرها قبل موتي ، لاني اشعر بثقل آثامي نحوها ونحو حبيبها هذا ... آه اني اشعر بأثقال اعظم مما احتمل وها انذا ارى الابالسة قادمة لاختطاف روحي الشقية لتلقيها الى السعير .

فقال الباشا : « شفاك الله يا ولداه ، ولا أراك مكروها ، وما دمت قد شعرت بخطئك فان الله سيرفع عنك هذه الشدة ، لانه يقبل التائبين » .

* * *

فقال عزيز : « ان ذنوبي اكثر من ان تغتفر ، والموت احب الي من الحياة ، ولم تعد عيناي تستحق النظر الى خيال تلك الفتاة الطاهرة العفيفة الودودة الخالية من كل عيب ، ولا الى هذا الشهم الفاضل الشريف الكريم الاخلاق » . قال ذلك وألقى بنفسه الى السرير وغاب عن الصواب ، فأسرع شفيق باستدعاء الطبيب ، فدخل وامر بالثلج فوضع على رأسه ، ثم جس نبضه وهز رأسه اسفا ، فاشتد قلق شفيق والباشا ولم يعد يمكنهما مبارحة الغرفة ، ولكن الطبيب طلب اليهما ان يخرجا قليلا ففعلا ، فاذا بفدوى وسائر الاسرة في انتظارهما ، وما علموا باشتداد الخطر على عزيز حتى اخذتهم الشفقة به واسفوا لذلك كثيرا .

- ٢١ -

خاتمة المطاف

مضى الليل دون ان يناموا الا يسيرا ، ثم بكر شفيق في الصباح الى غرفة عزيز فقيل له : « انه راقد وقد كلله العرق » . فاستبشر بزوال الحمى وعاد فأخبر الاسرة بما كان .

اما فدوى فكانت تعجب لشهامة حبيبها وكرم اخلاقه وودت شفاء عزيز اكراما لعواطفه لانها رأته آسفا كثيرا على موته .

ولما كان الضحى جاءهم خادم الفندق يدعوهم الى غرفة عزيز ، فذهبوا اليه فاذا هو في السرير وقد صفا لون بشرته ، فدخل شفيق والباشا فقال لهما : « ألا يأذن لي سيدي بنظرة قبل الممات من تلك العذراء الطاهرة

ولو من وراء اللثام لعلها اذا رأت حالتي ترثي لها وتعفو عن زلتي فان الله يستجيب دعاء الطاهرين » .

فبعث الباشا الى فدوى فحضرت ملثمة ومعها والدتها وجداها فلما وقع نظره عليها بكى وقال : « اليك اتوسل ايها الملاك الارضي ان تصفحي عن ذلتي وتغفري ذنبي انا الخائن الغادر الكاذب . وهـا أنذا مفـارق هذا العالم المدنس بشروري قريبا ، فأطلب الى الله بهـذا اللسان الدنس وهذا القلب الشقي ان يتم اقترانك بهذا الشهم الذي يليـق بك ، وان يحفظكما سعيدين راتعين في الرغد والهناء ، لكي تنسيـا ما كابدتمـاه بسببي من المتاعب والعذاب » .

قال ذلك واخذ يشهق بالبكاء حتى كاد يشرق بدموعه .

اما فدوى فلم تجب ببنت شفة ولكنها تأثرت من تلك العبارات كثيرا حتى بكت وصفحت عما تحملته بسببه .

فقال له الباشا : « انك يا ولدي قد فطرت قلوبنا بتوبتك وندمك ، وصرنا نود شفاءك من كل قلوبنا ، وانا واثق ان ولدي شفيقا لا يريـد لك الا الخير فنطلب الى الله ان يشفيك » .

فهم شفيق بعزيز وقبله قائلا : « ان الله قـادر على ان يشفيك ، واعاهدك على ألا أعاملك الا معاملة الاخ اذ قـد نسيت كل ما جئتـه ، وما هي الا هفوات يرتكبها بنو الانسان لضعفهم ، وجـل من لا يخطىء » .

وفيما هم في الحديث جاء الطبيب وفحصه ثم تبسم فاستبشر الجميع بزوال الخطر وشكروا الله ، ثم قال الطبيب : « ان العليل يحتـاج الى الرقاد الآن فاذا رقد ساعة ينهض معافى ان شاء الله » .

فخرجوا من الغرفة فرحين ، وعادوه بعد الغداء فاذا هو جالس في الفراش وعلى وجهه امارات الصحة وقد زالت عنه الحمى تماما ، وما زال يتقدم نحو الصحة يوما بعد يوم حتى عوفي تماما بعد ثلاثة ايام .

وزاره شفيق وهنأه بالسلامة فقال عزيز : « اني لا استطيع النظر الى وجهك حتى تؤكد لي صفحك عني » . فقبله واقسم له بالشرف انه قد صفح عنه ، فقبله عزيز ونادى الباشا فحضر فقبل يده قائلا : « اني اكون سعيدا اذا قبلتموني خادما في ركابكم » . فقال الباشا : « العفو يا ولدي». فقال شفيق لعزيز : « انك ستكون معنا اخا وصديقا ، وقد علمت بأمر انصك الذي كتبته لعمي ولا حاجة لنا به ، وها أنذا اتقدم الى سعادة الباشا ان يتكرم بارجاعه اليك لتعيش به فانه مالك وانت اولى به ، اما نحن فاننا مكتفون بحول الله تعالى » .

فصاح عزيز قائلا : « كلا .. كلا .. اني لا استحق قرشا واحدا من ذلك المال ، وحسبي اني بقيت حيا بعد كثرة ذنوبي ، وهذا المال حق شرعي لكم » .

فتبسم شفيق واخذ الصك من يد الباشا ودفعه الى عزيز فلم يرض تسلمه وألح عليه ان يبقيه معه وانه قد تنازل عن امواله كلها له لا يريد منها اكثر من سد الرمق ، فأبى شفيق ذلك ، ولما لم يقبل عزيز تسلم الصك مزقه شفيق بين يديه ثم احرقه .

فأعجب الجميع بتلك الشهامة ، ولا سيما عزيز الذي اصبح اسيرا له طوع ما يريد ثم قال : « سواء أردتم ام لم تريدوا فلا اقبل مفارقتكم بعد الآن ، واني اعد نفسي خادما لكم » .

فقال الباشا : « اذا اردت البقاء معنا فانك تكون ولدا لنا » .

وقال له شفيق : « انت اخي بعهد الله والله غفار الذنوب » .

اما بخيت فعاد بعد شفاء عزيز الى حب الانتقام منه اذ تذكر سابق خياناته ، وقد اغتاظ لما رأى شفيقا يمزق الصك ولكنه سحر بشهامته ونظر الى عزيز قائلا : « انظر يا عزيز انك والله لا تستوجب بحسب شريعتي اقل من الصلب ، ولكن شهامة هذا البطل قد عفت عنك ، ولو امرنا بأن نعبدك لعبدناك لان امره مطاع ، والامر له ولسيدي الباشا . ولكنني

لا انسى اعمالك وذلك الكتاب الذي بعثت به بل تلك الكتب التي سببت الشقاء لسيدتي ولكن ... » .

فابتدره احمد الخادم وقال : « اتذكر يوم رافقته الى الاسكندرية و ... » .

فأسكته شفيق قائلا : « كفى ما قلتماه ، واعلما ان من يريد الاذى لاخي عزيز فقد اراده لي ، ولا اقول اكثر من ذلك » . فقال الاثنـــان معا : « انه سيدنا ومولانا والامر امره بعد امرك » .

ومكث الجميع في بعلبك يوما آخر ، ثم ساروا الى بيروت ومنها الى مصر ، ولما دخلوا المدينة نزلوا ببيت الباشا ، وكانوا قد اعدوا فيه سائر وسائل الزينة .

ففي ليلة وصولهم قالت سعدى لابراهيم : « اتذكر كلامي لك في لندن عن زواج شفيق باحدى غنيات مصر فلم ترض » .

قال : « نعم » .

قالت : « هي فدوى التي كنت اعنيها ، فها قد تزوجها » .

فقال : « ألم اقل لك اني لا ازوجه الا بواحدة من اقاربي فها انه لم يتزوج الا ابنة عمته ، فسبحان مدبر الامور وموفق الحوادث » .

واحتفل الباشا احتفالا شائقا بزفاف ابنته الى شفيق ، دعا اليه عددا غفيرا من اعيان القاهرة [illegible]

وعاشت الاسرة كلها بعد ذلك في رغـد وسعــادة الى ان قضى الله بما شاء .

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان



١ـ فتاة غسّان
٢ـ أرمانوسة المصرية
٣ـ عذراء قريش
٤ـ ١٧ رمضان
٥ـ غادة كربلاء
٦ـ الحجّاج بن يوسف
٧ـ فتح الأندلس
٨ـ شارل وعبد الرحمن
٩ـ أبو مسلم الخرساني
١٠ـ العبّاسة أخت الرشيد
١١ـ الأمين والمأمون
١٢ـ عروس فرغانة
١٣ـ أحمد بن طولون
١٤ـ عبد الرحمن الناصر
١٥ـ فتاة القيروان
١٦ـ صلاح الدين الأيوبي
١٧ـ شجرة الدرّ
١٨ـ الانقلاب العثماني
١٩ـ أسير المتمهدي
٢٠ـ المملوك الشارد
٢١ـ إستبداد المماليك
٢٢ـ جهاد المحبّين